عودة جلجامش

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني: وفاء الساطي

مطانيوس مخول

عودة جلجامش

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الرواية (6)
2020

الإهداء

إلى روح البطل الإسطوريّ الخالد جلجامش

في سِفْرِ مَلْحمةٍ باحَتْ بها الحِقبُ عن عزمِ جلجامشٍ في الأرضَ يغتربُ

نحو الخلود سعى في عقلِهِ هَدَفٌ لا يَثني هِمَّتَهُ خوفٌ ولا تعبُ

لكنّ نِمْتارَ يأبى أن يلينَ لهُ في راحتيه سهامُ الموتِ والقُضُبُ

فعادَ جلجامشٌ في ثوبِ خَيبَتِهِ لأنَّما الخُلْدُ بالأعمال يُكْتَسَبُ

بُورِكْتَ جلجامشٌ فيما سعيتَ لهُ للخيرِ والخُلْدِ مثل الشَّمسِ تتَسِبُ

المؤلّف

الفصل الأوّل

كان يا ما كان، يا مستمعيّ الكلام، كان في قديم الزمان، مدينةٌ في جنوب العراق، اسمها أوروك، وكان أهلها يسمُّونها تحبُّباً أمام الغرباء بالوركاء. كانت تقع على ضفة نهر الفرات الشّرقيَّة، تتوسّط مجموعةَ مدنٍ، بُنيَتْ ما بين مجرى نهرَي دجلة والفرات الأدنيين.

إلى الشَّمال منها، كانت تقع بابل، فكيش، ثمّ أكّاد، وإلى الجنوب منها، أور، ثمّ إريدو. وإلى الشرق نيبّور، وشورباك، ولجش. وهذه المدن، ضمّها نهرا الفرات ودجلة على شبه جزيرة، تسمّى الآن بالأهوار. قبل أن يجتمع النهران في مجرىً واحدٍ، يُسمّى الآن بشطّ العرب، لينتهيَ في الماء المِلْح (الخليج العربيّ).

وإلى الشرق من نهر دجلة، كانت مدينةُ سوسة، وما وراءها بلاد عيلام (فارس). ومن خلف عيلام كانتْ تشرق الشمسُ كلّ صباح، بوجه الإله شمش، تحملُ النُّورَ والأمن والسلام للأنام.

أمّا أوروك أو الوركاء، فكانت درّةَ تلك المدن، حضارةً وتقدّماً بعد الطوفان. كانتْ مدينةً واسعةً، كما تقول عنها أساطيرُ الأوّلين، وتقول أيضاً: إنَّ الآلهة، هي التي خطّطتْها، فقسّمتْها إلى ثلاثة أقسام، الأوّل للسَّكن، ويتألّف من حيّين، الأوّل: اسمه حي قولاب، يسكنُ فيه الملك، وشيوخ المدينة وأعيانُها وتجّارُها، والثّاني: حي أَيْ أنّا، يسكنُ فيه عامَّةُ الناس.

في هذين الحيّين أشاد أهل أوروك مساكنهم، من الطوب المشويّ بالنار، وجعلوا سقوفَها من القرميد الأحمر. كانت البيوت متشابهةً، على نمطٍ هندسيٍّ واحد، لا يختلف كثيراً من حيث الشكلُ الخارجيُّ، بيتُ الفقير عن بيت الأمير. حتَّى بيت الملك لوجال بندا، كان مثلَ أيِّ بيتٍ من بيوت أهل المدينة. كلّها بُنِيَتْ على شكل مربّعٍ، تتحلّق الغُرفُ على أضلاعه الأربعة، حول فسحةٍ في وسطه، تختلف مساحتُها باختلاف مساحة المربع. ولكن كما قال المثل: (للبيوت أسرارُها). بيوت الأغنياء غنيّةٌ، يشرب أصحابُها الرّاح من كفّ الرّاحة، وبيوت الفقراء فقيرة تضنُّ على أصحابها بقشرة التفاحة.

ارتبطتْ بيوت المدينة بشوارعَ ضيِّقةٍ، توحي بالحميميّة والحبِّ بين أهلها. شُقَّتْ إليها قناةُ المياه من نهر الفرات، فصارتْ قطعةً من جنان السَّماء.

والقسم الثاني: زُرِع بالأشجارالمُثمرة، من كلِّ أنواع الفاكهة، أطلقوا عليه اسم جنينة الإله شمش. هي ملكٌ للجميع، يدخل إليها أيُّ شخصٍ، سواء أكان من أهْلِ المدينة، أم كان غريباً زائراً؟، فيأكل من ثمارها ما تشتهي نفسُه، ولكنّ أوامرَ الملك لوجال، تمنع منعاً باتاً حَمْلَ ثمرةٍ واحدةٍ إلى خارجها، فإن فعل أحدُ الزائرين، فالحرّاس، يقفون له بالمرصاد.

في جنينة الإله شمش مقاعدُ للاستراحة، وملاعبُ للأطفال، وبحيراتٌ يسبح فيها البَطُّ والإوزّ والأسماك. إنّها مُتنزّهٌ يؤمّه أهلُ أوروك في أوقات فراغهم، فيه يتسامرون ويمرحون، والأطفال يجدون فيه مراحهم وراحتَهم في اللعبِ، يقفزون فوق مروج الحديقة الواسعة بسرورٍ وحبورٍ.

أمَّا القسمُ الثالثُ: فهو وقفٌ للآلهة، فيه معابدُها التي انتظمتْ على شكل مربَّع ينقصه ضلع من الجهة الشرقية. وعلى بقيِّة الأضلاع اصطفّت المعابد. معبد الإله شمش السّماوي، ومعبد الإلهة عشتار، ومعبد للإله المُحارب أنليل، ثمّ بنى الملك لوجال بندا معبداً آخر للإله إيا، عربون نسبٍ لم يحظَ به بشريٌّ قبل لوجال بندا. وفي وسط هذا المربع انتصبَتِ الزقورة، حيثُ تُقامُ مراسم عيد الخصوبة في كلِّ عام.

في هذا القسم، تُقام أيضاً احتفالاتُ الأعراسِ، وعروضُ الرياضة البدنيِّةِ وألعابُ القوى. أمّا ميدان تدريب الشباب على فنون الحربِ والقتال، وركوبِ الخيلِ والطرادِ والصيد، فكان خارج المدينة.

كانت المدينة حديث الناس في كلِّ مكان، يؤمُّها التجَّار من بلاد عيلام والهند شرقاً، ومن أوغاريتَ حاضرةِ الكنعانيين، الواقعةِ على ساحل البحر المتوسّط غرباً، ومن إيبلا وماري والشام ومصر، يبيعون ويشترون، وهم آمنون على بضائعِهم وأموالِهم.

لأنَّ ملكَها لوجال بندا، كان عادلاً حكيماً، حازماً يقظاً ساهراً على شؤون مدينته، لا يخشى في الحقِّ لومةَ لائمٍ، لا تفوته شاردةٌ، ولا واردةٌ، يحكم بالقِسطاسِ العدْل بين الناس، الجميع عنده سواسيةٌ كأسنان المِشط. وفي عدله وحكمته تعدّدتِ الأقوال، وضُربتِ الأمثال.

بالإضافة إلى حسن سياسته، واستقامة سيرته، كان يقدّم الأضاحي إلى الآلهة باستمرار، فنال رضاها، فأكرمتْه بالزواج من كاهنةِ معبد إيا، بعد أن حلّتْ عليها روح الإله إيا، فصارتْ بمفاعيل الحلوليّة إلهةً أرضيّةً.

كان ذلك الزواج، بتدبير من كاهن معبد الإله شمش السّماويِّ.

مجلس الكهنة في أوروك، منحه لقبَ لوجال بندا المؤلّه. ومُنِحَتْ الملكةُ من قِبل مجمع الأنوناكي هديةَ عرسِها، عدداً من الألقاب: إلهةَ المدينة الحصينة، وعجلةَ السّماء، والبقرةَ المُقدَّسة، كما أفاد شامتور، كاهنُ معبد شمش.

عاش الملك لوجال والملكة ننسون في هناءٍ، يحلمان بنعمة الخصوبة، لنوال الصبيان والبنات، بعد أن نالا دعاءَ الشَّعب، ورِضا الآلهة.

صلّى الملك لوجال إلى الإلهة عشتار، بعد أن قدّم لها جَدْياً أبيضَ أضحيةً، لتمنحَ خصوبة الرَّحِم إلى زوجه الإلهة ننسون، فاستجابتْ الإلهة عشتار للدعاء، فحملتْ زوجُه، ثمّ أنجبَتْ بعد تسعةِ أشهرٍ صبيّاً، كأنّه فلقةُ البدر حسناً.

وزنُه خمسةُ أرطالٍ، دائبُ الحركة، كلُّ من رآه من البشر قال: هو ابن الآلهة. ولكنّ كاهنةَ معبد عشتار أشخارا، عندما باركتْه في المعبد، قالتْ: ثلثاه من الآلهة، وثلثٌ من البشر.

عاش الملك لوجال سعيداً بين شعبه، هنيئاً برضا الآلهة، كان يطوف على أسواق المدينة في النَّهار، يتفقّد حركةَ السُّوق، يُوصي بالعدل، ويُحذّر من الطمعِ والجشع، ويقدّر فعلَ الرَّحمة عند الرّحماء.

وعندما يعود إلى ديوان المملكة البسيط، يجلس بوداعةٍ وتواضعٍ على بُسُطٍ من الصّوف الأخضر، تُغطّي أرضَ الديوان كلَّها. يتحلّقُ حوله شيوخُ أوروك وحكماؤها، يتداولون شؤونَ المدينة وحاجاتِها. لم يُغلقْ بابَه بوجه أحد، يرحِّبُ بالقادمين، ويُودّعُ الآيبين بابتسامتِه الوديعة، التي تجعلُ الصدورَ الضيّقةَ من ذوي الحاجاتِ رحيبةً وسيعة.

كانت بساطةُ الديوان الملكيِّ، تعكسُ بساطةَ الملك لوجال، وداعةً ونقاءَ سريرةٍ. وعندما ينفضُّ المجلسُ، يأوي الملكُ إلى غرفةٍ مجاورة، حيثُ زوجه الإلهة ننسون وابنه الصغير جلجامش، فيُسعِدُ زوجَه، ويداعبُ طفلَه. فإذا أرخى الظّلامُ سدولَه على المدينة، تنكّر بلباس الدراويشِ مع صديقِه ووزيرِه الشيخ ترحاسيسَ، فيقومان بجولةٍ في أحياء المدينة، يسمعان ما يدور على ألسنة النَّاس من أحاديث.

كان همُّ الملكِ لوجال بندا، ألاّ يرى في مملكته مظلوماً، أو محتاجاً جائعاً، فاستحقَّ من شعبه لقبَ الملكِ العادلِ الرحيم.

ولكنَّ دوامَ الحال من المُحال. مرِض الملك لوجال أيَّاماً معدوداتٍ، أسلمَ الروحَ بعدها إلى نمتارَ، شيطانِ العالم السفليِّ.

بكتْ أوروكُ ملكَها العادلَ بدموعٍ غزيرةٍ، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً. لبستِ المدينةُ ثوبَ الحِداد الأسودَ أربعين يوماً.

بعد أربعين يوماً، جمع الوزيرُ الأوَّلُ ترحاسيسُ الشيوخَ في الديوان، وقال لهم: أيّها الشيوخُ الحكماءُ!، أوروك مدينةُ الآلهةِ العظام، أنجبتْ ملوكاً كثيرين، حكموا أوروك، كلٌّ بأسلوبه، بعضُهم أخطأ، وبعضُهم أصاب، وكان أصوبَهم في الرأي، وأنفذَهم للحقِّ، الملكُ لوجال بندا، رحمةُ الآلهة عليه. رحل إلى العالم السفليّ، كغيره من الرّاحلين، هذه سُنّةُ الحياة.

منذ أن خلقتِ الآلهةُ الإنسانَ الأوَّلَ، خلقتْه ليكونَ وذريتُه عبداً للآلهة.

لقد خلقتْه من ترابٍ، ليعودَ إلى التراب. الخلودُ للآلهة، والموتُ للبشر. هكذا جاء في ألواحِ الآلهة.

طاعةُ الخالقِ واجبةٌ على المخلوق، وقبولُ الموتِ من أوجبِ واجبات المخلوق. هو من السابقين، ونحن من اللاحقين. الحياةُ يجبُ أنْ تستمرّ.

بأمرٍ من الآلهة، ونزولاً عند رغبتِها، دعوتكم اليومَ للاجتماع، لانتخابِ ملكٍ جديدٍ، يحكمُ أوروكَ بعد الملك لوجال رحمتْه الآلهة.

راح الشيوخُ يستعرضون الأشخاصَ الجديرين بمنصب المُلْك، ولكنَّ الملكةَ الإلهةَ ننسون، اقتحمتِ المجلسَ، وقطعتْ مداولاتِه بقولها: لا يحقُّ للبشر معصيةُ الآلهة. مات لوجال بندا ملكاً، ووريثُه في الملك موجودٌ، فلماذا تتعبون أنفسَكم!؟. انظروا إليه!، ألا ترَونه!؟، إنّه يُمسكُ بيدي، جاء من رحمي، ثلثاه من الآلهة وثلث من البشر. ولن تجدوا في أوروك وريثاً للمَلك، اجتمعتْ فيه الصفاتُ التي اجتمعتْ في ولدي جلجامش.

صمت الشيوخُ، غضّوا أبصارَهم في حضرة الإلهة ننسون، قال الشيخُ أنمركار: كنتُ على وشك الإدلاء بقرارك، اقتراحاً للشّيوخِ الأجلاء.

يا سيِّدتي!، قراراتُ الآلهة أوامرُ، وعلى الشيوخ وأهلِ أوروك الطاعة.

قالتْ الملكة ننسون أمام صمت الشيوخ: سأكونُ الوصيّةَ على العرش حتَّى يبلغَ جلجامشُ سنَّ الرُّشد، الذي يمكّنه من قيادة المملكة بعد أبيه. بلّغوا قراري إلى أهل أوروك.

- قال الشيوخ: سمعاً وطاعةً يا مولاتي!.

انسحب الشيوخُ من المجلس، وراح المنادي بوقو، ينادي في شوارع المدينة بصوتٍ عالٍ: يا أهلَ أوروك!، فليُعْلِمِ الحاضرُ الغائبَ، بأنّ ملككم الجديدَ، هو جلجامشُ بن لوجال بندا، وأمّه الإلهة ننسون بنتُ الإله إيا، الملقّبةُ بسيدةِ المدينةِ الحصينة، عجلةِ السماء، البقرةِ المقدَّسة. ستكون وصيّةً على العرش، حتى يبلغَ ولدُها جلجامشُ سنَّ الرُّشد.

استقبلَ أهلُ أوروكَ النبأَ بكلِّ بساطةٍ، فالأمرُ الملكيُّ صادرٌ عن إرادةٍ إلهيّةٍ، بلسان الإلهةِ ننسون، بنت الإله إيا، زوجةِ ملكِهم المحبوبِ لوجال بندا، وجلجامش ولدها، يحملُ دماءَ أبيه.

استدعتِ الملكةُ الشيخَ أنمركار، بلّغتْه أمراً ملكيّاً، يقضي بتعيينه وزيراً أوّلَ لها، بدلاً عن الوزير الشّيخِ ترحاسيسَ.

حلّتْ مجلسَ الشيوخ، واكتفتْ بأنمركار وزيراً وحيداً، يُؤمَرُ فيطيعُ.

حكمتِ المدينةَ حكماً فرديّاً. ننسون أوروك، وأوروك ننسون.

راحتْ تحدِّثُ نفسَها: أنا من الآلهة، بمفاعيل الحلوليّة، التي حلّتْ عليَّ قبل أن أتزوّجَ لوجال بندا، الذي كان بشراً، مات لوجال، ومن حقّي أن أعيشَ حياتي كبقيّة الآلهة، لم يعد ثمّة رابطٌ يربطُني بالبشر. ولدي الذي جاء من رحمي، ثلثاه من الآلهة، والثلث البشريُّ، الذي يحمله من أبيه، يجب أن يتلاشى، يجب أن يذوب في الثلثين الإلهيين. وهذا لا يكونُ، إلاّ إذا جعلتُ بينه وبين البشر ستارةً، بحيث يراهم ولايرَونه، وعليّ أنا أيضاً، أن أحكم أوروك من وراء الستارة، فلا يجوز اختلاطُ الآلهةِ بالبشر. أنمركار، سيكونُ السّتارةَ، حتى يبلغَ ولدي سنَّ الرُّشد.

لوجال لم يضعْ بيديَّ سواراً من فضة، ولا عقداً من ذهبٍ، حرمني بزهده وتقشُّفه من كلِّ ما تحلُمُ به النساءُ، يجب تعويضُ كلَّ ما حرمني منه في حياته.

- نادتْ على أنمركار. قالت له: ادعُ شيوخَ المدينة إلى اجتماع في الديوان.

حضر الشيوخُ، لاحظوا تغييراً طرأ على ترتيب الديوان، غابتِ البساطةُ عنه، كما غاب البساطُ الأخضر، وغابتِ الأرائكُ، التي طالما اتكؤوا عليها مع ملكهم المحبوب لوجال بندا، وهم يتداولون شؤونَ المملكة، أو يتسامرون مع مليكهم كأصدقاء. فقط كرسيٌّ واحدٌ مغطّى بقماشٍ أحمرَ، وُضِعَ على مَصْطبةٍ في صدر الديوان. بدا الديوان مُوحشاً بعد سيِّده.

استقبلهم أنمركار قائلاً: أهلاً بكم أيّها الشيوخُ الأفاضل، باسم الإلهة ننسون، دعوتكم إلى هذا الاجتماعٍ، ثمّةَ أوامرُ ستبلّغها لكم. أودُّ أنا الوزيرَ الأوّلَ، أنْ ألفت نظرَكم إلى أمرٍ هامٍ. بعد قليل ستدخلُ الإلهةُ ننسون، ستجلس على هذا الكرسيّ الوحيد، ومن آداب المثول أمام الآلهة السّجودُ، وكأنّكم في المعبد. أليستْ ملكتكم من الآلهة!؟. ما أطلبه منكم، أن تسجدوا على الأرض عندما تدخلُ الإيوان، ولا ترفعوا رؤوسكم، حتى تأذنَ لكم. وثمّةَ أمرٌ آخر، أطلبه منكم أيُّها الشيوخُ الأفاضل!. ليس المُهمُّ أنْ تَعَوا ما تقوله لكم، أو تقتنعوا به، بل المهمُّ أن تسمعوا وتطيعوا، فليس للبشر حقٌ في مناقشة الآلهة، ولا الاعتراضُ على أوامرها، لا حاجةَ لكم بعد اليوم إلى عقولكم، فالإلهة ننسون بنت الإله إيا، ستقومُ بالتفكير عنكم، هي التي تقرِّر، ونحن - عبيدَها - ننفّذ، ليكن جوابُكم دائماً: سمعاً وطاعةً إلهتي ننسون.

بعد أنْ أنهى أنمركار كلامَه، دخل رجل من الباب الثاني للإيوان، اسمه بوقجار، وقال: أيُّها الشيوخُ!. الإلهةُ ننسون، بنتُ الإله إيا، قادمة إليكم.

دخلت ننسون، سجد الشيوخُ بحسب وصيّة أنمركار، جلستْ على الكرسيّ، ثمّ قالتْ:

- أيّها الشيوخُ البشريّون!. لكلّ زمان دولةٌ ورجالُها، أوروك مدينةُ الآلهة، كان ملوكُها بشراً قبل الآن، ولكنَّ الآلهة قرَّرتْ من الآن، أنْ يكون الملك من الآلهة، بدلاً من البشر، لما رأتْه من تبجيلكم للملك لوجال على حساب تبجيلها، واحترامه على حساب احترامها، ولكي لا تنسَوا، أنّكم عبيدٌ للآلهة، نقلتْ لوجال بندا إلى العالم السفليِّ، وأقامتْني مليكة على مدينتهم، أحكم بإرادتها، ولا مانعَ عندها، من أنْ يكون ولدي جلجامش ملكاً، بعد بلوغه سنّ الرشد، لأنَّ دمي الإلهي، يجري في عروقه.

تلقيتُ دعوةً عن طريق أبي الإله إيا، إلهِ التجَّارة والصناعة والمعرفة، لحضور مجمع الأنوناكي. في هذا الاجتماع، ستقرّر الآلهةُ مستقبلَ أوروك.

سوف أغيبُ بضعةَ أيَّامٍ عن المدينة، لحضور الاجتماع، الوزير أنمركار سينوب عنّي في فترة غيابي. الملك لوجال، لم يتركْ لي جواهرَ أتزيّن بها خلال الاجتماعات، ولا يليقُ بكم أنْ تكون ملكتُكم عاطلةً من الحليّ، اجمعوا لي حليّ نساء أوروك، أختارُ منها ما يليق بملكة أوروك، أمام الآلهةِ الكبار في المجمع.

انتهى الاجتماع، يمكنُكم الانصراف.

خلال يومين اثنين، كان أنمركار وبوقجار، يجمعان حليَّ نساءِ أوروك، من أساورَ وعقودٍ وخلاخلَ، كانت الحليُّ ثقيلةً، حمولة بغلٍ من الجواهر المصنوعة من الذهب والفضة، والمرمر واللازورد والعقيق الأحمر، وضعاها أمام الإلهة ننسون، اختارتْ منها أثمنها وأجملها، ثمّ أمرتْهما بقولها: ارفعوا الباقي إلى الحجرة المجاورة.

لبست ننسون بعض العقود، وقفت أمام المرآة، تأمّلتْ جمالها، قالتْ لنفسها: الجواهر جميلة، تليق بالإلهة ننسون، ولكنَّ الفستان الذي تلبسه لا يليقُ بها، لم يكن لوجال في حياته مهتماً بأناقته، ولا بأناقتي، كان زاهداً مُتقشِّفاً، وأرادني زاهدةً متقشِّفةً مثله، كان يقول لي: أنت من الآلهة، ولا يليقُ بك أن تتبرُّجي كبقيَّة النساء، هنَّ من البشر، كُتِبَ عليهنَّ الموت، أنت من الإلهات الخالدات، ستنتقلين إلى الدارالباقية، وهنَّ سينتقلْنَ إلى الدارالفانية، ومن حقّهنَّ التمتُّعُ بالحليّ والجواهر والعطور خلال حياتهنَّ القصيرة.

- قالتْ لنفسها: هذا هراء!.

تذكّرت فستان غزلانو، زوجة الشيخ ترحاسيس الذي كانت ترتديه يوم عيد عشتار. قالت لنفسها: كم تمنيتُ يومذاك، لو كان ذلك الفستان لي، ملكي، ألبسه، أختال به أمام نساء أوروك ورجالها، لأسرقَ اهتمام الجميع. تنهّدتْ بعمق. نادتْ أنمركار، قالت له: اذهب إلى زوجة الشيخ ترحاسيس، بلّغها رغبتي برؤيتها. ولا تنسَ تدريبها على أصول المثول أمامي قبل الدخول.

حضرتْ غزلانو، سجدتْ أمام الإلهة ننسون، وراحتْ تنتظر أمراً منها، بعد هنيهة من الانتظار، قالتْ ننسون: انهضي غزلانو!. أعتقد أنَّك تعلمين بأنّي مدعوةٌ

لحضور اجتماع الأنوناكي. وفي هذا الاجتماع، سيكون الجميع في أكمل أناقتهم، ولاسيِّما الإناثُ منهنَّ. أورورو، عشتار،أنتوم، ننليل، آيا. وبما أنّني أمثّل أوروك المباركة، فيجبُ أن أكون في أتمّ أناقتي أمامهنَّ.

- قالتْ غزلانو: نعم يا مولاتي، يجب أن تكوني أنيقةً، تشربُ عيونُ الآلهة من جمالك، يجب أن تتحدّث الآلهة ذكوراً وإناثاً عن جمال مولاتي ننسون، ملكةِ أوروك العظيمة. نساءُ أوروك سيحضرْنَ الاجتماع من خلالك، هذا فخرٌ لنا يا مولاتي!.هل من خدمةٍ أقدّمها لسيِّدتي؟.

- نعم. غزلانو!. ولكن أجيبيني أولاً: ألستُ جميلةً يا غزلانو!؟.

- بلى يا مولاتي، جمالك من الآلهة، وليس موجوداً بين البشر.

- هذا صحيح!. ليس موجوداً بين البشر، ولكنّه موجودٌ بين الآلهة.

- لست أدري يا مولاتي!، أنت الوحيدة التي رأيتُها من الآلهة.

- أنت محقّة، ولكنّي أنا رأيت، ولسوف أرى في الاجتماع القادم. يجب أن أكون محطَّ أنظار الجميع، يجب أن يكون الذكورُ من الآلهة هائمين بجمالي، والإناثُ حاسداتٍ له. الاجتماعُ سوف يستغرقُ سبعةَ أيَّامٍ، ولا يليقُ بملكة أوروك، أنْ تلبس فستاناً واحداً طيلة أيَّام الاجتماعات.

- هذا مؤكّدٌ يا مولاتي!. هل من خدمةٍ أقدّمُها لك؟.

- نعم غزلانو!. هل حضرتِ عيد الخصوبة الماضي؟.

- نعم!.

- أوتذكرين الفساتين التي كانت ترتديها نساءُ الأغنياء من أهل أوروك؟.

- نعم أذكر.

- أريدك أن تجمعي لي أجمل تلك الفساتين، لأختارَ منها أجملَ سبعة فساتينَ، قولي لصاحبات الفساتين: الإلهة ننسون، ملكة أوروك تريدُها.

- أمرك مولاتي!.

خلال يومين اثنين، كانتْ فساتينُ نساء أوروك الغنيات، بين يدَيْ ننسون بنت الإله إيا بمفاعيل الحلوليّة. اختارتْ أجملها، ثمّ أمرَتْ أنمركار، بأنْ يأخذ ما بقيَ منها إلى غرفة الملابس الخاصّة في معبد عشتار. وطلبتْ إليه، أن يبلّغ الكاهنةَ الأمّ: بأنَّ هذه الفساتين تقدمةٌ من نساء أوروك، إلى معبد عشتار، لتلبسَها بناتُ عشتار، فيُظهرْنَ فتنتهنَّ للراغبين من الزائرين. بلّغْها رغبتي برؤيتها أيضاً.

حضرتِ الكاهنة الأمّ أشخارا، أحسنتْ ننسون استقبالها، ثمّ قالتْ لها: أيّتها الأمُّ المباركة. ما دعوتُك إلاّ لأمر هامٍّ، فيه مصلحةُ المعبد الذي وكّلتكِ الآلهةُ على إدارته، كما وكّلتْني على حكم أوروك. كلتانا نعمل تحت إمرة الآلهة، وسنعملُ معاً على إرضائها.

- قالت الكاهنة الأمّ أشخارا: لقد نذرتُ نفسي لخدمة الآلهة، ولو طلبتْ الآلهة جسدي أضحيةً على محرقةٍ، لفعلتُ عن طيب خاطرٍ. اطلبي منّي باسم الآلهة، ألبِّ طلبك دون تردُّد.

- قالت ننسون: أيّتُها الأمُّ المباركة!. سيكون اجتماع الأنوناكي في الإسبوع القادم، وستتخذ الآلهة قراراتٍ بشأن أوروك، وسوف تسألُني الآلهة عن نشاط المعبد، وإقبال الغرباء على طلب البغاء المقدس من بناته، وعمّا تجنيه هذه المهنة من أرباح، لن أطلب منك توضيحاً للوضع الحالي، أعرف أنّه يشهدُ ركوداً، فبناتُ المعبد فقيراتٌ، لا يملكْنَ ثمناً للثياب المغرية، التي تجذبُ الغرباء. وكما يقول المثل، (لبّس العود بيجود) فقد أرسلت لك اليوم، أجمل فساتين نساء أوروك، ليلبسْنَها أمام طالبي المتعة. اطلبي منهنَّ باسم الإلهةِ عشتار، أن يُظهرن فتنتهنَّ، ليزدادَ دخلُ المعبد. ولسوف أعملُ منذ اليوم على دعم هذه المهنة، وتنشيط دخلها، على أنْ يكون نصيبُ القصر الملكي من الوارد خمسَه. وسيُنفَقُ هذا الخمسُ على تحسين أوضاع المدينة السياحيِّة، لتغدو أوروك قبلةَ السياح. أرجو أن يكون التعاونُ بيننا مثمراً.

توارتْ ننسون ستة أيام وسبعَ ليالٍ عن الأنظار، كانت في مخدعِها ترسم لما بعد اجتماع الأنوناكي المزعوم. في اليوم السَّابع استدعتْ أنمركار. مَثَل بين يديها مُهنِّئاً بعودتها من اجتماع الأنوناكي، كان مُتلهِّفاً لمعرفة ما دار في ذلك الاجتماع، ولكنّه حبسَ أنفاس لهفته أمام جلالة الإلهة العائدة من اجتماعٍ رفيع، قابلتْ فيه الآلهةَ السَّبعةَ الكبار، أعضاء الأنوناكي.

قالت: بلّغ المنادي بوقو، أن يُعلنَ للنّاس، عن رغبة الإلهة ننسون، سيدةِ المدينة، عجلةِ السّماء، عن اجتماعٍ عامٍ في فناء معبد شمش السّماويِّ، أريد إبلاغَ أهل أوروك ما قرَّرتْه الآلهةُ بشأن مدينتهم.

في الموعد المحدّد، ذهبتْ ننسون إلى معبد شمش السَّماوي، كان فناءُ المعبد غاصّاً بالحضور، شيوخاً وأطفالاً، رجالاً ونساءً. من يرَ الحاضرين آنذاك، يعتقدْ

بـأنَّ شـعب أوروك كلُّه حضـر، لرؤيـة مليكتـه العائـدةِ مـن اجتمـاع الأنونـاكي، وهذه هي الحقيقة، فشعب أوروك أتى كلُّه، لينالَ بركة الآلهة من خـلال الملكـة الإلهة ننسون.

بـدأ اللقـاء بصـلاةٍ قـام بهـا كهنـةُ المعبـد علـى شـرف حضـور الملكـة. وبعـد الصـلاة، دُعـي الجميـعُ إلى المائـدة الجماعيّـة، الـتي أُعـدَّتْها الملكـةُ قربانـاً للآلهـة السبعة الكبار. أكل الناس، ولسانُ حالهم يلهجُ بالدُّعاء للآلهة، وللملكة وللملك الصبيّ جلجامش.

أعلن أنمركار للجميع، أنّ جلالة الملكة، سوف تتحدّثُ إليهم بعد الانتهاء مـن طعـام المائـدة الجماعيّـة، الـتي تقيمهـا المعابـد عـادة، في المناسـبات الدينيّـة، أو الاجتماعيّة.

وقفـتْ ننسـون علـى منصّـةٍ مشـرفةٍ. إليهـا اشـرأبّتِ الأعنـاقُ، ورنـتْ الأحـداق، وكلُّهم مشتاق مشتاق، لسماع ما تحمله رسولةُ الآلهة من وراء الآفاق.

رفعـت ننسـون ذراعيهـا إلى فـوق، كمـن ينـاجي قـوةً عليـا، تطلـب عونَهـا، وتسـتجدي رفـدَها. أنزلـتْ يـديها، مـدّتْ بصـرها إلى الجمـوع الصـامتة الصـاغية، وعندما اطمأنتْ إلى لهفة الحضور لمعرفة ما حمَّلَتْها الآلهةُ إلى شعب أوروك.

- قالـت: يـا شـعبَ أوروك!. ارفعـوا الشّـكرَ للآلهـة، الـتي سـامحتْكم عـن تقصيركم. لقد لاحظتِ الآلهةُ تقاعسَ أهلِ أوروك عن تقديم الأضاحي لمعابدها، وعـدمَ تقـديم فـروض الطاعـة للكهنـة، ناسـين أو متناسـين، أنّ الكهنـةَ وكـلاءُ الآلهة علـى الأرض. هـل نسيتُم أنَّ عـينَ الآلهة بصيرةٌ باصرة، لكـلّ مـا استتر ومـا ظهرعلى الأرض، تعرفُ خفايا نفوسكم، ومنازعَ قلوبكم، فلا تسقطُ شعرةٌ مـن رؤوسكم إلاّ بمعرفتها.

الآلهة يـا أهـل أوروك!. تطـالبُكم بإصـلاحاتٍ تشـملُ مرافـقَ المدينـة، النظافـةُ أوّلُها، والصرفُ الصـحيّ ثانيهـا. مدينـةُ الآلهـة، يجـب أن تكـونَ نظيفـةً أنيقـةً تليـقُ بهـا، لـذلك تطلـبُ إليـكم تنظيـفَ الشـوارع. كـلُّ شـخصٍ يُنظّـفُ أمـام بيتـه، أو دكانه. وكلّ مخالف، سيدفعُ غرامة مقدارها عشرون مِثقالاً.

وكذلك تعزيلُ سواقي الصرف الصـحيّ، بـدءاً مـن البيـوت، وانتهـاءً بمصبّها في نهر الفرات. الآلهة يا شعب أوروك!. حريصةٌ على صحتكم، وصحةِ أولادكم،

تهتمّ بكم، وأنتم لا تعلمون، ترعاكم وأنتم نائمون. كلّ متقاعسٍ سيدفعُ غرامةً، قدرُها ثلاثون مثقالاً. يُكلّف شنشورتو بالإشراف على الإنجاز وتحصيل الغرامات.

لقد أعرب الإلهُ آنو، صاحبُ النور الثاقب، عن استغرابه عن عدم وجودِ قصرٍ ملكيٍّ في أوروك، القصر الملكيُّ، يجب أن يُعطيَ صورةً جميلةً عن رقيِّ المدينة وإيمانِها، وعظمةِ ملكها وسطوته، يجب أن يرى الغرباءُ مجدَ أوروك وعظمتَها، من خلالِ جمال قصرها الملكيّ وعظمته، فيخشَون قوتَها، ويعظّمون هيبتَها، فيحترمُها الصديق، ويخافُها العدوّ. لذلك أكّد المجمعُ على بناء قصرٍ عظيم، يعبّرُعن عظمة أوروك. لقد اختار له الإله إيا، اسماً (قصرالإيجلماه). يجب أن يُبنى على رُقعةٍ واسعة من الأرض. سأناقش الموقع، والمخطَّطَ الهندسيَّ مع المهندس عاميرو.

ثمّة أمرٌ آخر، يخصُّ الإيدابا، حيثُ يتعلّمُ صبيانُ أوروك الكتابةَ. الكتابة مهنةٌ تختصّ بها الآلهة فقط، ولا يحقُّ للبشر ممارستُها. الكتابة جزءٌ من المعرفة، والمعرفة خاصّةٌ بالآلهة. البشر خُلِقوا عبيداً، ولاحاجةَ لهم بالكتابة، ولا بالمعرفة. لذلك أمرتني الآلهةُ، أن أنقلَ الإيدابا إلى معبد الإله إيا، لتكونَ المعرفةُ تحت إشراف الكهنة، فلا يفسدُها البشرُ. الأولادُ المنذورون لخدمة المعبد، هم مَنْ يتلقَون مهارة الخط والكتابة والحساب. من أراد منكم تدوينَ شيءٍ، أو حساب كميّةٍ ما، فليستعنْ بخبرات غلمان معبد إيا، عن طريق الكاهن الأكبر أدريخي حصراً. الخدمة بأجر يحدّدُه الكاهنُ.

وأخيراً، كلّفني مجمع الأنوناكي، بالإشراف على تنفيذ الإصلاحات، واتخاذ كلّ الإجراءات التي أراها مناسبة.

شكرتُ الآلهة باسمكم، على كرمها وحُلمها وسَعَةِ صدرها، وتعهّدتُ لها، بأن ينفّذَ شعبي كلَّ ما تطلبه الآلهة. لذلك أتمنّى على الجميع، مساعدتي على تنفيذ ما تعهدتُ به أمام المَجْمعِ المقدّس.

زودتني الآلهة بحقِّ الشفاعة للمذنبين، إنْ تراجعوا عن أخطائهم، ومعاقبةِ المذنبين، إن تمادَوا في غَيّهم وضلالهم. سأبلّغكم كلَّ شيءٍ في حينه عن طريق وزيري أنمركار. قراراتي الملكية، إيحاءٌ إلهيٌّ، فلا تهتمُّوا، ولا تفكّروا بالنتائج. ربَّ ضارةٍ نافعةٌ!. الآلهة تعي ما خطّطتْ لكم، وأنتم لا تعون.

لنعمل معاً على تنفيذ رغبات المَجْمعِ المقدّس. دونما تردُّدٍ، لأنَّ الآلهةَ معصومةٌ عن الخطأ. أوروك كانت مدينةَ الآلهة، ولسوف تبقى. لتحرسْكم الآلهة آمين.

استدعتِ المهندسَ عاميرو، قالت له: بأمر الآلهة، ستقومُ ببناء القصر الملكيِّ في جنينة الإله شمش، أريده درةَ القصور، عَبْرَ الدّهور، وليكنْ واسعَ الأرجاء، متينَ البناء، سامقاً في السماء، في طابقه العلويُّ صومعةُ خَلْوةٍ خاصّةٍ بي، لمناجاة الآلهة، فهي محرابُ اتصالي معها، كلّما ضاقتْ بالمدينة الأحوال. زوّدني بالمخطّط خلال إسبوع، والتأخير ممنوع.

- قال عميرو: مولاتي!.سيكون كلُّ شيءٍ بحسب ما تشتهين، ولكنَّ حُسْن التدبير، من المال الوفير.

- قالت ننسون: يمكنك الاعتماد على أنمركار. بين يديه، ما تحتاج إليه، يمكنك الانصراف.

نادتْ أنمركار!.

أمرك مولاتي!.

- ابحث في خرائب أوروك، وما حولَها، حيثما تجدُ حجارة صالحة للبناء، أو أعمدة، انقلها إلى موقع بناء القصر، ابحث في دور أهل أوروك، صادر منها كلّ قطع الرُّخام والمرمر الموجودة، أرسلْ تجاراً إلى ماري، لشراء ما يحتاجُه بناء القصر. كل ما يطلبه عاميرو، ضَعْه بين يديه، لكي لا يكون حجّةٌ على التقصير في التعمير لديه.

- ولكنّ المالَ يا مولاتي!. أينَ المال؟.

- لا عليك. ليحضرْ قيّمُ بيتِ المال يا أنمركار!.

- ليس لبيت المال قيّمٌ يا سيِّدتي!، كان مولاي الملك لوجال، يُشرفُ على مال المملكة بنفسه، يساعدُه مجلسُ الشيوخ. دائماً كانت النفقاتُ تساوي الواردات، والفائضُ القليل، يُوزّعُ على الفقراء والمحتاجين.

- ماذا يعني هذا!؟. الخزينةُ فارغة!.

- نعم يا مولاتي!، يمكنُكِ التأكّدُ بنفسك، انظري إلى هذا الصندوق، افتحيه وانظري ما فيه.

- أخذتِ الصندوقَ، فتحتْ غِطاءَه، قلّبتْ نظرها في داخله، كان فارغاً تماماً. رفعتْ رأسَها، مدَّتْ بصرها في أرجاء الديوان، ثمّ أردفتْ قائلة: كيف سيُبنى القصرُ إذنْ؟.

- لستُ أدري يا مولاتي!.

- اعمل بنظام السُّخرة. نظّم لائحةً بأسماء القادرين على العمل، قسّمهم إلى سبع مجموعاتٍ، في كلِّ يوم تعمل مجموعةٌ تحت إمرةِ المهندسِ عاميرو، أمّا غيرُ القادرين على العمل، فسيدفعُ كلّ فردٍ منهم عشْرةَ مثاقيلَ.

- وماذا عن النفقاتِ وشراءِ الأدواتِ يامولاتي!؟.

- أحضرْ لي شيخ كار الصّاغة.

حضر شيخُ كار الصَّاغة، مَثُلَ بين يدَيْ الملكة حسب الأصول. قالت ننسون: أنمركار!. أحضرْ عشرين قطعةً من الحِليّ، حيثُ وضعتْها يداك، أعطِها إلى شيخ الكار، ليبيعها في السوق.

أمّا أنت أيّها الشيخُ الخبير، فيجب أن تعلمَ، أنّ الجواهر التي بين يديك، تخصُّ الإلهة ننسون بنتَ الإله إيا، إلهِ الكار والتجّار، فكنْ حريصاً على بيعها بأحسنِ الأسعار، وأحضرْ ثمنَها إلى هنا كلَّ مساء، لتأخذَ غيرَها إلى السوق. ليكنِ البيعُ إلى الغرباءِ حصراً، لا أريدُ أن تُباعَ قطعةٌ منها إلى أهلِ المدينة.

- قال الشيخُ: أمرك مولاتي!. أخذ القِطعَ العشرين وانصرف.

- وأنت يا أنمركار!. لتتفقْ ثمنَ الحليّ على بناء القصر. في كل إسبوعٍ، ستقدّم لي لائحةً تفصيليَّةً بالنفقات. والآن استدعِ شَنْشَتور، كاهنَ معبدِ الإله المحاربِ أنليل.

- أمرك مولاتي!.

حضر كاهنُ معبد أنليل، أحسنَتْ نِنْسون استقبالَه. أجلستْه في مكانٍ قريبٍ منها، إكراماً له. طلبتْ له شرابَ العِرقْسوس، ثمّ سألتْه عن أوضاع المعبد.

- قال شنشتور: مولاتي الملكة!. معبدُ أنليل في أسوأ حال. البشر لا يلجؤون إلى ربِّي أنليل المحارب، حامي أوروك، إلاّ إذا هدَّدهم عدوٌّ خارجيّ، أو ظالمٌ داخليٌّ. وفي عهد الملك لوجال رحمتْه الآلهة، كان الأمنُ وفيراً، والسّلام دريراً، والناسُ لا يشكون أمراً خطيراً، فنسَوا ربّي أنليل، وصار قَدْري بينهم قليل.

- صدقتَ أيُّها الكاهنُ!. علينا أنْ نعمل معاً على إعادة هيبة أنليل إلى قلوب الأهلين، لندخلِ الخوفَ إلى قلوبهم، يفتحوا للمَعْبَدِ جيوبَهم، عليك أن تُشيعَ بين الناس، أنّ ملكَ كيش، يريدُ غزوَ مملكة أوروك، وهو يدرّبُ جيشَه، ويجمعُ عَتادَه استعداداً للهجوم. ولا بأسَ من أنْ يقومَ بعضُ غلمان المعبدِ، ببعض السرقات لبيوت بعضِ الأغنياء.

- هذه تعليماتُ الإلهِ أنليل، حمّلني إيّاها إليك، وأنا أهمسُها الآن في أذنيك، لتبقَ هذه الكلماتُ سرّاً بيننا نحن الاثنين

وضعتُ خطّة لزيادة واردات المعبد، خِمْسُ الوارد سيكونُ من نصيب معبد الإله إيا، معبد إله الكار والتجّار. يُوضَعُ هذا الخِمسُ بين يديّ، لكوني قيّمةً عليه، ومسؤولةً عنه أمام أبي الإله إيا. هذه تعليماتي إليك أيُّها الكاهنُ المُبجَّل، أرجو أنْ نتعاونَ معاً لرفعِ مستوى أوروك. يمكنُك الانصراف.

- قالتْ لنفسها: بقيَ معبدُ شمش السّماويّ، كيف السبيلُ للسيطرة عليه، كهنتُه ورعون أتقياءُ أصفياءُ، يحبّهم الناس، ويخشاهم ذوو(الباسْ)، أموالُه كثيرةٌ، وواردتُه وفيرةٌ، تأتيه الصَّدقاتُ والأُضحياتُ، من كلِّ حدْبٍ وصوب. أقربُ الشّيوخ إلى كهنتِه، هو الشيخُ ترحاسيس، ولكنَّ ترحاسيسَ نظيرُ الملك لوجال، في التقشُّفِ والزّهد، والمحافظةِ على المالِ، لاستقامَةِ الأحوال. ولا يُمكنُ شراؤه أو خِداعُه، هو خبيرٌ حكيمٌ، بخفايا الأمور عليمٌ، ومع ذلك يجبُ أنْ يكونَ معي، لا عليّ، يجب توجيهُه إلى حيثُ أرغبُ، سوف أكلّفُه بوظيفةِ قيّمِ الصندوق في معبدِ شمش السَّماويَّ، ومن خلالِ أعمال البرّ التي يحبُّها، ومشاريعِ خدمةِ العاجزين والمحتاجين، أُشغلُه عمّا يجري في المدينة، سأوحي له بمشاريعَ، يرغبُ بها الإلهُ شمش، تفتح كنوزَ المعبدِ على السوق، ومن السّوقِ سنحوّلُ قسماً منها إلى الصندوق. يجب أنْ ألعب معه لعبةَ السوق.

ليس أمامي أفضلَ من شهبندر التجّار. شهبندر التجّار يلعبُ بالأسعار، هو أفضل من يُمسكُ السوقَ، ويملأُ الصندوق. بالذكاء والدهاء اللذين يملكهما، يجعلُ ضعافَ النفوس شركاءَ مستورين، عن أعينِ المبصرين.

نادتْ بأعلى صوتها، كمَنْ وجدَ ضالته بعد حين: ادعُ شهبندرَ التجّار يا أنمركار!.

- أمرك مولاتي!

- حضر شهبندرُ التجّار، وقال بكلِّ وقار: أمرك مولاتي!.

- التجارةُ مهارةٌ وشطارة، أليس كذلك يا شهبندرَ التجّار!؟.

- بلى يا مولاتي، شهبندر التجّار، خادمُكِ المطيع، في الشراء والبيع!.

- أعجبني جوابُك يا شهبندر التجّار!. ما طلبتُك إلاّ لأقف على مهارتك في البيع والشراء. ففي التجارة، تظهرُ المهارة والشّطارة، وبزيادة الأموال تتحسّنُ الأحوال.

- لديَّ في صندوق معبد الإله إيا، شفيعِ ونصيرِ التجّار وأصحابِ الكار، مبلغٌ من المال، ولكوني قيّمةً على الصندوق، ومُؤتمنةً عليه من قِبَلِ الإلهِ إيا، أرغبُ بتدوير المالِ، في إنجاز الأعمال، وليس في المدينة أأمنَ منك على مال المعبد من بعدي.

- سمعاً وطاعةً يا مولاتي!. أموالُ الآلهة مؤتمنٌ عليها. ومن يجرؤُ على اختلاسِها، أو العَبَثِ بها!؟، شراكةُ الإله إيا، بركةٌ لأموالي، وحارسةٌ لها، ضَعي بين يديّ بركتَكِ، وبركة الإله إيا فقط، وستُوزّعُ الأرباحُ كالتالي. ثلثٌ لي، وثلثٌ لكِ، وثلثٌ لمعبد الإله إيا.

- يُشرّفُني ويسعدُني، أن تكونَ أموالُ المعبد شريكةً لأموالي. بركةُ الإله إيا، وبركةُ ابنته ننسون، ستحلّان على تجارتي، فلتقرّي عيناً، ولتهدئي نفساً يا مولاتي.

- لتحلَّ عليكَ، وعلى تجارتِكَ، بركةُ الإله إيا، وعلى أهل بيتك أيضاً. سيرتّبُ معك أنمركارُ أمورَ الشراكة، .يمكنُكَ الانصرافُ.

- أنمركار!. ليحضرِ الشيخُ ترحاسيس.

- أمرك مولاتي!.

- ترحاسيسُ بين يديك يا مولاتي!.هل من خدمةٍ أقدّمُها لملكة أوروكَ المؤلّهة.

- أهلاً بالشيخ ترحاسيس. الملكُ بأعوانِه وخاصتِه وخلاّنه، فإنْ كانوا من الحكماءِ الأوفياء، تفرّغ الملكُ إلى العدلِ والعملِ والبناء. كنتَ أقربَ شيوخ أوروك إلى زوجي الملك لوجال بندا، رحمته الآلهة، ولديك خِبرةٌ واسعةٌ، بتسيير أمور المملكة، ومن الخطأ أن تضنّ بخبرتِك، على مدينتك التي تحبُّها، بعد رحيل ملكك المحبوبِ لوجال.

- أمرك يا مولاتي!. كنتُ السميعَ المطيعَ للملك لوجال، رحمتْه الآلهة، وسأكونُ معك أيضاً سميعاً مطيعاً. هل من خدمةٍ أقدّمُها لمولاتي الملكة؟.

- نعم يا ترحاسيس!. معبدُ شمش السّماويّ أكبرُ معابدِ أوروك، وأغناها، وفي صندوقِه مبلغٌ كبيرٌ من المال، لا يستفيدُ منه أحدٌ!، والإلهُ شمش جزيلُ الرَّحمة، واسعُ الإحسان، شمسُه تشرقُ على الأخيار والأشرار، التقيتُ به خلالَ اجتماع الأنوناكي الأخير، فنبّهني إلى تخفيفِ الأوجاعِ عن الفقراء والجياع، عن أولئك المساكين الذين تملأُ أنّاتُهم الأسماع. قال لي بالحرف الواحد: في المدينةِ يا

ننسون!. فقراءٌ حلَّ عليهم البلاءُ، من الشَّفق وحتّى الغَسَق، لا يجدون ما يسدّون به الرمق. في معبدي أموالٌ كثيرةٌ، فلماذا لا تجبرون بها تلك القلوبَ الكسيرة!؟. لا أريدُ أن أسمعَ في أوروك أنّةَ موجوعٍ، يعاني من الجوع. هذه مسؤوليتُك يا ننسون!.

لقد استدعيتُك ياترحاسيس!، لأنقل إليك رغبةَ الإله شمش بضرورة جَبْرِ خاطر المكسورين، الذين في الفاقة غارقين. ستكون قيّماً على صندوق المعبد، بأمر مني، بناءً على التفويضِ الذي أحملُه من الإله شمش، نورِ الأرض والسماء، إلهِ الرحمة، معينِ المظلومين، مواسي المحزونين، نصيرِ الخيّرين، عدوِّ الشَّريرين. فما رأيك؟.

- أمر مولاتي، والسمعُ والطاعةُ للإله شمش السّماويّ، ومَنْ يستطيعُ عُصيانَ رغبةِ الإله شمش!؟.

- حسناً ترحاسيس!. يمكنُك الاجتماعُ بكاهن المعبدِ شامتور، وإعدادِ الخُططِ الكفيلة بإرضاء الإله شمش، بلّغْه بركتي، أتمنّى لكم التوفيقَ، استعنْ بشهبندر التجار، فهو خبيرٌ بالأسعار.

- أمرك مولاتي!.

تنفّستْ ننسون الصعداءَ، وشكرتِ الآلهةَ التي وهبتْها الذكاء، وقالت: ماذا بعد؟. بقي أمامي الجيشُ، قائدُه ضعيفٌ، وعددُه نحيفٌ، وسلاحُه خفيف. لم يُعِرْه الملك لوجال اهتمامَه في حياته، ولم يُقحمْه في نزال، ولا في ميدان، لم يكن يرى به حاجةً للمملكة، إلاّ بما يكفي للحراسةِ، وضبطِ طرقاتِها الحسّاسة، وتنظيمِ حركةِ الناس زمنَ مُقياضةِ الأعمال وفي المناسبات.

الجنديُّ منهم غريرٌ، وبالقتال غيرُ خبير. فالملك لوجال عقد تحالفاتٍ وصداقاتٍ مع الملوك المجاورين، مما جعل المدينةَ في منأى عن الطامعين. ولكنّ قوةَ المُلْك من قوة الجيش. يجبُ أنْ يكونَ لأوروك جيشٌ قويّ. وسيكونُ قائدُه الأعلى ولدي جلجامشُ، جلجامشُ يجبُ إعدادُه من الآن على قيادة الجيش، وفنّ حكم المدينة، هو الملك عندما يبلغُ سنّ الرُّشد، يجبُ أن يعتليَ عرشَ مملكةٍ قويّةٍ، صاحبةِ سطوةٍ على العباد في كلِّ البلاد.

بعد أشهرٍ معدوداتٍ سيكونُ عيدُ الخصوبة. مَنْ سيمثّلُ دورَ الإله دوموزي!؟. جلجامشُ ابنُ الحاديةَ عشْرةَ غيرُ قادر على الإخصاب، إذا لم يخصبِ الملكُ رحمَ كاهنة المعبد، فلن تحلَّ بركةُ الخصوبة على أوروك، يجبُ تدبيرُ الأمر من الآن.

ما زالتْ علائمُ الذكورة غائبةً عن وجهه، على الرّغم من أنّه عظيمُ الهامة، طويلُ القامة، واسعُ الصدر، عريضُ المنكبين، طولُه عشرةُ أشبارٍ، وعرضُ مَنكبيه أربعةٌ. كلُّ شيءٍ فيه يُوحي بالفتوةِ والقوة، ولكنَّ هذا لا يكفي للقيام بطقوس الخصوبة مع كاهنةِ مَعْبدِ عشتار، يجب تدريبُه منذُ الآن على مضاجعة النساء، حتى تكونَ طقوسُ العيد صحيحةً، تَرضى عنها الإلهةُ عشتار.

- أنمركار!.

- نعم يا مولاتي!.

- اذهبْ إلى معبد عشتار، بلّغْ الكاهنةَ الأمّ أشخارا، بأني راغبةٌ إليها، بإرسال أجملِ بناتِها إليَّ، وأكثرِهنّ خِبرةً في مُضاجعةِ الرجال.

- أمرك مولا تي!

دخلتْ إلى ديوان الملكة ننسون فتاةٌ هيفاءُ نجلاءُ، بشرتُها سمراءُ، في غاية الجمالِ والبهاء. انحنتْ أمامَ الملكة، قالت:

- اسمي نيكال، من بنات عشتار، أرسلتْني الكاهنةُ الأمُّ إليكِ، خادمةً لك يا مولاتي. كلّي آذانٌ سامعة، وإليك جئتُ طائعة.

- تأمّلتها ننسون ثمّ قالت: حسناً !. ستكونين خليلةً للملك جلجامش. وهذا شرفٌ لك، لم تحظَ به فتاةٌ من قبلك، ستقومين بتدريبه على معاشرة النساء ومضاجعتِهنَّ، بما تملكين من خِبرةٍ في فنِّ مُمارسة الحبّ.

- كوني له عشيقةً وحبيبةً. ستبقين ملازمةً له حتى عيدِ الخصوبة القادم. علّميه طقوسَ الجنس المقدّسة، التي تُمارسُ في ذلك اليوم، أريدُه أن يقومَ بدوره مُمثّلاً للإله دوموزي على أكمل وجه. هل عرفتِ مهمتَك التي طلبتُك من أجلِها؟.

- نعم يا مولاتي!. سأكونُ عندَ حُسنِ ظنّك، وظنِّ سيِّدتي الكاهنةِ الأمّ.

- عليك - قبل الالتقاء بالملك -، بالاستحمام وارتداءِ فستانٍ جديدٍ، يليقُ بخليلة الملك جلجامش، أنمركار سيرشدُك إلى غرفة الملابس، اختاري ما يحلو لك. يمكنُك الانصرافُ إلى عملك.

- أنمركار!.

- نعم مولاتي!.

- أريدك أن تختارَ عدداً من الشطّار، ينتشرون في كلّ مكانٍ من المدينة، ينقلون لنا الأخبار، وما يدورُ في رؤوسِ البشر من الأفكار، حتّى لا تفوتُنا شاردةٌ،

ولا واردة، انشرهم في الأسواق، ليكونوا لنا كالأبواق، ومن خلالهم نوجّه الناس، إلى ما يجعلنا من أوّلي القوّةِ والبأس.

- كم رجلاً أختار يا مولاتي؟.

- ما يكفي لرصد المدينة، ولا سيَّما مداخلُها الأربعة، أسواقها، حماماتها، ساحاتها، دور العبادة، لا تُقْصِرِ العددَ على الرجال، ليكنْ من بينهم نساءٌ، ولا سيّما اللواتي يمارسْنَ مهنة البغاء. ولا تنسَ أنْ تجعل لهم قائداً من الشطّار، جَسوراً لا يخشى السيرَ في النار، ليكونَ لهم رائداً. وليكنْ من السُّفهاء، يعلّمُهم العملَ في الخَفاء، يسرقون الأفكارَ والأخبارَ، كما يسرقُ النومُ اليقظةَ من العين.

- أمركِ مولاتي!.

- أحضرْ قائدَ الجيش في الحال.

- أمرك مولاتي!.

- حضر القائدُ، تقدَّم من الملكة. جثا أمامها، رفع جذعه ثمّ وضع يدَه اليُمنى على صدره وهو يقول: القائدُ كلامو يا سيّدتي!. هل من خدمةٍ أقدّمُها لمليكتي. أنا وجنودي فداؤك، وفداءُ أوروك مدينةِ الآلهة.

- كم جندياً تحت أمرتك أيّها القائدُ كلامو؟.

- مئةُ جنديٍّ، وأحياناً ينضمُّ إلينا بعضُ الشباب، من الغيورين على أوروك، إذا لَزِم الأمر.

- وهل هذا العددُ كافٍ لصدّ هجومِ جيشٍ طامعٍ بأوروك؟. وما هو نوعُ السِّلاح الذي يحمله جنودُك المئة؟. وكيف تتواصلُ معهم؟، وما هي أعطياتُهم؟.

- مولاتي! صدّ هجوم الطامعين، مسؤوليةُ شعب أوروك، إرضاءً للإله المحارب إنليل، هم لا يتقاعسون خوفاً من غضبه، أنتِ أعرفُ منّي بعاصفة غضب إنليل. أمّا السلاحُ، فلدينا عشرون سيفاً فقط من البرونز، والباقون يتسلَّحون بالعصيّ والنبابيت، أمّا التواصلُ، فيكون عبْرَ ساحة التدريب في الميدان أسبوعيّاً، أمّا أُعطياتُهم فتقتصر على ما تجودُ به مهنةُ الصيد، وأحياناً من هباتِ معبد إنليل الشحيحة.

- أعطيات إنليل شحيحة!؟. لماذا؟.

- مولاتي!. البشر لا يلجؤون إلى معبدِ إنليل، إلاّ في وقت الحاجة، عندما يدهمُهم عدوٌّ طامع، يستغيثون بربي أنليل، لدرءِ الخطر، عن الوبر والمدر. خلالَ حكم الملك لوجال، عرفتِ المدينةُ الأمان، وعمّ فيها السلامُ، فنسي البشرُ ربّي أنليل.

- هـذه مهمَّتُك أيّهـا القائـد!. يجـب أن يـذكـر النـاسُ الإلـهَ أنليـل، في اليقظـة والنوم.

- وكيف يا مولاتي!؟.

- لا يعـرفُ البشـرُ قيمـةَ أنليـل، إلاّ عنـد غيـاب الأمـن. مهمّتُك أنْ تُرسـلَ غيـومَ الأخطار، إلى هذه الديار، عندئذٍ يشعرُ الناسُ بقيمتِك، وأهمِّيتك وأهميّـةِ جنـدك في حياتهم.

- هذه الغيومُ بدأتْ تتشكّلُ يا مولاتي!. ثمّةَ أخبارٌ تقول : إنّ ملكَ كيش، يُعِدُّ جيشَه لغزو أوروك.

- هذا يعني أنّ، غيومَ غضب أنليل، بدأتْ تتجمّعُ في الأفق، هـو يريـدُ الانتقـامَ مـن أوروك، قـرأتُ أثنـاءَ حضـوري لاجتمـاع الأنونـاكي، علامـاتِ الغضـب علـى وجهه. انشرْ هذا الخبرَ بينَ النَّاس، وادعُ الشبابَ القادرين على القتـال إلى سـاحاتِ التدريب، ليكونوا خبيرين بمواجهة العدوِّ.

- ولكنَّ الزمنَ ليس لصالحنا يا مولاتي.

- نعمْ!، الوقتُ أمامَنا قصيرٌ، ولكنْ ليس هناك من ضَيرٍ، إنْ لجَـأ النّاسُ إلى الإلهِ إنليل، يَسْترضونه بالقرابين. ريثمـا نعيـدُ بنـاءَ الجيش، وأنـا بـدوري، سـأرسـلُ رسولاً إلى ملك كيش. لمعرفة نواياه، فإنْ كان طامعاً في مالٍ أعطيناه، أو في جاهٍ حابيناه، ريثما نقوّي الجيشَ، عـدداً وعـدّةً وتـدريباً، ونحصّـنُ المدينـةَ، فـإذا تمَّ لنـا ذلك، غزوناه في عِقْرِ داره، بدلاً من أنْ يغزونا في عِقْر دارنا.

- يجب أن يعيشَ شعبُ أوروك حالةَ اللاحرب، واللاسلم، حتى يبقى على أُهْبَةِ الاستعداد للمواجهة. ولكنْ يجبُ أن نتأكّدَ أولاً، من أنّ الإله إنليل، يقف معنـا لا مع مملكةِ كيش.

- كيف نرضيه يا مولاتي!؟.

- بالهبـات والقـرابين يـا كلامـو!. عليـك أن تخـرجَ إلى الرُّعـاةِ في السّـهوبِ الغربيّـةِ، تفـرضُ علـيهم أجـوراً عـن رعـي قطعـانِهم، لأنّ المراعـي وقـفٌ للإلـه السَّموقان، ليكنِ الأجرُ سمناً أو صوفاً أو جلوداً أو أنعاماً من قطعانِهم، لأنَّها نعمةُ من الآلهة، منّتْ بها عليهم، ليجودوا ببعضٍ منها للآلهة، وسيكونُ للإله أنليل نصيبٌ حسنٌ منها، سنعيدُ بناءَ الجيش، وسنزيدُ عدَده وتسليحَه، وسنعملُ على تدريبه.

- غداً أو بعد غدٍ، ستخرج إلى الرعاة مع عدد من جنودك بسلاحهم الكامل، طالبهم باسم الآلهة، بدفع ما يترتّب عليهم لمعابد أوروك. قل لهم: إذا لم يدفعوا، فإنَّ الإله أنليل، سوف يرسل إليكم نمتار شيطان البراري والقفار، فإن أبَوا، فانزل بهم أشدَّ العقوبات، ولكن حذار من القتل!. عند عودتك، سيكون بيننا حديث آخر. يمكنك الانصراف.

- دخل أنمركار. مولاتي!،

- الشيخ كابار، يطلبُ إذناً بالدّخول.

- كابار!، أكبرُ التجّار!.فليدخلْ.

- مولاتي! ملكةَ أوروك العظيمة!. داري سرقها اللصوصُ، لم يتركوا بها شيئاً!.

- وأين كنت يا كابار!؟.

- خرجتُ وأهلَ بيتي إلى شاطئِ النهر للاستجمام، أمضينا سحابةَ يومنا، وعندما عدنا، وجدتُ باب بيتي مفتوحاً، وأثاثه مسفوحاً، وصندوقَ مالي مقدوحاً، لقد أخذوا كلَّ شيءٍ يا مولاتي. سألتُ نفسي: أأنا في حلمٍ أم في علم!؟، لقد عشتُ الكابوس يا مولاتي! كالمنحوس.

- ماذا تريد أيّها الشيخُ كابار؟.

- أرى أنْ تستخدمِ مولاتي عسساً في الليل، ونظّارةً في النهار، ليكونوا عيناً ساهرةً، على أموال الأغنياء في بيوتهم العامرة.

- ومن أينَ الأموالُ ياكابار، لتنفيذ هذه الأفكار!؟. أنت أعرفُ الناسِ، بأنّ الصندوق مصابٌ بالإفلاسِ، بسببِ سياسةِ الملك لوجال الماليّة، التي لم تحْسبْ حساباً لصروف الدَّهر الحاليّة.

- افرضي الضرائبَ يا مولاتي!

- أعلى الفقراءِ، أم على الأغنياء!؟.

- على الأغنياء والفقراء يا مولاتي!.كلُّ من يملكُ بيتاً يدفع مثقالاً ضريبة حراسة، وكل من يملك حانوتاً في السوق يدفعُ عنه خمسة مثاقيلَ أيضاً، ومثلُها على كلّ شارٍ أرضاً مرويّةً، ومثقالين فقط عن كلّ شارٍ من الأرض.الزراعيّة البعليّة.

- ولكنك طلبتَ الحراسةَ لبيوت الأغنياء دونَ الفقراء!.

- مولاتي!. الفقراء لا يطمعُ بهم اللصوصُ الأشقياء. ولاحاجةَ لهم بالحراسة، ولكنَّ القانونَ، يجب أن يساويَ بين الجميع!. من ليس معه يُؤخَذُ منه، ومن معه يُعطى ويزاد، هكذا تُساسُ الرعيّةُ يا مولاتي!. الفقراءُ يجبُ أنْ يبقَوا فقراء، والأغنياء يجب أن يبقوا أغنياء، الفقراءُ يخدمون الأغنياء، والأغنياءُ يخدمون الملك، والملك يخدمُ الآلهة. هكذا يجب أنْ تسيرَ الحياةُ في الدولة.

- سأجعلك قيّماً على بيت المال ياكابار!. ولسوف يساعدُك في تحصيل الضرائب شنشور تو. أمّا معلّمُ الحساب إشماريا، فسوف يساعدُك في الحساباتِ وضبط الصندوق.

- خادمُك المطيعُ الأمينُ يا مولاتي!.

- يمكنُك الاجتماعُ بمعاونَيك، لتبدؤوا العمل. انتهتِ المقابلة.

دخلتْ ننسون في خلوةٍ مع ذاتها، قالتْ في سرّها: الشيخُ كابار شحيحٌ مقتّر، ولكنّه يملك ذاكرةً قويّةً، يعرفُ كيفَ يجمعُ الأموال، ويعرف أيضاً، كيف يحافظُ عليها، أهمُّ ما أحتاج إليه الآن خزينةً مملوءةً بالمال. تساعدني على بناءُ القصر والجيش، وتحصينِ المدينة، سورُها الترابيُّ المنخفض، لا يصدُّ عدوّاً غازياً.

بناءُ القصر يحتاجُ إلى متابعة، وبناءُ الجيش يحتاجُ إلى قائدٍ جديدٍ متحمّسٍ للمغامرة والمجد الشخصيّ، قويِّ الشخصيّة، شديدِ البأس مرهوبِ الجانب، إنْ قام أفزع، وإنْ ضرب أوجع. القائدُ كلامو مسالمٌ رقيق القلب، لا يمكنُ الاعتمادُ عليه. أرسلتُه في هذه المهمّةِ السّهلة، لأجرّب عزمَه وفهمَه. إنْ فشل فسأكلّفُ الفارسَ شوناترا بدلاً عنه، رأيته في مهرجانِ الفروسيّة لعامين متتاليين. هو رجلٌ جسيمٌ، في الخطابة فهيمٌ، وبفنون الفروسيّة عليمٌ، يفوزُ في السباق، وإليه تشرئبُ الأعناق. لأجرّبنّه في تعليمِ الملك جلجامش فنَّ ركوبِ الخيل والفروسيّة أولاً.

- أنمركار!.

- أمرك مولاتي!.

- أحضرْ لي الفارسِ شوناترا.

- يدخلُ شوناترا، يَمثُل أمامَ الملكة. أمرك مولاتي!. خادمُك المطيع.

- سأسندُ لك مهمّةَ تدريب الملك جلجامش، على الفروسية وركوب الخيل، رأيتُ مهارتَك بنفسي، ولن يخطئَ بك حدسي. أريده أن يتخرّجَ على يديك فارساً

(مغوارْ، لا يُشَقُّ له غبارْ، حتّى يكون اسم ملك أوروك - جلجامش - مالئاً الأمصارْ). فإنْ نجحتَ في مَهمّتك، رفعتُ لك مرتبتَك.

- أمرك مولاتي!. شوناترا لأمرك سامعٌ طائع، وبعطفِك طامع. وسأكون للملك جلجامش مدرّباً بارعْ. حتّى يغدو - بعون الآلهة - فارسَ المعامعْ.

- خذه كلَّ يوم إلى التدريب، بعيداً عن عين أيِّ رقيب، لا يراه أحدٌ، ولا يرى أحداً، أريدُ تقديمَه إلى شعب أوروك فارساً، يفوقُ البشر فروسيّةً ومهارةً، كما لو أنَّ الآلهة هي التي درّبتْه على فنون ركوبِ الخيل.

- في هذه الحال، لتسمحْ لي مولاتي، بأنْ آخذه إلى كوخي في الغابة، هي ليست بعيدةً من هنا، مسيرة خمس عشرة ساعةً، هناك أنقطعُ أنا لتدريبه، وينقطعُ هو للتعلُّم بعيداً عن عيون المتطفلين والفضوليين.

- حسناً، ستخرجان سرّاً من المدينة، ومعكما نيكال، هي من بنات معبد عشتار، هي خليلة الملك الخاصَّة. ابنِ لهما كوخاً خاصّاً بهما، لينعما بخلواتِهما، وفي الوقت نفسه، تهتمُّ نيكال بشأنكما، وتدبّرُ أمرَكما، وماذا عن شأن تدريبه على القتال؟.

- مولاتي!. الملك وخليلتُه نيكال، سيكونان في ضيافتي وضيافةِ زوجتي. كوخي واسعةٌ، تتسعُ لنا جميعاً، ومع ذلك سأنفّذُ رغبتك، ولسوف أبني لهما كوخاً يليقُ بهما كعاشقين. أمّا بخصوص تعليمِه فنَّ القتال والنزال. ففي الغابة كوخٌ قريبٌ من كوخي، يسكنُ فيه ناسكٌ مُتعبّدٌ للإله أنليل، اسمُه إيتاكاما، يجيدُ الطِرادَ والطِعان، والمبارزةَ والنِزال، جربّتُه غيرَ مرّةٍ، وكان الفوزُ من نصيبه، كلّما عاودتُ الكرّة، هو أستاذي، يستمدّ مهارته من الإله أنليل، وتفوّقُه عليّ خيرُ دليل، ولكنَّ مهارة القتال والنزال، لن تكونَ قبل أن ينال الملكُ، لقب الفارس الخيّال.

- أريدك أنْ تأتيَ به إلى هنا كلَّ شهرٍ لأراه ويراني. لتقرَّ به عيني فلا ينساني. دبِّرْ أمرَ سفرك خلال أسبوعٍ من الآن.

- أمرك مولاتي. ولكنْ لو سمحتِ بسماع رأيي بشأن زياراته لكِ: إنّي أرى أنْ تكونَ في مناسباتٍ معيَّنةٍ فقط، تستدعي ظهورَ الملك أمام شعبه، حتى إذا خرج للنّاس، ظهر أمامَهم من أولي الباس، له في قلوبهم مهابةٌ، .وأمام عيونِهم شامة.

- فليكنْ. فرأيُك مقبولٌ معقولٌ يا شوناترا!. عُدْ به إلى هنا، قبل عيد الخصوبة القادم بسبعة أيّام. صحبتكما السلامة.

- أنمركار!. اعطِ الفارسَ شوناترا ألفي مثقالٍ. وجهّز له متاعَ الرِّحلة، ليصحبَ فيها الملك إلى الناسك إيتاكاما. وليبقَ الأمرُ سرّاً.

- أمرك مولاتي!.

تنفستْ ننسون الصعداء، بعد يومٍ من العَناء، وقالتْ في سرّها: المُلْكُ المَهيوب، يجب أنْ يجمعَ ما في الجيوب، ثمّ يُوزَّعُ على الناس، بما يسدُّ الرَّمقَ ويمسكُ الأنفاس، فلا هم بفقراء ولا هم بأغنياء. همُّهم في الحاجاتِ دائب، وتفكيرهم في تقديم القرابين والأضحيات إلى الآلهة لازبْ. وراء لقمة العيش لاهثون باحثون في الليل والنهار، فيكدُّ تفكيرَهم الكدّ، والخوفُ من أن يُقامَ عليهم الحدّ. بالإرهاق والإملاق، يُساس الناس وتُحْبَسُ الأنفاسْ.

الفصل الثاني

في منتصف الليلة الرابعةَ عشْرةَ للبدر الثامن بعد عيدِ الخصوبة، خرج من الديوان الملكي ثلاثةُ شخوصٍ. شوناترا والملك كلكامش ونيكال، ساروا معاً تحت جناحِ القمر الفضيِّ، المتألّق على الطريق المتَّجهةِ إلى البابِ الشّرقيِّ للمدينة.

لم يخرج أحدٌ لوداعهم. ماخلا وصايا الملكة نِنْسون، التي بقيتْ نديّةً تلاحقُ أذني شوناترا على طول الطريق: المَلِك أمانةٌ وضعتْها الآلهةُ بين يديك، حافظْ عليها، لبِّ له حاجاتِه، لا تحرمْه من رغباتِه، هكذا هي الآلهة، تأمرُ فتُطاعُ، يجب ألاّ تنسَ، أنّ بين يديك ملكاً، ثلثاهُ من الآلهة، يجب أن يعودَ إلى قصره الذي أبنيه الآن، يجب أن يكون مميَّزاً عن الملوك البشريِّين. إنّه سيّدُ قولاب.

عندما يجلس على عرش المملكة، لن يكونَ ملكاً عاديّاً كغيره من الملوك، يجب أنْ يكون مُتفوِّقاً في سياسته وفي قوته، يجب أن يكون الرجلَ الأكملَ بين الرجال، ليس في أوروك فقط، بل في طولِ البلاد وعرضِها، بلّغْ تعليماتي هذه، إلى الناسك إيتاكاما.

أمامَ باب المدينة الشرقيِّ، أخرج شوناترا أمراً ملكيّاً للحارس وقال: باسم الملكة ننسون سيِّدةِ المدينة الحصينة، عجلةِ السّماء، البقرةِ المقدَّسة، إلهةِ الحكمة، آمرُك بفتح الباب.

انطلقتِ القافلةُ المؤلَّفةُ من ثلاثة فرسانٍ مُلَثَّمين، على الطريق الذي مهّدتْه الأقدامُ منذ مئات السنين، كان شوناترا يعرفُ الطريقَ جيّداً، فليس ثمّةَ خوفٌ من التيه عليه، بل كان الخوفُ من قطّاعِ الطرق، فحرص أن يكونوا مُسلّحين بسيوفٍ حديديّةٍ، وتروسٍ مصنوعةٍ من جلدِ جملٍ، مدَّعمةٍ بعوارضَ خشبيّةٍ، مثبّتةٍ على مقبضٍ خشبيٍّ.

كانت تعليماتُه للملك جلجامش ونيكال محدّدةً، أن يحميا ظهره خلال القتال، إنْ حصل، دون أن ينبثَ أيٌّ منهما بكلمة واحدة. سيكونُ لقبُ سيِّد قولاب اسماً حركيّاً للملك، خلال الرحلة التي ستستغرقُ يوماً كاملاً.

انعطفوا على الطريق نحو الجنوب، ساعتان قطعتْهما القافلةُ قبل انبلاج الصباح. قال شوناترا: ساعتان من المسير الحثيث أيضاً، سنكونُ في مضارب الرعاة أمام خيمةٍ تليقُ بمولاي سيّدِ قولاب.

بقي جلجامش صامتاً، يسبحُ في بحرِ تأمّلاته، أمام أوّلِ رحلة يقومُ بها، إنّها حلاوةُ المغامرة الأولى التي يتذوقُها بصحبة شوناترا، أفرسِ فرسان أوروك بالولاء. لم تقطعْ شريطَ تأملاته إلاّ تنهُّدٌ من نيكال، عبّرتْ به عن رغبتِها، في نَيلِ قِسْطٍ من الراحة قربَ نبعِ ماءٍ صافٍ، ينسابُ ماؤه في مرجٍ يموجُ بالخضرة والزَّهر.

ولكنَّ إحساسَها تحوّل إلى طلبٍ مُلحٍّ، بعد أنْ هبّتْ نسمةٌ عليلةٌ، تحملُ معها شذا الأزهار، التي تطرّزُ المرجَ بألوانها البديعة، فأخرجَتْ زفرة ارتياحٍ من أعماقها، أردفتها بصوتٍ أنثويٍّ معبّرٍ، عن رغبة استعطافٍ مُوحيةٍ، بأخذ قِسْطٍ من الراحة على ضفة الغدير.

- قال شوناترا: أشعر بأنَّ عبيرَ الأزهار، يُغري بنتَ عشتار.

- قالت نيكال: أتمنّى عليك أيّها الفارسُ المغوار، أن تمنَّ عليَّ بلحظةِ انتظار، ألتقطُ فيها أنفاسي، من عناء السفرِ القاسي.

- قال شوناترا: أنت مُحقّةٌ يا نيكال!. إنّه مكانٌ مُريح. دعونا به (نستريحْ). لنجلسَ على هذه الرابية المطلّةِ على المرج. ترجّلي أنت وسيِّدُ قولاب، ريثما أطوفُ في المكان، حتى نكونَ في أمان.

كان ثمّة دغلٌ قريبٌ من المكان، توجّه شوناترا إليه، وقبل أن يصلَ حدودَ الدَّغل، خرج منه أسدٌ ضخمٌ، له زئيرٌ كالرعد في الأسماع، يضربُ الأرضَ بقائمتيه الأماميتين، وكأنّه يقول: أنا هنا الآمرُ المُطاع.

ترجّل شوناترا عن صهوة جواده، ربّت على كفلِه، ثمّ صفعه بكفّه على فخذه، فانطلق إلى حيثُ يجلسُ سيِّدُ قولاب ونيكال. كان سيِّدُ قولاب، يراقبُ شوناترا وهو يتقدّمُ من الأسد، بقدمين ثابتتين، وعينين يقظتين، في يمينه سيفُه، وفي يساره ترسُه، كانتْ تبدو عليه علائمُ الثقة والقوَّة. ولكنَّ الذي غيّر المعادلةَ لصالح الأسد، خروجُ لبوةٍ من الدغل لتشاركَ زوجها الأسد معركته.

تذكّر سيّدُ قولاب وصيّة شوناترا، (احم مؤخّرتي خلال المواجهة). نهضَ سيِّدُ قولاب، جرّد سيفَه من غمده، وتنكّب ترسَه، كما فعل شوناترا، وانطلق باتجاه الخطر المُحْدِق بأستاذه شوناترا. حاولت نيكالُ مَنْعَه، ولكنّه قال لها

بلهجة ملك: مكانَك نيكال!. لا بدَّ من النِزال. عليك بالأفراس، بعيداً عن التماس.

كانت هي المرَّةَ الأولى، التي يشهدُ فيها جلجامش مواجهةَ الأسود. قال لنفسه: عليَّ مشاغلةُ اللَّبوة، حتى لا يقعُ شوناترا في كبوة، شاهد شوناترا وهو يناورُ خصمَيه، كان حريصاً على ألاّ يكونَ مطوّقاً بينهما. خلال دقائق معدودات، أخذ جلجامش من شوناترا درساً لن ينساه، الثباتُ في المكان، والحذرُ من المفاجأة، مع الاستهانةِ بالخصم، وإظهار الثقة، وإبعاد الخوف.

وصل سيّد قولاب، في الوقت الذي نجحتْ فيه اللَّبوةُ الصيّادةُ، من تطويقِ شوناترا من الخلف، كانتْ تستعدُّ للانقضاض عليه. قال بصوتٍ قويٍّ: سيّدُ قولاب، سيذيقُك الموت الزُّؤام أيَّتُها الماكرة!. راح يداورها من اليمين والشّمال، في الوقت الذي التحم فيه شوناترا مع الأسد، لقمَ شوناترا الأسدَ ترسَه، فانتصب الأسدُ على قائمتَيه الخلفيتين، فصار صدرُه في مَرْمى طعنةِ سيفِ شوناترا، فطعنه طعنةً نجلاء، أذاقتْه المنيّةُ الحوباء.

عندما شاهدتِ اللَّبوةُ أسدَها صريعاً، لاذتْ بالفرار. التفتَ شوناترا إلى جلجامش وقال: مليكي ومولاي، لم تخطئْ مولاتي الملكة عندما قالتْ: ثلثاك من الآلهة، أما أنا، فسوف أقولُ بعدما رأيتُ شجاعتَك: إنّك من الآلهة، لا يمكنُ لصبيٍّ بشريٍّ في مثل سنّك، أن يقوم بما قمتَ به اليوم.

عادا معاً إلى نيكال، كان يبدو عليها القلقُ والخوفُ والبلبالُ، قال شوناترا: أما زلتِ مشغوفةً بمنظرِ الأزهار يا بنةَ عشتار!؟.

- قالت نيكال: أرجوك يا شوناترا!، انقطعتْ أنفاسي، وماتتْ حواسي، فلنغادرِ المكان، ليعودَ إليَّ الأمان، فقد تعودُ اللَّبوةُ برفاقِها طلباً للانتقام.

- قال شوناترا: لن تعودَ، فقد لقَّنها مولاي سيّدُ قولاب درساً لن تنساه، ولكنْ يجبُ أن نتابع سيرنا قبل اشتداد الحر، مسيرةُ ساعة مضاعفة فقط، نصلُ إلى مضاربِ الرُّعاة.

كانت الشمس قد غادرتْ خِدْرَ أمّها، وراحت تَصْلي الأرضَ بأشعتِها التشرينيّة الحارَّة استعداداً لرحلة الشتاء. قال شوناترا: أشعةُ الشَّمس الحارَّة التي نتقيها الآن، سنطلبُها بعد أسابيعَ قليلةٍ.

هي رسولةُ الإله شمش السّماويِّ، صاحبِ النّعمِ الكثيرة على البشر، لولا الشَّمسُ، لانعدمتِ الحياةُ، ودخل الكونُ في عماءٍ دائم. إنّه يُطلُّ علينا من خلالها كلَّ صباحٍ، فتستيقظُ الأحياءُ، وتمورُ الأرضُ بالحركة والحياة، كلُّ كائنٍ يسعى باحثاً فيها عن رزقه.

الآلهةُ خلقتِ البشرَ ليعملوا. يزرعون ويحصدون، يربّون المواشي، يبنون البيوت، يأكلون خبزَهم بعرق جبينهم، يقدمون القرابين لها عربون طاعة ووفاء. وعلى الرغم من أنَّ حياةَ البشر على الأرض محدودةٌ، فإنّهم يتعلّقون بها، وكأنّهم يملكون خلودّ الآلهة. ما أغربَهم!، مهما نالوا من نعيمِ الدنيا فلا يشبعون.

- سألتْ نيكالُ: من خلقتِ الآلهةُ أولاً؟. المرأةَ أم الرجلَ؟. قال شوناترا: أعتقدُ أنّها خلقت المرأة أولاً، لأنَّ الأمَّ الأولى للبشر، هي الإلهة أورورو.

- قال جلجامش: ولماذا لا يكون وجودُ الرجل قبلَ وجود المرأة؟، ما دامتِ المرأةُ متعةً للرجل!.

- قالت نيكال: كلامُ مولاي سيّدُ قولاب مقنعٌ أكثر من كلامِك يا شوناترا!، والدليلُ وجودي مع مولاي سيّد قولاب، جئت معه لإمتاعه، وتأمين حاجاته، فهو الأصلُ، وأنا الفرع. أليستْ هذه الحقيقةُ!؟.

- قال شوناترا: لا شكَّ بأنّ أحدَهما وُجدَ قبلَ الآخر، والجوابُ المُقنعُ الشافي عند الآلهة، المرأةُ حاجةُ للرجل، والرجلُ حاجةٌ للمرأة، ولا غنى لأحدِهما عن الآخر.

وصلوا إلى مضارب الرعاة. كانتْ عدةُ خيامٍ قزمة من جلدٍ، قد التفتْ حولَ خيمةٍ كبيرةٍ في الوسط، ترجَّلوا عن خيولِهم، نادى شوناترا بصوتٍ مُرتَفعٍ: أورتوتو!. خرج من الخيمة الكبيرة رجلٌ طاعنٌ في السّنِّ، راح يردِّدُ عباراتِ الترحيب بشوناترا ورفيقيه.

نزع شوناترا اللِّثامَ عن وجهه، بينما بقي جلجامش ونيكال ملثمين، بناءً على طلب شوناترا. سأل أورتوتو: عرّفني على رفيقَيك يا شوناترا!. قال: كلاهما أبرصُ، لن نطيلَ المكوثَ عندكَ، بعدَ مَيَلان الشَّمسِ نحوَ الأُفقِ الغربيِّ، سنتابعُ سيرنا، يجبُ الوصولُ إلى الغابة، قبل مغيبِ الشمس، الرفيقان قاصدان الناسكَ إيتاكاما، يرجوان الشفاءَ على يديه، إيتاكاما لديه خِبرةٌ بالأعشاب الطبيّةِ الشافية من مرض البرص، هزّ الرجلُ رأسَه بالإيجاب، ثمّ قال: مارأيكَ لو ارتاحا

معاً، في الخيمةِ المجاورة؟. قال شوناترا: نِعْمَ الرأيُ يا أورتوتو!.وأنا من سيقومُ على خدمتِهما.

قام شوناترا بواجب الضيافة، بعد أن حُجِرَ على جلجامش ونيكال في خيمةٍ انفراديّةٍ، وجدا فيها مَراحاً لصبوةِ قلبيهما المتوثبين إلى المُتعة والحب.

انتهتْ فترةُ استراحتهم في ضيافة أورتوتو، تابعوا سيرَهم باتجاه قريةِ بيت قاب، قال شوناترا: لن نرتاحَ في بيت قاب، يجب أن نصل قبل حلولِ الظَّلام. انظرْ يا سيّدَ قولاب إلى وجه الإله شمش السّماويّ، إنّه يحثّنا على المضيّ في الطريق، هو يرعانا، لعلّنا نصلُ إلى الغابة في ظروفٍ آمنة.

- سألت نيكال: أمازال خطرُ الأسودِ يُهدِّدُنا!؟.

- ربَّما!. وربّما اللصوص، فالطريقُ مُقْفرةٌ في بعض أجزائها. ولكنْ لا تخافي!. مادام سيّدُ قولابَ يحميكِ.

- قال جلجامش: ولكنّي أرى في الأفق الجنوبيِّ سديماً. انظرْ يا شوناترا!.

تطلّع شوناترا، تأمّل السَّديمَ، هزّ رأسَه بأسىً، كخبير في الطُرُق الصحراويّةِ، قال: لِنحُثّ الخُطا، يجبُ أنْ نصلَ إلى بيتِ قاب في أسرع وقتٍ ممكنٍ. سأل جلجامش: ما الأمرُ يا شوناترا!؟.

- قال شوناترا: إنّها عاصفةٌ رمليّةٌ. سوف تفرضُ علينا المبيتَ في بيتِ قاب خلالَ ساعةٍ من الآن، وقد تكون سريعةً كثيفةَ السَّديم، عندئذٍ سنضطرُّ إلى اللجوءِ إلى أقربِ أجمةٍ من شجرٍ أو حجرٍ، قال لي الناسكُ إيتاكاما في يوم ما: الانحناءُ أمامَ العاصفة ليس جُبناً يا شوناترا!. إنَّه حكمةٌ.

- قال جلجامش: قد تصلُ إلينا العاصفةُ، قبل وصولنا إلى بيت قاب!؟.

- أجاب شوناترا: قد تصلُ إلينا. أو نحنُ سنصلُ إليها، كلانا مقبلٌ نحو الآخر، وفي هذه الحالةِ، السرعةُ مضاعفةٌ، لذلك علينا مضاعفةُ سرعتنا، علينا أن نحثَّ الخُطا، خيولُنا أخذتْ قسطاً من الراحةِ في مضارب الرُّعاة، أكلتْ وشربتْ أيضاً، التفتَ إلى نيكال. وقال: هل تجيدين ركوبَ الخيل؟. أجابتْ: لستُ فارسةً، ولكنّني قادرةٌ على الثبات فوق ظهر فرسي، لقد ألِفتْني خلالَ الرِّحلة، وأعتقدُ أنَّها لا تنوي إلقائي أرضاً. وأنتَ يا سيّدَ قولاب!. هل تثقُ بحصانك؟.

- كلَّ الثِّقة، إنَّه أصيلٌ يا شوناترا، طالما أطعمتُه بيديّ، وطالما اعتليتُ ظهره، لم يخيّبْ رجائي يوماً، إنّه يحبُّني، وأشعر بأنَّه يبتهجُ، عندما أكونُ راكباً فوقَ ظهره، عندما كنتُ في السابعةِ من عمري، كان يركعُ أمامي، لأعتليَ ظهرَه، وكان هو الآخر مهراً، في السنة الثانية من عمره.

- عندما أحضره لي والدي، رحمتْه الآلهة، قال لي يومَ ذاك: هذا المُهْر، سيكونُ رفيقَك يا جلجامش، اسقِه الماءَ العذبَ، وأطعمْه الطعامَ النظيف، سيكونُ لك نِعْمَ الصديقُ والرفيق.

- خلال السنوات الأربعِ الماضية، كان رفيقيَ الوحيدَ، يُؤنسُ وحدتي، ويُبدِّد كُربتي، ويُشبعُ نهمي إلى اللّعب، لا تخشَ عليَّ يا شوناترا!. سِرْ في المقدّمة، لأنّك الوحيدُ الذي يعرفُ الطريقَ بيننا، ووراءك نيكال، وأنا في المؤخّرة. وحدِّدِ السرعةَ التي نحتاجُها، للوصول إلى بيت قاب، قبلَ وصولِ العاصفة.

- قال شوناترا: لقد غيّرتُ رأيي بك يا سيّد قولاب، كنت أعتقدُ، عندما خرجنا من أوروك، بأنَّني أحملُ أمانةً من زجاج، ولكنّني بعد معركة الأسود، بتُّ مُقتنعاً، بأنَّها من حديدٍ صلبٍ، سأجعلُ حصاني يمشي خبباً، وأنتما كذلك، لتحمينا الآلهة.

ساروا ساعة واحدة فقط، قبل أنْ تلوحَ من بعيدٍ أعمدةُ دخان، بدتْ منتصبةً تعانقُ السماء، قال شونترا: لقد وصلنا، لاحظوا الهدوءَ الذي يسبقُ العاصفة، وأشار إلى أعمدة الدخان. بعد قليلٍ سوف تحطِّمُها العاصفةُ، وتطفئُ نارَها، ولكنّها لن تتمكّن من المنازل، فهي مبنيةٌ من اللّبن والطين، وسقوفُها قِبَبٌ مخروطيّةٌ، تنزلقُ عنها الريح، كما ينزلقُ ماءُ المطر في فصل الشتاء.

- قال جلجامش: هل سنبقى مُقنَّعين كأبرصَين في بيت قاب؟.

- قال شوناترا: في أول القرية نَزْلٌ، يمكننا المبيتُ فيه، سنطلبُ غرفةً خاصّةً بنا، وعندما تصل العاصفةُ الرمليّةُ، لن يهتمَّ أحدٌ بأمرنا.

لم يمضِ وقتٌ طويل، حجبتِ العاصفةُ نورَ الشَّمس، ضعُفتِ الرؤيةُ، ثمّ انعدمتْ. لجأ الناسُ إلى بيوتهم، أصبحت أزقَّةُ بيت قاب خاويةً، صمتٌ ثقيل خيّم على القرية الوادعة الهادئة التي تموجُ حقولُها المنبسطة بالخضرة التي وهبها لها نهرُ لارسا، على مساحة خمسين بيراً مربّعاً. (البير = 11000 م^2)، من الأراضي الخِصبة الممتدةِ ما بين أور وأوروك جنوباً.

لقد جمعَ بيتُ قاب الخضرةَ والماءَ والوجه الحسن، كما قال شوناترا: في بيت قاب أجملُ نساء البشر، ملاحةً وظرفاً وكياسة، إن حدّثْنَ خلبْنَ الألباب، وإنْ عاشرْن أرحْنَ الأعصاب، لا يملُّ الجليسُ مجلْسَهُنّ، ولاتفارقُ البسمةُ محاسِنَهنَّ، إنْ مشينَ فعودُ خيزران، وإنْ قعدْن يفوحُ منهنَّ الرَّيحان.

تنحنحتْ نيكال، عندما سمعتْ إطراء شوناترا على نساء بيت قاب. قالتْ: أراكَ راغباً بمعاشرة واحدةٍ منهنّ، ولكنْ حذارِ حذارِ! من إغراء مولاي الملك، فهو لي وحدي، بأمر من مولاتي الإلهة ننسون. فإن فعلتَ، شكوتُك إليها. ولن أسمح لأيّةِ أنثى، أن تقتربَ منه. هذه تعليماتُ سيِّدتي ومولاتي ، أحذِّرك يا شوناترا!.

- أجاب شوناترا: أمرُ مولاتي مُطاع، لن أخالفَ وصيتَها، هي حريصةٌ عليك أيضاً، وتثقُ بك، أمّا أنا، فزوجي تنتظرني، ولن أخيّبَ رجاءها بي.

- قالت نيكال: غيّرِ الحديثَ إذن، واعلمْ، أنَّه ليس في البشر، من هي أجملُ منّي. ولا أظرفُ ولا ألطفُ!.

- قال شوناترا: سمعاً وطاعةً يا بنتَ عشتار!، هلاّ اسمعتِنا بعضَ الأناشيد للرَّبَّةِ عشتار!؟.

- أمرك يا فارسَ أوروك المغوار، الذي لا يُشقُّ له غبار.

أمّ الزلف عشتار

أمُّ الرّجا في مَبسَمِ الأزهار.

قَطْفة حبق من خدّ غيمات السّما

عرمة قمح في البيدر المليان

خِصب الزرع، خِصب الضرع

عشتار أنتِ للمجد عنوان

صفّقا معاً إلى نيكال على إنشادِها الرائع. قالتْ نيكال: إنّها من تأليفي. تابعتْ نيكال كلامها، لنرفع ترنيمةَ صلاةٍ أخرى للإلهةِ عشتار.

أيّتها السيِّدةُ البهيّةُ عشتار!.

عروس الإله دوموزي الراعي،

البريئة من الدَّنس، الخالية من العيب.

يا رجاء مَنْ لا رجاء له

ارحمي ضعفَنا،

هِبينا خيرات نعمتك التي لا تنضب.

- قال شوناترا: وجودُك معنا بركةٌ من الربّة عشتار، لن يحلّ بنا مكروه، ما دمتِ معنا. في يوم ما، ستكونين إحدى كاهنَات المعبد الرئيسات. ولكن ما هي الأسباب التي دعتْك إلى نذر نفسك لمعبد عشتار؟.

- قالت نيكال: إنّما هو نذر أمّي وأبي. لقد أحبّا بعضَهما حُبّاً قويّاً، شربا من كؤوس العشق والهيام زمناً، ثمَّ تزوجا، وعاشا تحت سقف السعادة بضعَ سنين، رَغِبا في الإنجاب، فلم يُفلحا، فنذرا باكورةَ حبّهما للربّةِ عشتار، إلهة الحبِّ والخِصْب، فأتيتُ إلى هذه الدنيا ابنةً لعشتار بالروح، كما قالتِ الكاهنةُ الأمُّ في المعبد.

باركتْني روحُ الربّةِ عشتار، ورحت أنمو ببركتها، حتى غدوتُ صبيةً كما تراني، ترشحُ الأنوثةُ من مسامّ جلدي، أعشقُ الحياة، كما أعشقُ ربّتي عشتار، أسعى دائماً لإرضائها، ونَوالِ بركتها. وعندما كلفتْني الكاهنةُ الأمُّ في المعبد بمهمَّتي التي أرافقكم من أجلها، غمرتْني السعادةُ، شعرتُ بأنّ الربّةَ عشتار، اختارتْني دون سواي من بنات المعبد، لأنّها تحبُّني.

وجودي بينكم الآن إرادةٌ إلهيّةٌ يا شوناترا!، فكنْ حريصاً على تلك الإرادة، وكنْ حريصاً على إنجاحها. مهمَّتي ستنتهي في عيد الخصوبة القادم، الذي سيصادفُ في اليومِ الأوّلَ من شهر نيسان من كلّ عام. بعد أن يمارسَ مولاي الملك طقوسَ الجنس المقدّسِ مع الكاهنة الأم أشخارا. سأعودُ إلى المعبد، لأقدّم البغاءَ المقدّس، خدمةً لأوروك، وطاعةً لربّتي عشتار. والآن أخبرني بحقّ الآلهة!. من هي الأنثى الأنبلُ والأقرب إلى الربّة عشتار مني في بيت قاب؟.

لم تر عيني أنبل وأوفى منك يا سيِّدتي!. عندما يجتمع في الإنسان النبل والجمال والوفاء والعطاء، يبلغُ الكمالَ. لتحلَّ عليك بركةُ الآلهةِ ورعايتُها. والآن يجب أن نخلدَ إلى النوم، لنستيقظ باكراً. فالخيرُ في البكور، مع بسمةِ إلهةِ الفجر آيا، زوجة الإله شمش السّماويّ.

- قالت نيكال: ليتمجّد اسمُكِ يا آيا، واسم زوجك الإله شمش،. عظّموهما في المشارق والمغارب، أسكنوهما في ملكوت القلوب.

أمضوا تلك الليلة في النزل الريفي، تحت جناح نوم قلقٍ، يقطع سكونَه، سُعالٌ متقطّعٌ، بين الحين والحين. كان الهواءُ مُشبعاً بالغبار المتسرّبِ من الباب الوحيد، الذي يصل الغرفة بما حولها من الأماكن المتعدِّدة الاستعمالات في النزل، الذي يتألّف من طابق واحد بُني على مربَّعٍ من الأرض، شكّلتِ الغُرفُ المبنيّةُ على نسق واحدٍ أضلاعَهُ، لتحيطَ بفناءٍ واسعٍ مقسومٍ إلى قسمين، واحد للرّواحل، والثاني للبضائع.

اعتقد شوناترا أنّ في الصباح رباحاً، فرواحاً إلى الغابة، حيثُ زوجُه وطفلاه بانتظاره، ولكنّ حسابَ السوق، لم يطابقْ حسابَ الصندوق، فالعاصفةُ الرمليّةُ، ألقتْ بثقلها على بيت قاب، وما حولَها ليومين متتاليين، مما دعا صاحبَ النَّزل النزلاء، إلى صلاةٍ جماعيّةٍ، يرفعونها للإله أُدُدْ، ليبعث مطراً يغسل غبارَ عاصفة الإله إنليل، وفي الوقت نفسه يسترضون الإله أنليل، الذي أرسل العاصفة الرملية تعبيراً عن غضبه.

اجتمع النزلاءُ لرفع البلاء، بصلاةٍ جماعيّةٍ، بدؤوها بالدعاء لاسترضاء الإله أنليل. فأنشدوا بصوت واحد:

يا منْ فصل الأرض عن السماء بقوة الهواء،

وحَمَل الغيوم في قبّة الفضاء،

وحرّك البحار، فكانت الأمطار،

يا نافخ الغبار في البرِّ والقفار،

يا مالئ الأكوان من أوّلِ الزمان،

رِفقاً بنا يا سيّد الرياح!

أخطاؤنا كثيرة، اعطِ لنا السَّماح

وبدّدِ الغبار، بنفخة من صدرك الجبار..

بعد أن انتهى كاهنُ المعبد، الذي أتى بناء على دعوةٍ خاصّةٍ من صاحب النزل، لرفع هذه الصلاة للإله أنليل قال: أيّها السادة!، لكي تُقْبَل صلاتُنا، يجب أن نقدّم جَديَين قرباناً للإله أنليل، أحدهما أبيض والآخر أسود، أرجو منكم أن تضعوا في هذه الكشكول، ما تجودُ به نفوسُكم.

مرّ شخصٌ يحمل بيده كشكولاً محبوكاً من سوق القمح بطريقةٍ متقنة، وعليه رُسمتْ أشكال رمزيّةُ للآلهة.

غادر الكاهنُ النزلَ. تفرّق الجمْعُ، وراحوا ينتظرون نِعَمَ الإله أنليل، برحيل العاصفة، وانقشاع الغبار.

مرَّ يومٌ ثالث، قبل أن تنقشع الغمامة. في صباح اليوم الرابع، عادتِ الشَّمسُ إلى الشروق، بوجه شاحبٍ على غير عادتها في مثل هذا الوقت من فصل الخريف. سكبتْ أشعتَها الفضيّةَ على الطبيعة المُسربلة بوشاحٍ رماديٍّ كئيب.

انطلق نزلاءُ النزل، إلى نفض الغبار عن أمتعتهم، وانصرفَ غلمانُه إلى تنظيف أروقتِه وباحاته.

نظر شوناترا إلى جلجامش، لاحظ على وجهه علاماتِ الضَّجر. قال لنفسه: ثلاثةُ أيّام من الإقامة الجبريّة بين جدران النزل، جديرةٌ بأن تبعثَ الاكتئابَ في نفس شيخٍ جاوز الثمانين. نظر إلى نيكال، فوجدها هي الأخرى مكتئبةً. قال لهما: نحتاجُ إلى استحمامٍ، لنتخلّص مما عَلِق بنا من كآبةٍ وغبار. هيّا بنا نتابعُ رحلتنا، في طريقنا غديرُ ماءٍ نظيفٍ، يمكنُنا الاستحمامُ به قبل وصولنا إلى الغابة.

ساروا على الطريق التي مهّدتْها الأقدامُ، منذُ نهايةِ الطوفان، عندما بدأتْ دورةٌ جديدةٌ للحياة، كانتِ الطريقُ كثيرةَ المنعطفات، تتلوّى بين الحقول التي وهبتها الغدرانُ نِعْمةَ إنكي، إله المياه العذبة، فأعطتْها الخضرةَ والنماء.

بقي شوناترا وجلجامشُ صامتين، وراحت نيكالُ تثرثرُ بكل ما يخطرُ على بالها من أحاديثَ، وأحياناً تمرّنُ صوتها على الغناء، كانت تملك صوتاً عذباً رخيماً، شغل رفيقيها عمّا حولهما، لم يقطعْ شغفَهما بغنائها، سوى صهيلِ حصان جلجامش، قال جلجامش: يبدو أن حصاني راغبٌ في مشاركتك الغناء يا نيكال!، قالت نيكال: على الرَّحبِ والسّعة!، سأعطيه الدور. قال شوناترا: لقد وصلنا إلى الغدير، لقد رأى الحصانُ الماء بحدسه، قبل أن يراه بعينيه، يمكنكِ متابعةُ الغناء بعد الاستحمام.

ترجّل الفرسان الثلاثة، كان ماءُ الغدير صافياً، قالت نيكال: يبدو أنّ الإله أنكي حمى ماءه من غبار العاصفة. شربوا جميعاً ماءً عذباً بارداً، من فم الينبوع المتفجّر من بطنِ الأرض.

- قال شوناترا: مولاي!، يمكنك الاستحمامُ ونيكالَ أولاً، وبعدكما أستحمُّ أنا، الحذر واجبٌ، قد يتسلّلُ أحدُ اللصوص، فيسرقُ ثيابَنا، ونحن لاهون عنها في الماء. لن أكون بعيداً عنكما.

خلع جلجامش ونيكال ثيابَهما، وراحا ينعمان باستحمام هادئ، في ماء نظيفٍ متجدّدٍ، قالتْ نيكال: إنّها لحظاتٌ حُلوةٌ، وكأنّنا في جنّةِ دَلْمونَ، حيثُ يعيش البارُّ أُوتنابشتيم مع زوجه خالدَين، لقد أنعمتْ عليهما الآلهة بالخلود، بعد أنْ أنقذَ أوتنابشتيم بذرةَ الحياة من الفناء خلال الطوفان.

- قال جلجامش: ألا يستطيعُ البشرُ صنعَ جنّةٍ خاصَّةٍ بهم على الأرض مثل جنّة دَلمون!؟.

- قالتْ نيكال: يستطيعون، ولكنّها تبقى جنّةً مؤقّتةً، أمّا جنّةُ دَلمون، فهي سرمديّةٌ أبديّةٌ.

- كلتاهما جنّةٌ، سأجعلُ حياتَكِ جنّةً يا نيكال!، عندما أصبحُ ملكاً على أوروك، ستعيشين معي في قصرالإيجلماه، الذي تبنيه الآن والدتي الإلهة ننسون.

- كم أحبّكَ يا مولاي!. وكم أنا سعيدةٌ بقربك، أتمنّى ألاّ تنتهي مهمَّتي التي كلّفتْني بها الكاهنة الأمّ، ولكنّها ستنتهي في عيد الخصوبةِ المُقبل.

- لا لن تنتهي، سأحتفظُ بك، ستبقَينَ قريبةً منّي، لقد تعوّدتُ عليك، ولا طاقةَ لي بالابتعاد عنك.

- لنخرجْ من الماء يا مولاي، لقد اشتقتُ إلى ذراعيك الفتيين، تطوقان خَصْري.

- وأنا اشتقتُ إلى جسدِك الناعم، ليس لديّ متعةٌ أفضلَ من صدرك وسادةً لرأسي الذي يحمل أحلاماً كبيرةً، كلُّ تلك الأحلام سأضعُها بين يديك. كم أتمنّى أنْ أنموَ بسرعة، لأجلسَ على العرش، الذي كان يجلسُ عليه أبي لوجال بندا،

- حدّثني عن أحلامك يا مولاي!.

- أحلم بمملكةٍ يهابُها أعداؤها، وبشعبٍ يهابُ ملكَها، أعشقُ السُّلطةَ يا نيكال!. أشعرُ بأنّي وُلِدتُ لأكونَ حاكماً لا محكوماً، آمرُ فأطاعُ. يجبُ أن أكونَ مميّزاً عن بني البشر.

- وأنتَ كذلك يا مولاي!، أنتَ من الآلهة، ومن واجب البشر طاعتُك، ولكي تُطاعُ، يجب أن تكونَ قويّاً. لنخرجْ من الماء، ولتجرِّبْ قوتك بمطاردتي، حاولِ

الإمساكَ بي، ليس هناك أمتعَ على قلب المرأة من ذراعيين قويين، يهصران جسدَها.

خرجتْ نيكالُ من الماء، كانت عاريةً تماماً، راحتْ أشعةُ الشَّمس تسكبُ خيوطَها الذهبيّةَ فوق جسدِها الحنطيّ الناعم، بدَتْ مثلَ حوريّةٍ بحريّةٍ تخرج من الماء، كلُّ ما فيها فاتنٌ يثيرُ الرَّغبةَ، ردفاها المكورتان، فخذاها الأمردان الممتلئتان، ساقاها المسكوبتان بقالب إلهيّ، كشحاها الضامرتان،أمّا شعرُها الأسودُ الفاحم، فكأنّه غدائرُ الليل تطوّقُ وجهها البدريِّ في ربيعه الرابعَ عشرَ. كلُّ مفاتنها تفتحتْ أمام عيني جلجامش، تدعو ذكورتَه إلى تحريك أريجِ أنوثتِها في روضة الحبِّ، قال لنفسه: لم تكنْ مخطئةً، عندما قالت لشوناترا: أنا أجمل امرأة خلقتْها الإلهةُ أورورو.

اندفع إليها برغبة رجل بالغ الذكورة، نفرتْ من بين يديه، كان شوناترا يراقبُ المَشْهدَ بعين الاشتهاء، ولكي لا تتمادى الشهوةُ في فورانها، انسحبَ إلى الماء بهدوء، تاركاً العاشقين ينعمان بمغامرةٍ ممتعةٍ، بعيداً عن عينيه.

استمرّتِ المطاردة الممتعةُ بين العاشقين، كان جلجامشُ خلالَها حريصاً على الإمساك بنيكال، وكانت هي الأخرى تجيدُ فنَّ الإفلاتِ من بين ذراعيه الفتيين، مثلَ سمَكةٍ تنزلقُ من بين كفَّي الصياد، قادتْه إلى ظلّ شجرة وارفة الظِّلال، أخفتْ جسدَها وراء جذعها، وراحتْ ترميه بسحر نظراتِها من عينيها النجلاوين الحوراوين. لقد عرفتْ ابنة عشتار، كيف تختار الزمان، لتمكّن جلجامش منها، ولكن المكانَ كان يقفُ لهما بالمرصاد.

في اللحظة التي طوق جلجامش خصرَها بذراعيه، وسكنَ جسدُها المتمرّد في حضنه، مع ضحكةٍ أنثويّةٍ مجلجلة، إعلاناً عن استسلامها لنداء الرغبة، ظهر رجلان فجأة، ليقطعا متعةَ العاشقين.

أمسك أحدُهما جلجامش من كتفيه، ونزع الآخر نيكال من بين ذراعيه، ولكنَّ جلجامش، استطاع أن يفلتَ من بين يدي غريمه بخفةٍ ورشاقة، انطلق مثل هِرٍّ بريٍّ، إلى حيث كان سيفُه يرتاحُ في غمدِه المسجّى فوق ثيابه.

اعتقد الرجلُ، أنَّ الفتى آثر السلامةَ، تاركاً الغزالةَ الحسناءَ صيداً سهلاً. التحقَ برفيقه الذي كان يمسكُ بنيكال، كنسرٍ قبض على حمامةٍ بمخالبه الوحشيّة. قال لرفيقه: لنحملْها إلى الكوخ القريب، هناك تستسلمُ لنا الحمامة.

وجدتْ نيكالُ نفسَها مستسلمةً للقدر، بين أيدي وحْشين بشريين. لم تستطعْ طلبَ النجدة من شوناترا، لأن فمَها حُشيَ بقطعةِ قماشٍ، منعتْها من استخدام لسانها كجهاز استغاثة.

سار الرجلان باتجاه الكوخ حالمين بصيدهما الرائع، ولكنّ سيفَ جلجامش، قطع شريطَ أحلامهما، عندما وجّه طعنةً نجلاء، غاصتْ في أحشاء أحدهما، فخرّ صريعاً.

ترك الرجلُ الآخر نيكال، واستعدَّ لمواجهة خصمه العاري، إلا من سيفٍ كان يقطر دماً من جسد رفيقه، تراجعَ قليلاً، راح يتأمّل جلجامش، الذي هبط عليه كجنيٍّ من السماء، قال لنفسه: ليس ثمّة مشكلةٌ في مواجهةِ شابٍّ غِرٍّ قليلِ الخِبرة بالنزال.

قاس جلجامشَ بنظرةٍ مُشبعةٍ بالثقة والاستهانة، قال لنفسه: الغزالةُ مازالت تحت مرمى النظر، لن تهربَ بعيداً، وهذا الشاب لن يكلّفني إلا ضربةَ سيفٍ على عنقه، لأفصلَنَّ رأسَه عن جسده، هجم كالثور الهائج على جلجامش.

ولكنَّ جلجامش كان مقاتلاً بالفطرة، راح يناوره، ويتقي ضرباتِه بمهارة، تعلَّمها من مبارزاتٍ شهدَها في ميدان التدريب في أوروك، تلك المبارزاتُ التي كان يصحبُه إليها والده قبل رحيله الأبديّ، كان حريصاً على أن تبقى ساحةُ المواجهةِ مفتوحةً، مع خصمٍ ضخمِ الجسم، ثقيلِ الوزن، بطيءِ الحركة. أمّا نيكال، فقد هرعت إلى شوناترا تطلب النجدة منه.

عندما وصل شوناترا، كان الوحشُ البشريُّ، قد ناله الإعياءُ، اتكأ إلى جذع الشجرة، ليلتقطَ أنفاسَه، استعداداً لجولةٍ ثانيةٍ مع خصمٍ من عائلة السِّنَوريّات، قال شوناترا: سيّدَ قولاب!. اقطعْ أنفاسَه بسيفك، لم يبقَ لدى خصمك دفعٌ.

تقدَّم جلجامش من الرجل، الذي أقعى في جذع الشجرة، مستسلماً لمصيره بعد أنْ رأى شوناترا. وضع جلجامش السيفَ في عنقه. قال له: القِ سيفك أرضاً. ففعل الرجل دون تردُّد. قال جلجامش: احكمي عليه يا نيكال!. يابنةَ عشتار!. قالت: الموتُ يا مولاي، جرمُ اغتصاب بنات عشتار، حكمُه الموت، هذا قانونُ المعبد. قال جلجامش: أيّها الرجل!، حكمتْ عليك الآلهةُ بالموت. قال الرجل: ليتمجّدْ اسمُ الآلهة. كانتْ آخر عبارةٍ، نطق بها الرجلُ قبل أن يحزّ جلجامش عنقه بسيفه.

- قال شوناترا: لنغادرِ المكانَ في الحال، قد يكون القتيلان من أبناء المنطقة، فيجتمعون علينا للانتقام، والكثرةُ تغلبُ الشجاعة.

جمعوا أغراضهم على عجل، غادروا المكان بلا أقنعةٍ تُخفي شخصية نيكال وجلجامش، ساروا على طريق الغابة فارسين وفارسة، أرخَوا أعنّة خيولهم، لتنهبَ الطريق بحوافرِها المستثارة، بعد أنْ مهّدتها الأقدام منذ مئات السنين، كانت كوكبة من الفرسان، قد سارتْ قبلهم على تلك الطريق. قال شوناترا: من حسنِ حظنا، أنّ أثر حوافر خيولنا، سيضيع بين آثار حوافر خيولهم.

انعطف شوناترا مُيمّماً جهة الشمال على طريقٍ مهجورةٍ محجرة، ثمَّ انعطف إلى الشرق، ليكونَ طريقَهم في مسيل ماءٍ ضحلٍ، ساروا به نصف ساعةٍ قبل أنْ يُوجّهوا أعنّةَ خيولِهم باتجاه رابيةٍ قليلةِ الارتفاع، عندما وصلوا إلى قمّتِها بدَتْ أمامَهم الغابةُ بأشجارها الباسقةِ الكثيفة. قال شوناترا: لقد وصلنا، ومع ذلك، فالحذرُ ما زال واجباً، يجبُ إخفاءُ آثار حوافر خيولنا، يجب سحب حزمةٍ من الحطب وراء كلِّ فرسٍ من أفراسِنا، فالمسافةُ المتبقّية تربتُها ناعمةٌ، ضلَّلناهم بما فيه الكفاية، ولا بأسَ من المزيد. نصفُ ساعة مشتْها الجيادُ الثلاثة ببطءٍ، وكل جواد يخطُّ ويمحو آثارَ حوافره.

الفصل الثالث

وصلوا إلى أطراف الغابة، كان ثمّة دربٌ وحيدةٌ ضيّقةٌ، تحفُّ بها الأدغالُ من كلا جانبيها، لا تتسعُ إلاّ لعابرٍ واحدٍ، تتسلّل إلى داخلِ الغابة خجولةً.

سارتْ القافلةُ رتلاً أحاديّاً باتجاه عمقِ الغابة، حيثُ تمورُ حركةُ الأحياء. سناجبُ وسحالي وضفادعُ، طيورٌ مختلفةُ الأشكال والأنواع، كلُّها اجتمعتْ لتعزفَ لحنَ الغابةِ الخالد الدائم. لا يقطعُه سوى عواءِ ذئبٍ شاردٍ، يبحثُ عن رفاقه، أو ثعلبٌ يُجرِّبُ مهارتَه على العواء، عالمٌ جديدٌ أثارَ القلقَ والخوفَ في نفس نيكال، والحذرَ في نفس جلجامش، أمّا شوناترا، فقد لزم الصمتَ والهدوء.

كانتِ الدربُ مستورةً بأشجار دغليّة كثيفة من جنبيها، تنعطّفُ بليونةٍ حيناً، وبانكسارٍ حيناً آخر، الشيءُ الوحيد الذي يُعطي العابرَ شعوراً بالارتياح، أغصانُ الأشجارالباسقةِ، التي تتشابكُ في الفضاء حيناً، وتتباعدُ حيناً آخر.

كانت نظراتُ الثقة تملأُ عيني شوناترا، ونظراتُ الدّهشة تمورُ في عيني جلجامش، ونظرات الخوف والقلق في عيني نيكال. تلك النظراتُ التي كانت موزّعةً على مساحاتٍ من المشاعر المتباينة، تلاشتْ كلُّها، عندما ظهر من وراء شجرةٍ باسقة الجذع، سامقةِ الأغصان كلبٌ ضخمٌ، يُوحي صوتُ نُباحه بالترحيب، وتُوحي حركةُ ذيله بالتحيّة.

- قال شوناترا لرفيقيه: لقد وصلنا، انتهتْ رحلتُنا على خيرٍ، الحمدُ للآلهة على السَّلامة.

- قالت نيكال: لقد كانت طريقُنا مملوءة بالأخطار، وأعتقد أنّ العيشَ في هذه الغابة، سيقصف الأعمار.

- قال شوناترا: أنت بحماية مولاي الملك، ملك أوروك وما حولَها، رأيتِ بعينيك شجاعته وشدةَ بأسه. فكيف يدخلُ الخوفُ إلى قلبك!؟. لتطمئنَّ نفسُك، أنت الآن بحماية ثلاثةٍ من أشجعِ الفرسان. لك إسوةٌ بزوجي وولديَّ.

- أرى أمامي فارسين اثنين، فأين الثالث؟.وأين زوجك وولداك؟.

- أنا ومولاي الملك اثنان، وثالثنا!. انظري إليه، إنّه هناك، الناسكُ إيتاكاما.

وجّهوا أنظارَهم إلى رجلٍ كهْلٍ تجاوز العقدَ الخامسَ من عمره، كان فارعَ الطول، أحنتْ السنون قامته قليلاً، وعلا الشيبُ شعرَ رأسه، وتسلّل إلى لحيته التي بدتْ شهباءَ شعثاء، أخفت قسماً من ملامح وجهِهِ، ما عدا أنفَه المدبّبَ الأقنى، الذي انتصبَ فوق شنبيه المسترخيين فوقَ شفتِه العليا كمنقار النسر. أمّا عيناهُ اللامعتان، فقد بدتا كعيني ضَبُعٍ في ظلمة الليل، ولكنّ عمقَ نظرتِه وهدوءها، تعطيان الواقف أمامه شعوراً بالارتياح.

تقدّم نحوهم بخطواتٍ سريعةٍ ثابتةٍ، وهو يردّدُ عباراتِ الترحيب، بصوتٍ مُشبَعٍ بالصِّدقِ والحبِّ، مدّ كفَّه المعروقةَ إلى جلجامش، تأمّله بعيني خبيرٍ بالأنساب، ثمّ قال: من صُلبِ الملك لوجال بندا، إذا صدقتْ فراستي. قال شوناترا: لقد صدقتْ يا عمّاه، إنّه جلجامش ابن لوجال ونسون، هو من قالتْ عنه كاهنةُ عشتار الكبرى: ثلثاه إله وثلثٌ بشر، فهل توافقُها الرأي؟.

هزَّ رأسَه بوقارٍ ثمَّ قال: سوف أرى!.

تابع شوناترا حديثه: وهذه نيكال من بناتِ مَعْبَدِ عشتار جاءتْ برفقة مولاي الملك، ثمّ وجّه كلامَه إلى جلجامش ونيكال: وهذا عمِّي، والدُ زوجتي الناسك إيتاكاما، وجدُّ ولديَّ. أين هما!؟. لِمَ لمْ تخرجْ زوجي أناتْ لاستقبالي، واستقبالِ ضيوفي!؟.

- إنّها تُعِدُّ العجينَ، قلقتْ عليك أثناءَ العاصفة الرمليّة، أمّا ولداك شامات وأوبارا، فهما بخير يلعبان وراءَ الكوخ.

ترجّلوا من على خيولِهم، ساروا معاً نحو كوخٍ واسعٍ، جدرانُه من جذوع الأشجار، وسقفُه مخروطّيُّ الشكل، بابُه ضيّقٌ يتسعُ لعابرٍ واحدٍ، وله ثلاثُ نوافذَ ضيِّقةٍ، صُمّمتْ للتهوية، والمراقبة بآنٍ معاً، ووراء ذلك الكوخ، كوخان متناظران، على مسافة واحدة من الكوخ الأوّلِ، الأكواخُ الثلاثةُ تشكّل مثلثاً متساويَ الأضلاع، تربّعتْ على مساحة مئتي ذراعٍ طولاً ومثلها عرضاً، أحاط بها سورٌ خشبيٌّ بارتفاع ستةِ أذرعٍ، دخلوا الكوخَ الرئيس، كانت أرضُه مغطاةً بجلود حيواناتٍ، ضباعٍ وذئابٍ وثعالبَ، ثيرانٍ وحميرٍ، في صدر الكوخ جلدُ أسدٍ.

- قال الناسك إيتاكاما: هنا يجلسُ ابن لوجال بندا، وأشار إلى جلد الأسد. نظرَ جلجامش إلى إيتاكاما نظرةَ شكرٍ وامتنانٍ، قبل أن يأخذَ مكانَه عليه، ودون أنْ يُعيرَ رأسَ الأسد، الذي ما يزالُ موصولاً بالجلد اهتماماً.

هزّ إيتاكاما رأسَه بصمتٍ، وقال: ابنُ أمّه من ظهرِ أبيه، التفتَ إلى شوناترا: اذهب إلى زوجِك وولديك، هما بأشدِّ الشوقِ إليك، سأتولى إكرامَ ضيفيك، قال بصوتٍ هادئٍ رصين: اجلسي يابنةَ عشتار قربَ سيّدِ قولاب إلى اليسار. إنَّه ملكُ أوروك المقبل، أهلاً بكما في مقرِّ إقامتي، هنا أتعبّدُ للإله أنليل، إله الهواء الذي يفصل الأرض عن السماء، هنا في الغابة، أجدُ الهدوءَ الذي يساعدُني على مناجاةِ إلهي أنليل، والتواصلِ مع روحِه المدمّرة، في لحظاتِ غضبه العاصف.

يقصدُني الناس من أماكنَ بعيدةٍ، طلباً لشفاعته. أتوسّل إليه، فيقبلُ شفاعتي، أنا بخدمتكما. إن كنتما راغبين بالشفاعةِ لديه.

- قال جلجامش: أرسلتني والدتي الإلهة ننسون مع شوناترا، ليعلّمني مهارةَ الفروسيّة. قد تطولُ إقامتي في ضيافته، لا أدري شيئاً عن برنامج التدريب، ولا عن زمنه، القرارُ عند شوناترا.

- أهلاً بكما، لقد أحسنتْ الإلهةُ ننسون الاختيار. إنّها ابنةُ أبيها بالحلوليّة الإله إيا، إله الحكمة والمعرفة. شوناترا صهري، زوجُ ابنتي الوحيدة أنات. هو بمقام ابني الذي أختتطفه منّي نمتارُ، شيطانُ العالم السّفليّ منذ سنين خلتْ.

- صهري وابنتي وولداهما شامات وأوبارا، هم عائلتي التي أعيشُ لأجلها. شامات بلغتْ ربيعَها الثامنَ، وأوبارا بلغَ ربيعَه السادسَ، مازالا صغيرين، ولكنّي سأصنعُ منهما إنسانين مميّزين.

- قال جلجامش: في هذه الغابة!؟.

- نعم !. عالم الغابةِ، عالمُ التنوُّعِ والمفاجآت، عالمُ الأسرار التي يبحث عنها سكّان الحواضر والأمصار، فلا يجدونها إلاّ هنا، الغابةُ تعلّمكَ اليقظةَ الدائمة، تعلّمك الحذرَ وسرعةَ البديهة، واتخاذَ القراراتِ السريعةَ، لمواجهة المواقف الطارئة، كلّ أجَمَةٍ في الغابة، قد تخبّئُ لك مفاجأة.

- قالت نيكال: ولكنّها موحشة. (جنّة بلا ناس ما بتنداس).

- قال إيتاكاما :عندما يألفُها الإنسانُ، يجد فيها جنّةَ دَلمون، التي يحلمُ بها البشر. مُعاشرةُ الوحوش أخيرُ من مُعاشرةِ البشر.

- قال جلجامش: أنت مُحقٌّ أيّها الناسكُ، قصّ عليه ما جرى معهم في الطريق.

- قال إيتاكاما: الحياةُ غابةٌ، إذا لم تكن ذئباً، أكلتْك الذئابُ، لا يختلفُ الواقع بين العمران وموطن الحيوان. مع فرق جوهريّ. هنا في الغابة تعرفُ من هو عدوّك، ومن هو صديقك، تحدّدُ موقفَك منه لحظةَ مشاهدتك له، أمّا سكانُ الوبر والمدر من البشر، فدأبُهم الغدر والطمعُ وجمعُ الدُّرر. الظلمُ من شيمهم، والخيانةُ من سجيتهم.

عندما تصبحُ ملكاً على أوروك، ستجدُ أنَّ المُلْك، لا يستقيمُ إلاّ بسطوة المَلِك، وأحياناً بالخديعةِ والمكرِ، قد تضطرُّ أحياناً إلى أنْ تضعَ السيفَ، في مَوضِعِ الرحمة. فيهابُك الفقيرُ قبلَ الغنيّ. الغنيُّ يخاف منك على ماله، فهو يحابيك ويخضعُ لك، ولكنْ حذارِ أن تصدّقَ محاباته. خضوعُه لك خدعةٌ، فهو يفعل معك، مافعله مع غيرك من قبلك، وسيفعلُ المحاباة والنميمةِ مع مَنْ سيأتي بعدَك أيضاً. لا تثقْ بحاشيتك والمقربين منك، فهم معك، مادمتَ قويّاً، وعليك عندما تصيرُ ضعيفاً.

والدتك أحسنتْ صُنعاً، عندما أرسلتْك إلى الغابة، لتتعلَّم منها كيف تُرسي كرسيَّ ملكك. أرجو أن تكونَ مدةُ إقامتك كافيةً، لترويضِ طبعك البشريِّ ملكاً، فأنت من نسلِ الآلهة، ومن حقّك أن تكونَ فوق بني البشر.

دخل شوناترا، انضمَّ إلى مجلسِ المحادثة، عقّب على كلام عمِّه الناسك بقوله: ستكونُ إقامتُه طويلةً بيننا، قد تمتدُّ إلى سنوات، أنت جزءٌ من مشروع بناء شخصيّةِ الملك ياعمّاه!. هناك تفصيلاتٌ، سنبحثُها معاً. سيّدي جلجامش ثلثاهُ من الآلهة، وأوروك مدينةُ الآلهة، ملكُها يجبُ أن يكون إلهاً، هذه إرادة الآلهة، كما نقلتْها الملكةُ ننسون عن مجمع الأنوناكي. ومن واجبنا الاهتمام بتربية جلجامش ملكاً وإلهاً.

إعداد سيّد قولاب ملكاً، أمانة حمّلتني إياها الملكة ننسون إليك، والآن أضع الأمانة بين يديك، لتعليم سيّد قولاب فنون القتال والنزال، والطراد والصيد. لن يعود سيّدُ قولاب إلى أوروك، إلاّ بعد أن يصبح سيّدَ الرجال، وأشدَّهم عزيمةً، وأصلبَهم عوداً، وأفرسَهم في الطراد، وأقواهم يوم الجِلاد، يقودُ الجيوشَ، ويصطاد الوحوشَ.

ما رأيكم لو تناولنا طعام الغداء في العراء، أنات وأوبارا وشامات بانتظارنا تحت ظلِّ الشجرةِ الكبيرة.

هزَّ إيتاكاما رأسه تعبيراً عن قبوله الأمانة التي سيناقشُ تفاصيلَها مع شوناترا على انفراد. في الوقت الذي نهض جلجامش ونيكال من مجلسِهما.

ساروا جميعاً، يتقدّمُهم شوناترا، إلى حيثُ أنات وولداها بالانتظار، ثلاثةُ شخوصٍ من سكّان الأدغال، عراةِ الأجساد، إلاّ من نصيفٍ جلديٍّ يسترُ عوراتِهم، ولكنَّ أجسادَهم كانت نظيفةً، وشعورهم مغسولةً مُسرّحةً، لم تعرفْ مقصّاً من قبل، تُركَتْ غدائرُها حُرّةً فوق أكتافهم. رحّبتْ أناتُ بالضيوف بكلماتٍ مختصرةٍ، ولكنَّها معبرةٌ عن فطرةِ الكرم والرِّضا.

تحلّق الجميعُ حولَ الطعام، الذي يتألفُ من الخبز، واللَّحم المسلوق المصفوف، فوق البرغل المطبوخ. تناول إيتاكاما الخبزَ، باركه بعبارات شكرٍ لإلهة القمحِ نيسابا، التي منحتِ البشرَ نعمةَ الخبز طعاماً يشاركون به الآلهة. تقدّم الجميعُ إلى الطعام، ماعدا أنات وولديها، فقد بقَوا واقفين، يردّدون كلماتِ الترحيب بالضيفين. قالتْ نيكال في سرّها: عائلةٌ متحضرةٌ في بيئةٍ مُتوحّشة.

بعد أن فرغوا من الطعام، غسلوا أيديَهم بماءٍ نظيفٍ، شربوا ماءً بارداً، دارتْ به عليهم شامات بكوبٍ خشبيّ.

- قال الناسك إيتاكاما: الضيوفُ بحاجةٍ إلى الراحة، سيّدُ قولاب ونيكال يرتاحان في كوخي، وأنا وشوناترا سنكون في الكوخ الشرقيِّ، ثمّة أمورٌ تجب مناقشتُها.

شعر جلجامش للمرة الأولى بسطوة كلام الناسك إيتاكاما، نهضَ من مكانه دونَ تردُّدٍ، توجّه إلى الكوخ الذي أشار إليه إيتاكاما، كان الكوخُ بسيطاً، ولكنّه كان نظيفاً.

مصطبةٌ مبنيّةٌ من الطين تصدرتْ بهوَ الكوخ الداخليّ، وُضِع فوقها فراشٌ من صوفٍ، ولحافٌ من جلد الأغنام، ألقى جلجامش جسَده عليه، وراح يسبحُ في بحرٍ من التساؤلات، حول هذا العالم الجديد، الذي يراهُ للمرة الأولى ولكنَّ تعبَ الرِّحلة الذي اجتمع دفعةً واحدةً في فضاء الكوخ، ألقي به في بحرٍ من النوم العميق.

أمّا نيكال، فقد كانتْ أجواء راحتها أكثر أُنساً، فوجدتْ في أنات وشامات، والصبيّ أوبارا، ما يشبعُ نهمها إلى مداعبة الصغار، والأنسِ بأحاديثَ متنوعةٍ مع أنات.

جلس شوناترا مع عمّه إيتاكاما، ليضعَه بصورة أحلام الملكة ننسون، حول ولدها ملك أوروك في المستقبل، وموقع نيكال من جلجامش، ورغبتها ببناء كوخٍ مستقلٍ لهما، لأنَّ إقامتَهما بيننا، قد تطولُ لسنين عديدة.

أطرق إيتاكاما قليلاً ثمّ قال: كلُّ شيءٍ حسنٌ، قبلتُ المهمّة، ولكنْ كم سيكونُ الأجرُ؟.

- ابتسم شوناترا وقال: لا عليك!، الإلهة ننسون سخيّةٌ معي، هي دجاجةٌ بيضُها من ذهب، بعد ستة أشهرٍ، سأعودُ به إلى أوروك، لحضور احتفالاتِ عيدِ الخصوبة، قد أصطحب أناتَ وشاماتَ وأوبارا. وعلى ضوءِ النتائج، سنقبرُ الفقر. ثمّة أمرٌ مهمٌّ، يجبُ الاهتمامُ به، والتخطيطُ إليه.

- ماهو؟.

- أوروك مدينة الإله شمش، وعندما صار لوجال بندا ملكاً، اهتمّ بعبادة الإله إيا، بينما بقيت عبادةُ الإله أنليل ثانويةً، على عكس مملكة كيش، التي تحتلُّ فيها عبادةُ الإله أنليل مركز الصدارة، بسبب موقف الملك أجا المُتبتِّل للإله أنليل، يجب أن نضعَ في حسابنا، أنَّنا سنبني ملك أوروك القادم، بناءً يجعلُ من الإله أنليل، إلهاً متقدّماً على غيره من الآلهة في أوروك. وكما تعلمُ، العامّةُ على دين ملوكها، جلجامش يملك قلباً شجاعاً، وجرأةً لم أرَها لدى غيره من أترابه. تعرضْنا خلال سفرنا لخطرين، في الأوّل أنقذ حياتي في مواجهة مع أسدٍ ولبوة، وفي الثاني، واجه رجلين اثنين بمفرده، أرادا سبيَ نيكال منه، قتل واحداً بطعنة سيف، وذبح الثاني بقلب بارد، وكأنّه جزّارٌ يذبحُ نعجةً.

- كم عمره؟.

- عشْرُ سنين ونيّف.

- هيكله الجسديُّ، يُوحي بأنّه ابن خمسةَ عشرَ ربيعاً.

- في هذه السِّنّ سيكون ملكاً على أوروك، أمامنا خمسُ سنين لبناء ملكٍ يخدم مخططاتنا، أنا سأعلّمه الفروسيّةَ، على الرغم من معرفته الكثيرَ من قواعدها، وأنت ستعلّمه فنونَ القتال. هو مقاتل بالفِطرة، طالبٌ نجيبٌ، لن

يكلّفنا جهداً كبيراً. هذا ما تجهله والدته. ولكنْ يجبُ أن نُوهمُها، بأنّنا نحنُ من صنعاه فارساً مغواراً، لا يُشقُّ له غبار، في الطراد والقتال، ووركوب الأهوال، فإن نجحَ مشروعُنا، انتقلنا جميعاً إلى أوروك، لنقّدم من هناك فروضَ العبادة إلى ربِّنا إنليل.

- تنتقل أنت، أما أنا فسأبقى هنا في الغابة، أنتظرُ زيارتك مع أنات وحفيديَّ بين الحين والحين.

- خلال خمس سنين، قد تغيّرُ رأيَك. إلى متى ستبقى في الغابة!؟.

سارتِ الأيَّام الأولى مع جلجامش ونيكال سيراً عاديّاً، رحلاتٌ على ظهور الجياد، يصحبهما فيها شوناترا، بين أدغال الغابة حيناً، وخارجها حيناً آخر، على الرَّغم من أنّها جولات استطلاعيّة، كما سمّاها شوناترا، إلاّ أنّها لم تكن تخلو من متعة لجلجامش، الذي عاش في المدينة، وضمن بيوت تسوِّرها أربعةُ جدرانٍ.

للمرة الأولى تذوَّق جلجامش طعم الحريّة خارج جدران البيت، الحريّة التي فقدها بعد وفاة والده، على الرغم من كلِّ وسائل الرعاية التي أحاطتْه بها الملكة الأمّ ننسون.

كان يشعر في أعماقه، أنّ شيئاً ما ينقصه، ولكن ما هو؟. بقي السؤال لاهثاً لاهباً على شفتي ابن الحادية عشرة، حتى أتى إلى هذه الغابة، هنا أدرك أنَّ للحياة لوناً جديداً، لم يعرفه من قبل، صار أكثر مرحاً، وأشدّ يقظةً، شعر بأنّ الطبيعة تمنحه كلَّ شيءٍ، ولا تأخذُ منه شيئاً، فابتهجتْ نفسُه المتعطّشةُ إلى الحياة اللاهية العابثة.

كيفما تحرّك، كانت الأدغال تدعوه إلى اليقظة، فراح يمرّنُ أذنيه على فنّ الإصغاء، ويتعلّمُ كيف يميّزُ طبقاتِ الأصوات، التي كانت تتشابك في فضاء الغابة، كان عليه أن يسأل عن نِسْبة كلِّ صوت إلى صاحبه، لم تبخل عليه العائلة المضيفة، أنات شوناترا إيتاكاما وأحيانا شامات ابنةُ الثامنةِ من عمرها.

كانا متقاربين في العمر، متباينين في الحجم، ولكنَّ ضخامة جسده، لم يلغِ نزوعه إلى حبّ اللعب واللهو معها، وهو الذي حُرِم منه منذ سنوات خَلَتْ، فوجد في شامات شريكاً، يشاطره لهوَ الطفولة، وعبثَ الصبا، فأضحتْ شاماتُ رفيقةَ النهار، ونيكال شريكةَ الليل.

كان شوناترا يراقب انسجام الصبي جلجامش مع ابنته، فأضاف إلى أحلامه حلماً جديداً لم يخطر على باله من قبل. أحلامه الأولى كانت محصورةً في العطاء الذي سينهمر عليه من ننسون، أمّا أن يكون نسيباً للإلهة ننسون، فهذه ذروةُ ما يحلُمُ به شخصٌ من عامة الشعب، لذلك ضاعف من اهتمامه بتدريب جلجامش، وراح يُغدقُ عليه من الحبّ، والعطف أضعافاً مضاعفةً، ووجّه زوجته للغاية نفسها.

لقي الحلم مراحاً واسعاً لدى خيال أنات، فراحت تبعد نيكال عن ملازمة جلجامش، بحجّة مشاركتها بأعمال المنزل، وإعداد الطعام، في الوقت الذي كانت توجّه ابنتها إلى اللَّهو الصبياني مع جلجامش.

مضت أسابيعُ عديدةٌ، وجلجامش ينمو جسديّاً، وتتفتّح مواهبه على الحياة الجديدة في الغابة ذهنيّاً، تعلّم في بضعة أسابيع، ما يتعلمه غيرُه في أشهر، أظهر مهارةً في ركوب الخيل، أدهشتْ شوناترا.

في أحد الأيام، طالبه جلجامش برحلة صيدٍ مع الناسك إيتاكاما، إلا أن شوناترا طلب منه تأجّيل رغبته، بسبب انشغال إيتاكاما بممارسة نوع من الرياضة الروحيَّة، مع الإله أنليل.

في نهاية الشهر العاشر بحسب التقويم البابلي، اقتنع شوناترا، بأنَّ جلجامش صار فارساً، يمكنه المشاركةُ في السباق، والقفز فوق الحواجز دون خوف من السقوط عن ظهر جواده. كما يجيدُ اللَّعبَ بالنبوت والصولجان أيضاً، بمهارة ستدهشُ المشاهدين. كان يبدو على ظهر الجواد فارساً في تمام رجولته. قال شوناترا لنفسه: مازال أمامنا شهران قبل العودة إلى أوروك، لحضورعيد الخصوبة، الذي هو عيد رأس السنة في الوقت نفسه.

الطقس ما زال بارداً، ماعدا بعض الانقشاعات في شهر شباط، قال لنفسه: يجب توجيه جلجامش للتعرّف على حيوانات الغابة. فأرشده إلى ضرورة ارتقاء الشجرة الباسقة التي تمدُّ أغصانها في كلّ الاتجاهات، لتغدو ظلالها لهم مراحاً، وللأطيار مستراحاً. من على ذروتها يتمكّن من مشاهدة حركة الأحياء في الغابة. استهوتِ الفكرةُ جلجامش، وكذلك نيكال، التي وجدت في ارتقاء الشجرة هوايةً، تشارك بها مليكَ قلبها، وفي الوقت نفسه تبعده عن اللَّهوِ مع شامات. فراحا يحلبان الزمنَ، شطراً في المراقبةً، وشطراً في المسامرة، فظهرا كطيرين عاشقين يتبادلان الأسرارَ فوق الأشجار.

أمام مساحة الرؤية التي تمتدُّ إلى الآفاق الأربعة. جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً، راحا يتعرّفان من موقعهما فوق الشجرة، إلى ما يجري حولهما. فأثارت حركة الأحياء في الغابة، تساؤلات جديدة لدى جلجامش، يحملها معه إلى شوناترا، الذي لم يكن يبخل عليه بجواب يعرفه، أمّا ما يجهله، فكان يلقي به على إرادة الآلهة.

في بداية شهر آذار راح شوناترا، يجّهز ترتيباتِ السفر إلى أوروك. استعداداً لرحلة العودة، نزولاً عند وعدٍ قطعه على نفسه للملكة ننسون. في رحلة العودة، يجب أن يكون أكثر حذراً، فهو يصحب زوجه وولديه، فطلب من عمّه إيتاكاما تدريبَ جلجامش على بعض فنون القتال، ليكون نصيراً له عند النزال، إن لزم الأمر.

كانت ساعات التدريب مكثّفةً، تُركِّزُ على مهارات الدفاع عن النفس، وحماية ظهر الصديق، خلال أسبوع فقط، أبدى جلجامش سرعة في التعلُّم، أذهلتْ إيتاكاما. قال لصهره : سيكون جلجامش أعظم رجل في العالم.

لقد صدقتْ فراسة كاهنة المعبد، عندما قالتْ عنه وهو طفل في المهد: ثلثاه إله، وثلثٌ من البشر. سأكون شريكاً لك في كلّ مشاريعك بخصوص ملكِ أوروك القادم، سأصنعُ منه ملكاً، يجعل عبادة الإله أنليل في المرتبة الأولى بين شعبه، ومن يدري؟. قد يمدُّ سلطانه على ممالك أخرى مجاورة، الصبيُّ يملك كلّ المُؤهلات التي تجعل منه بطلاً مميّزاً، إنّه طموحٌ جسورٌ، ذكيٌّ قويّ، جسيمٌ مهيبٌ. لقد اجتمعتْ فيه كلّ الصفات الجسميّة والعقليّة، التي تجعل منه ملكاً عظيماً، إنّه موهوب حقّاً، يجبّ صياغةُ سلوكه عندما يعود إلى هنا، على نمط خصائص الإله أنليل، إله العاصفة والحرب، يجب أن نجعل منه ملكاً مُحارباً، يكون كالعاصفة التي تدمّر كلَّ ما يقف في طريقها دون تردُّدٍ أو شعورٍ بالشَّفقة أو الذنب، ملكاً قادراً على تغيير وجه العالم، ملكاً يطلبُ المجدَ، الذي لم يطلبه ملك من قبل.

غادرتْ قافلة شوناترا الغابة في صباح يومٍ آذاريٍّ مشمس، بعد صلاة الناسك إيتاكاما التي رفعها خصيصاً للإله أنليل، ليحفظَ عائلة ابنته أنات على طريق الرحلة، فشهر أذار شهر العواصف والأمطار، التي يمسك لجامها الإله أنليل، يرسلها على أجنحة الإله حُدُد، متى يشاء، ويلجمها متى يشاء.

يوم وبعض ليلة فقط، وصلتِ القافلة إلى أوروك. القافلة قطعتِ الطريق دون عقبات، أو عثرات، عندما وصلتْ إلى أوروك في الهزيع الأوّل من الليل، كانت أبواب المدينة مغلقة، وكلُّ من يصل متأخّراً، عليه المبيتُ في نزل بسيط مسقوف بسعف النخيل، التي لا تردُّ غائلة صقيع شهر آذار، قال شوناترا لنفسه: مدينة لا تسمح لملكها بالدخول إليها!. لا بُدَّ من عمل شيءٍ ما، تقدّم من أحد الحراس.

- قال له: من فضلك، أرغب بالحديث إلى قائد الحرس.
- ردّ الحارس بجفاء: قائدُنا لا يكلّمُ أحداً.
- قال شوناترا بنبرة آمرة: أيقظْه إنْ كان نائماً.
- ردّ الحارس بهدوء حذر: قائد الحرس في دوريّةٍ على الباب الغربيّ.

وصل جلجامش إلى حيث يقفُ شوناترا، فَهِمَ من حديث الحارس، أنَّه يرفض السَّماح لهم بالدخول، وعليهم قضاءُ ليلتهم في العراء. تقدَّم من الحارس، شهر سيفه في وجهه مُحذّراً. فتح الحارسُ عينيه. انضمّ حارسان آخران إليه، هجم أحدُهما على جلجامش، وراح الاثنان يُشاغلان شوناترا. عرف جلجامش كيف يناور الحارس، وكيف يمتصّ فورة اندفاعه، دقائق قليلة، كان الحارس مُلْقىً على الأرض، أمسك به جلجامش من كتفيه، ووضع حدّ السيف على عنقه، التفت جلجامش إلى الحارسين الآخرين، فوجد شوناترا، قد جرّدهما من سلاحِهما أيضاً، قال لهما جلجامش مُحذِّراً: أدخلوا القافلة. أو أحزُّ رقبة رفيقكم.

دخلتِ القافلة وسط قلق نيكال وأنات، وخوف أوبارا وشامات، اتجهتْ إلى حي قولاب. بينما توجّه شوناترا للحرّاس الثلاثة بالقول: نحن أصدقاء لشعب أوروك، لا تقلقوا. وحذارِ من اللَّحاق بنا، وحذارِ أيضاً من أن تذكروا ما جرى بيننا لأحد، لكيلا يلحق بكم العار، يجب أن يبقى الأمر سرّاً، أخذ كيساً فيه ثلاثون مثقالاً، وقال لهم: خذوا هذا الكيس ثمنَ صمتِكم.

في منتصف الليل، وقفتْ أربعةُ جياد أمام بيت الملكة ننسون، ترجّلوا عنها، طلب شوناترا من الحرّاس السّماحَ لهم بالدخول، ضيوفاً على الملكة. قادهم أحدُ الحرّاس إلى بيت الضيافة.

لاحظ جلجامش، أنَّ ثمّة ترتيباتٍ جديدةً، لم تكنْ موجودةً سابقاً. عدد الحراس في فناء البيت، عدد الخدم، عدد من الوصيفات، بيت الضيافة منفصلٌ عن بيت الملكة.

نام شوناترا وأنات وولداهما في بيت الضيافة، بينما انسلَّ جلجامش ونيكال عبر باب في جدارٍ أنشئ حديثاً، يفصل بيت الضيافة عن الحديقة. دخلا إلى الحديقة، التي يعرفها جلجامش جيداً، ومنها إلى مخدعهما الخاصّ، دون أن يشعرَ بهما أحدٌ من الحراس، أو الخدم. كانت حجرةُ نومهما، كما تركاها، تنتظر عودتهما.

في الصباح الباكر استيقظ جلجامش حسب عادةٍ اكتسبها في الغابة، مع موعد زقزقة العصافير. انسلَّ من فراشه تاركاً نيكال تنعم في نومٍ عميقٍ، توجّه إلى شوناترا، فوجده مستيقظاً. جلسا معاً، سأل أحد الخدم عن موعد استيقاظ الملكة.

- فقال: لقد استيقظتْ منذ ساعة، وخرجتْ مع أنمركار إلى مكانٍ أجهله، ولكنَّني لاحظتُ القلقَ بادياً على وجهها.

- هل أخبرها أحد عن وجودنا ضيوفاً عليها؟.

- أجاب الخادم: لا أعرف، هذه مهمّة بوقو. أعتقد أنّه فعل، هو ينقل إليها كلَّ ما يجري في البيت، دون تأخير، فكيف لا ينقل إليها خبر وجودكم في بيت الضيافة!؟.

- قال جلجامش: هلمّ لنخرج إلى شوارع المدينة يا شوناترا!، لنبحث عنها.

- أجاب شوناترا: أخرج أنا، أمّا أنت، فرتّب واجب الضيافة لعائلتي، أنسيت أنّنا ضيوفُك!؟. وعليك أن تهتمَّ بنا.

نادى أحد الخدم، قال له: هؤلاء ضيوف الملكة، أتعرف ذلك؟. أجاب: نعم أعرف. قال جلجامش: يبدو أنّك لا تعرف واجبك. أجاب الخادم: الأوامر نتلقاها من الملكة فقط يا سيّدي، وبدون أوامرها، لا يفعلُ أحدٌ شيئاً. ثمّة أمرٌ يشغل الملكة، جعلها تتجاهلُ وجودكم، عليكم بالانتظار ريثما تعود. اعذرني يا سيّدي!. واجبي يطلبني في مكانٍ آخر.

- قال جلجامش لنفسه: يبدو أنّ ملك أوروك، هو ضيف أيضاً في مملكته!، شأني شأنُ شوناترا، اعذرني يا معلّمي على تقصيري، أنا ملك بلا مملكة!.

- قال شوناترا: ابقَ هنا مع عائلتي، وسأخرج أنا بمفردي، اتسقّط أخبار المدينة.

بقي جلجامش مع عائلة شوناترا، شعر بالغربة في بيت وُلِد وترعرع فيه، نفسه المتمرّدة رفضتْ هذا الشعور. أراد أن يثبت لشامات وأمّها، أنه قادر على الحركة في بيت أبيه.

أمسك شامات من يدها، خرج بها إلى حديقة البيت، حيث كان يلهو قبل خمسة أشهرٍ فقط مع نيكال، كلّ شيءٍ باقٍ على حاله، شجرةُ النارنج، عريشةُ الياسمين، المقاعد الحجريَّة. قال لنفسه: الناس هم الذين تغيّروا، راح يلهو مع شامات، كما كانا يلهوان في الغابة البعيدة، ركضا معاً، ضحكا كطفلين، حملها بين ذراعيه القويتين، وراح يطوف بها في ممرات الحديقة الواسعة حيناً، ويركض معها فوق بساط من العشب الأخضر حيناً آخر.

أطلقتْ شاماتُ ضحكةً طفوليّةً عالية، وصلتْ أصداؤها إلى أُذني نيكال، فنهضتْ من فراشها، أطلّتْ من النافذة، فرأتِ اللَّهوَ الصبيانيَّ، الذي طالما أقلقها في الغابة، يقرعُ نافذة مخدعها في بيت الملكة، خرجتْ إليهما في ثياب نومها. ثمّ قالت:

- مولاي! بحثتُ عنك كثيراً فلم أجدك.

- قال جلجامش: هأنذا أمامك، أين الناسُ الذين تركناهم هنا يا نيكال منذُ خمسةِ أشهر!؟. كلُّ شيءٍ قد تغيّر في غيابنا!، أين الملكةُ والدتي!؟. لقد اشتقتُ إلى حضنها، حضنُها له طعمٌ آخر، يختلف عن طعمِ حضنِك يا نيكال!.

- قالت نيكال: لا أدري شيئاً يا مولاي. غلبني النوم بعد أن أوينا إلى فراشنا مباشرة.

- ضيوفُ الملكة جياعٌ يا نيكالّ. دبِّري أمر إطعامهم. أنسيتِ واجبَ الضيافة!؟.

- لا. لم أنس، ولكنّنا جميعاً ضيوفٌ غرباء.

- ادخلي المطبخ، فإنْ سألك أحدٌ عن اسمك، فقولي: أنا نيكال، خليلة مولاي الملك، أُعِدُّ له طعام الإفطار. أنا بانتظارك في بيت الضيافة.

- عاد جلجامش وشامات إلى بيت الضيافة، ليجدا شوناترا سابحاً في دوّامةٍ من التفكير القَلِق.

- سأله جلجامش:.ما بك يا معلمي!؟.

- الشرطة تبحث عنّا في كلّ مكانٍ يا مولاي!. فعلنا خطأً فادحاً عندما دخلنا المدينة عنوةً.

- لماذا!؟.

- نحن الآن بنظر الجميع جواسيس، اقتحموا البابَ الغربيَّ، ويعتقدون بأنَّهم مختبئون في حيِّ قولاب، والشرطة تفتش الحيّ عنهم بيتاً بيتاً.

- كنْ مطمئنّاً، فلن يجدوا أحداً. ولن يخطرَ على بال أحدٍ، أنَّ الجواسيس، مُختبئون في بيت الملكة!. سأل جلجامش أحد الخدم: هل عادتِ الملكة؟.

- أجاب الخادم: نعم منذ قليل. وعلائمُ القلق ظاهرةٌ عليها.

- قال شوناترا: وربّما الخوفُ أيضاً، يجب أن نهدّئَ من رَوعِها. التفتَ إلى أحد الخدم وقال: أطلبُ مقابلة الملكة.

- هذا الأمر، لا يكون إلاّ من خلال بوقو يا سيّدي!.

- نادهِ إذن. قُلْ له: رجلٌ يجلس في المضافة، لديه معلوماتٌ مُهمّةٌ، لا تقبل التأجيل، يريد مقابلة الملكة.

جاء بوقو، توجّه بالحديث إلى شوناترا بأسلوب فظٍّ:

- عرّفني بشخصك أولاً، قبل أن تطلب مقابلة مولاتي الملكة.

- قال شوناترا: بلِّغِ الملكة، بأنَّ شوناترا بالباب، ينتظر أمراً للمثول بين يديها.

- وما هي الأخبار التي تحملها؟. هل تستحقُّ الاهتمام؟، هاتِ ما عندك.

- قال شوناترا بأسلوبٍ هادئ: أنا رسول الناسك إيتاكاما، حاملِ أسرار الإله أنليل، والرسالةُ لا تُبلَّغ إلاّ لصاحبها.

قاس بوقو شوناترا بنظراتٍ مُتأنية، قبل أنْ يتوجّه إلى الملكة. قال جلجامش:

- تحدّثُني نفسي، أن أفقأ عينيه. عينان مملوءتان بالمكر والرياء والغرور، ألم تلاحظ أسلوبَ كلامه معك؟.

- قال شوناترا: بعد قليلٍ سيلعقُ قدميك يا مولاي. هؤلاءِ كلابُ السُّلطة، الذين حدّثك عنهم الناسك إيتاكاما، أتذكر حديثه؟.

- نعم أذكر، جلجامش قد يتناسى، ولكنّه لا ينسى.

- قوَّةُ الذاكرة من صفات الملوك الناجحين يا مولاي!. حدَّثني عمّي إيتاكاما ذاتَ يومٍ فقال: جلجامش سيكون أعظمَ ملكٍ في العالم. سيملأ اسمُه مشارقَ الأرض ومغاربَها.

عاد بوقو إلى بيت الضيافة، توجّه إلى حيثُ يجلس شوناترا، بكلِّ تواضعٍ واحترام، قال: سيّدي الفارس شوناترا!. مولاتي الملكة بانتظارك.

نهض شوناترا وجلجامش معاً، ولكنّ بوقو اعترض قائلاً: فقط سيّدي شوناترا. رمقه شوناترا بنظرةٍ قاسيةٍ قائلاً:

- يبدو أنَّ جسدَك ملَّ من رأسِك، ووضع يدَه على مَقْبَضِ سيفه

- قال بوقو: ولكنْ!.

- ولكنْ... ماذا!؟.انحنى شوناترا بهدوء أمام جلجامش قائلاً: تفضّل مولاي الملك!. التفت إلى بوقو قائلاً: لا داعٍ لمرافقتِنا، نعرفُ الطريقَ جيّداً.

دخل جلجامشُ إلى ديوان الملكة، أبهرتْه مظاهرُ الأناقة، فسرقتْ اهتمامه لحظةً، إلى أنْ أخرجه من ذهوله صوتُ والدته: ولدي الحبيب!. عانقتْه بشغفٍ، ساده صمتٌ قصيرٌ، قطعه قولُ شوناترا: الفارس شوناترا بخدمتك يا مولاتي. أجابتْ ننسون: أهلاً شوناترا!. المفاجأة شغلتْني عنك، حمداً للآلهة!. جئتم في الوقت المناسب، هيّا اجلسا.

- قال شوناترا: أرى مولاتي مشغولةَ البال على غياب ولدها وقرّةِ عينها.

- قالت ننسون: مشغولةُ البال وقلقةٌ أيضاً، ولكنْ ليس بسبب غياب جلجامش فحسب، بل بسبب متاعب الحكم، التي أخذتْ منِّي تفكيري، وسرقتْ منِّي ذاتي، خلال فترة غيابكم. منذ أسبوع بدأتُ أفكّر بطلبكم.

- أهو الشوقُ إلى جلجامش أم القلقُ عليه يا مولاتي!؟.

- الحقيقة، هو القلقُ على كرسيّ المُلْك يا شوناترا!.

- وماذا يقلقكِ يامولاتي!؟.

- إنّه أجا، ملك كيش، طامعٌ في أوروك، يحرِّكُ ذيلَه بين الفَينة والأخرى، ويبدو أنّ بعض شيوخ أوروك، يلوّحون له بعظمةٍ من داخل المدينة. قائدُ الجيش كلامو ضعيفٌ، وليس موضعَ ثقتي، أحتاجُك قائداً للجيش يا شوناترا. يجب أنْ تبقى قربي، ويجب أنْ يجلس جلجامش على عرش أبيه، أمران مُلحّان، لا يقبلان التأجيل.

- هل هناك ما يستدعي العجلة يا مولاتي؟.

- نعم!. في الليلة الفائتة أخبرتْني عيوني الخفيّةُ، التي نشرتُها في كلِّ أنحاء المدينة، أنّ عدداً من جواسيس أجا، تسلّلوا إلى المدينة ليلاً، وهم يختبئون الآن في

حيّ قولاب، قريباً منّي، يستعدون للوثوب عليّ، بمساعدةٍ من خصومي بالوقت المناسب.

- وهل فتشتِ الشرطة الحيَّ؟!

- نعم ولكنّهم لم يعثروا على أثرٍ لهم، وكأنّهم قطعةُ ملحٍ ذابتْ في الماء.

- هل فتّشوا بيتك يا مولاتي؟!.

- كيف؟! هل وصلتْ بهم الجرأةُ، على أن يختبئوا في بيتي؟!. ليس من المعقول أنْ يتآمر حرسي الخاصُّ عليَّ. لقد أشرفتُ بنفسي على اختيار أفراده، وأجزل لهم العطاء.

- يا مولاتي عندما يكون الولاء مأجوراً، يتحوّل إلى بضاعةٍ قابلةٍ للمساومة، فينتقل الولاء لمن يدفع أكثر. كوني مطمئنةً يا مولاتي. بجوارك الآن مَنْ يُخلصُ لك الولاء بلا مقابل، أنا الذي ائتمنتِه على فلذَّة كبدك. لقد حفظتُ الأمانة، وعدتُ به فارساً لا يُشقُّ له غبار، كلانا طوع أمرك. أمّا الجواسيسُ الذين تسلّلوا ليلاً، فهم لك لا عليك، هم يقفون بين يديك الآن يا مولاتي.

- قال جلجامش: أمّي عائلة شوناترا في بيت الضيافة منذ البارحة، ولم يهتمَّ بهم أحد، هم بحاجة إلى الطعام والشراب والرّاحة. لم يجرؤ أحدٌ من الخدم على تلبية طلباتي بشأنهم. يجب أن تفعلي شيئاً من أجلهم.

- قالتْ ننسون: وا أسفاه!. قابلنا كرمَك معنا بالإهمال يا شوناترا!، كلُّ شيءٍ سيكون كما تشتهي.

نادتِ الملكة أحد الخدم، أمرتْه بإدخالهم إلى الحجرة المجاورة لحجرة نوم جلجامش، وأمرتْ خادماً آخر بإعدادِ طعام الإفطار.

تناولوا معاً الطعام على مائدة الملكة، وبعدئذٍ، استمعتْ ننسون إلى مغامرات ولدها في رحلته الأولى. أبدتْ اندهاشها، وإعجابها بما سمعتْه من شوناترا، وأكّدتْ نيكال بعبارات من الإطراء المحبّب على فارسها المغوار جلجامش.

- عقّبتِ الملكة بقولها: الفروسيّةُ لا تكفي، يجب أنْ يكونَ الملك موهوباً مرهوباً، يرجوه الصديق، ويخشاه العدو.

- قال شوناترا: سنعود بعد عيد الخصوبة إلى الناسك إيتاكاما، ليقوم بالمهمّة التي وعدنا بها، . كوني مطمئنّةً يا مولاتي!.

- قالت الملكة: لماذا لا يأتي إيتاكاما إلى هنا؟. سأوفّر له كلَّ طلباته، جلجامش ملك أوروك، ومكانُه هنا على عرش أبيه، يجب أنْ يشعرَ الجميعُ أنَّ لوجال بندا مازال موجوداً بشخص ولده الوحيد، الوريث الشرعيّ لحكم أوروك، جرّبتُ خلال الفترة الماضية أن أقوم مقام لوجال بندا رحمتْه الآلهة، ولكنّي وجدتُ أعباءَ الحكم ثقيلةً، لا أقوى على حملها، وآمنتُ أيضاً، بأنَّ لكلِّ إنسانٍ فراغاً خاصّاً به، ولا يقوى شخصٌ على مَلْء فراغِ شخصٍ آخر، فراغُ لوجال بندا لا يملؤه إلا ملكٌ ذكر.

- بعضُ الكهنة يتساءلون، مَنِ الذكرُ الذي سيمثّل دور دوموزي في عيد الخصوبة القادم؟. بعضُهم اقترح ملكَ بابل. وبعضُهم اقترح ملكَ شورباك، وبعضهم ملكَ أريدو. ولن أستغرب من بعضهم، أن يُرشّح ملكَ كيش أجا، العدوّ اللدودَ لأوروك.

- لذلك سوف أُعلنُ جلجامش ملكاً على أوروك في عيد الخصوبة، لأقطعَ ألسنة الجميع، وستكونُ أنت قائداً للجيش، بدلاً من كلامو، وسيكونُ إيتاكاما وزيراً أوّلَ لجلجامش، وسأكون أنا مُرشدةً للملك، أراقبُ وأوجّه دفّة الحكم من وراء ستار. أنا من الآلهة، ولا يجوز لي الاختلاطُ بالناس، أو معايشةُ اهتماماتهم الدنيويّةِ بشكلٍ مباشر.

- يجب استدعاءُ إيتاكاما إلى هنا بأسرع وقتٍ مُمكن، وجودي وحيدةً على عرش أوروك، حرّك مشاعر الطَّمع في قلب ملك كيش. هو يشتري النفوسَ الضعيفةَ، ويحرّض الرجال الرافضين لفكرة المرأة الملكة على أوروك. وبعضُهم يقترح الشيخَ ترحاسيس ملكاً. عَودتُكم إلى الغابة، مغامرةٌ غيرُ محمودة العواقب.

- قال شوناترا: إيتاكاما زاهدٌ منقطعٌ لعبادة أنليل، والغابةُ حسب رأيه، هي المكان الأفضل للتواصُل مع ربّه أنليل. لقد رتّب سكنه وإقامته هناك، وكذلك سكني أنا أيضاً، فالناسك إيتاكاما والد زوجتي، فإذا أتى إلى هنا، سنواجه معاً مشكلة البيت والسَّكن.

- قالت الملكة: قصري سيكون جاهزاً بعد شهرٍ من الآن، وهذا البيت الذي ترَونه، سيكون تحت تصرُّفكم، لن تكونوا في أوروك من عامَّة الناس، بل من خاصَّة الملك، مكانةٌ اجتماعيّةٌ، يحلم بها أيُّ إنسان.

- قال شوناترا: إيتاكاما لن يتخلّى عن واجبه تجاه الإله أنليل.

- سأجعل من عبادة الإله أنليل، عبادةً توازي عبادةَ الإله شمش، وسيكونُ كاهنُ معبد أنليل متقدّماً بين الكهنة. سأُغدقُ على إيتاكاما ما لا يخطرُ على باله.

- التفتتْ الملكة إلى نيكال وقالت: أمّا أنتِ، فسوف تقرّر الكاهنة الأمّ أشخارا، في يوم عيد الخصوبة، مدى نجاحِك في مهمَّتِك.

طلبتْ بوقو، أمرتْه أن يبلّغ أنمركار، بالكفِّ عن متابعة التحرِّي والبحث عن الجواسيس.

عندما دخل أنمركار، كانت علامات التعب باديةً عليه، ولكنَّ تعبَه تلاشى أمام المفاجأة التي وضعتْ أمامه جلجامش وشوناترا. قالتْ الملكة: يبدو أنّك هَرِمْتَ يا أنمركار!.

- قال أنمركار: عجلة الحياة، لا تعود إلى الوراء يا مولاتي. بلغتُ الثمانين، ونمتار ينتظرني خلف باب السنين.

- قالتِ الملكة: أمللتَ من العالم العلويِّ، وصرت توّاقاً إلى العالم السفليِّ يا أنمركار!؟.

- يا مولاتي!.رفاقي الذين رحلوا إلى العالم السّفليِّ، يفوق عددُهم عددَ الذين مازالوا أحياءً في العالم العلويِّ، ما نحن إلاّ بشر، مآلنا الفناءُ، والخلودُ للآلهة.

- مازالتْ أوروك بحاجةٍ إلى خدماتك، لا تُكثر من ذكر نمتار، إنَّه عدوُّ الكبار والصغار، وعقولهم به تحتار، متى يأتي؟. وكيف؟. ومَنْ سيختار؟. هذا بعلم الغيب يا أنمركار!. لدينا مهمّةٌ لك، يجب أن تقوم بها بكلِّ هِمَّةٍ واقتدار!.

- ما هي يا مولاتي!.؟

- الإشراف على احتفالات عيد الخصوبة، يجب أن تكون في هذا العام مميّزةً، هي المرّة الأولى، التي يلعب فيها ابني جلجامش، دور الإله دوموزي. يجب أن يعلم أهل أوروك، أنّ جلجامش صار فَحْلاً مؤهّلاً للجلوس على العرش. في نهاية الاحتفالات، تنتظرك مكافأة نهاية خدمتك، يمكنك الانصراف. وأنت يا شوناترا!. يجب أنْ ترحل فوراً إلى الغابة، لتحضر إيتاكاما. الأمر لا يحتملُ التأجيل.

جلجامش!. ساعد معلمك على ترتيبات سفره.

الفصل الرابع

عاشتْ أوروك أسبوعاً دائب الحركة، استعداداً لاحتفالات عيد الخصوبة، هذا هو العيد الأوّلُ، الذي يمثّل فيه جلجامش دور الإله دوموزي، وبناء على نجاحه، ستقدّمه كاهنة معبد عشتار، رجلاً تام الفحولة، يَصلُح لأن يكون ملكاً على أوروك، يمارس طقوس الخصوبة في كلِّ عيد. سُنّةٌ متَّبعةٌ في أوروك منذ تكوينها. الملك يجب أن يكون ذكراً، يجيد فنّ إخصاب الكاهنة الأمّ.

طقوس الجنس المقدّسة، تمارس في يوم العيد، وسط احتفالاتٍ شعبيّةٍ، يشترك فيها شعب أوروك، نساءً ورجالاً، شاباتٍ وشبّاناً، بالإضافة إلى الوافدين من القرى المجاورة، ومن مضارب الرّعاة المنتشرة في السهوب الغربيّة من المدينة. إنَّه أهمّ أعياد بلاد الشرق القديم.

قبل موعد الاحتفال بيوم واحدٍ، عاد شوناترا مُصطحباً معه الناسك إيتاكاما. كانتْ فرحة الملكة ننسون كبيرةً، يتخلّلها شعورٌ بأنّ أصدقاء جُدداً، يقفون معها لتدعيم سلطتها الملكيّة، إلاّ أنّها أخفتْ فرحتها وراء انشغالها بالحَدَثِ المقبل الأهمِّ. إعلان جلجامش ملكاً على أوروك، فور انتهائه من ممارسة طقوس الجنس المقدّسة في يوم عيد الخصوبة،.

انطلق الموكب الملكيّ وسْط حشد من الناس، اصطفَّ لمشاهدة الملكة ننسون، وابنها وليِّ العهد، يمشيان على طول الشّارع المستقيم، الذي ينتهي ببناء الزقورة، حيث يجري الحدث الأهمُّ في حياة شعب أوروك، تتقدّمهم جوقةٌ من البنات والشباب ينشدون للإلهة عشتار أناشيد طقسيّة، يحفظونها في ذاكرتهم منذ بضع سنين.

عشتار يا عشتارْ
يا بسمة الأسحارْ
في الليل والنهارْ
نسبّحك عشتارْ!.

نمجّدك يا بذرة الحياةْ
خصيبةً، خصيمةَ الممات
الأرضُ منك تورقُ
والغصْنُ منك يُشرقُ
من ثغركِ الرَّحيم
خصوبةُ الأرحامْ

وصل الموكب الملكيُّ إلى باب الزقّورة، تنحّى المنشدون جانباً، تابعتِ الملكة ووليُّ العهد طريقهما، على الدرج اللولبيِّ الصَّاعدِ إلى الطابق العلويّ، حيثُ الإلهةُ عشتار ممثلةً بالكاهنة الأم إشخارا، تنتظر عريسها دوموزي، ممثلاً بوليّ العهد جلجامش.

تابع المنشدون إنشادهم:
يا بنتَ آنو هلّلي
تيهي صِباً وتدلّلي
جلجامشٌ عريسكِ
ينام في سريركِ
فلتضحكِ النّجومْ
بثغركِ الجميلْ
ولتفرحِ الرياضْ
بخدّكِ الأسيلْ
ما أروعك عشتارْ.
ما أروعك عشتار!!!!.

بعد نصف ساعة خرجتِ الكاهنة الأم أشخارا، ووليُّ العهد جلجامش بأيدٍ متشابكةٍ، أطلّا على الشعب، لوحتِ الكاهنةُ بمنديلٍ أحمرَ، تعبيراً عن نجاح فعل الخصوبة، قابلها الشعب بتصفيقٍ حاد، وهتاف مدوٍّ بحياتها، وحياة جلجامش وليِّ العهد.

تقدّمتْ ننسون، حيّتِ الجماهير، ثمَّ باركتْ جلجامش والكاهنة الأم، بصفتها الإلهيّة، ثمّ باركت للشعب فرحته بالعيد، وسط هدوءٍ صاغٍ، لما ستقوله الملكة في مثل هذه المناسبة.

- قالت: يا شعب أوروك، بمناسبة عيد الخصوبة، أُقدّم لكم وليَّ العهد جلجامش، ملكاً على أوروك، ليجلسَ على كرسيِّ عرش أبيه لوجال بندا، رحمتْه الآلهة. جلجامش صار رجلاً فَحْلاً، قادراً على القيام بأعباء الملك، وقادراً على تمثيل دور الإله دوموزي في عيد الخصوبة، على الرغم من أنّه لم يتجاوز اثني عشر ربيعاً، فالدم الإلهيَّ، الذي يجري في عروقه، أعطاه قدراتٍ إضافيةً، جعلتْه يتفوّق على أقرانه من بني البشر، سترون بأعينكم عن قريب، مهارته في الفروسيّة، والمبارزة في الميدان. سيكون برنامج الاحتفالات خلال أسبوع عيد الخصوبة، على الشكل التالي:

اليوم وهو الأوّل من أيام العيد، تمتّعوا بالحبّ، بالطريقة التي يرغب بها كلّ زوجين عاشقين.

في اليوم الثاني عروض الفروسيّة في الميدان، يقوم بها فرسان أوروك بإشراف الفارس شوناترا.

في اليوم الثالث، فرقة الإنشاد الديني، ستنشد مقاطع عديدة من ملحمة الإيلوما إليش، وستشاهدون مسرحيّة خلق الإنسان، وهي مسرحيةٌ مستوحاة من الإيلوما إليش أيضاً.

في اليوم الرابع. عروض مبارزة، يقوم بها مقاتلو أوروك البواسل. بإشراف الناسك إيتاكاما

في اليوم الخامس. صلوات وابتهالات في معبد عشتار. بنات عشتار أعددْنَ برنامجاً يليق بهذه المناسبة السعيدة، التي ينتظرها شباب أوروك، مرّة كلَّ عام. وسيكون عرس جماعيّ لشبابٍ وبناتٍ من أوروك راغبين وراغباتٍ بالزواج.

في اليوم السادس. حفلاتُ رقصٍ، وألعابٌ ترفيهيّةٌ في معبد الإله إيا، وسيقدّم طلاب معهد الإيدابا نصوصاً مخطوطة، على ألواح فخاريّة تبيّن مهارتهم في الكتابة.

وفي اليوم السابع والأخير. يحتفل شعب أوروك بافتتاح القصر الملكيّ. الجميع مدعوون اليوم، إلى مائدة طعام جماعيّة في معبد الإله شمش.

أشكركم ياشعب أوروك. على حسن إصغائكم، وإيمانكم، وطاعتكم للآلهة، وأطلب منكم أن تعطوا اهتماماً أفضل، لعبادة الإله أنليل، ممثّلاً بالناسك إيتاكاما. والآن أترك الكلام للملك جلجامش.

- تقدّم جلجامش. حيّا الجماهير. هنّأهم بالعيد، ووعدهم بإعلاء مكانة أوروك، بين الممالك المجاورة، كيش و إيكور وأريدو و شورباك. وغيرها، وختم كلامه بقوله: أوروك ستكون درّة بلاد النهرين. أترك الكلام للسيّدة الكاهنة الأمّ إشخارا.

- تقدّمت الكاهنة أشخارا. حيّتِ الجماهير، شكرتِ الإلهة ننسون، والملك جلجامش، ممثل الإله دوموزي في هذا العيد، الذي قام بدوره كأفضل الرّجال في فنّ الإخصاب، ثمّ هنّأتهم بالعيد، وتمنّتْ لهم لحظاتِ خصوبة ممتعة. وختمت كلامها بقولها: بركة الإلهة عشتار، تحلُّ عليكم رجالاً ونساءً.

دخل الملك جلجامش إلى قصره الملكيِّ الجديد، وسْطَ احتفالٍ مَهيب، رتّبتْه الإلهة ننسون. حضره بعضٌ من ملوك الممالك المجاورة، بناءً على دعواتٍ خاصّة. كما حضره كهنة معابد أوروك، وشيوخها. في الديوان الملكيِّ، قدّمت الناسك إيتاكاما كاهناً متقدّماً بين كهنة معبد الإله أنليل.

وقف إيتاكاما أمام الحاضرين: شكر الإلهة ننسون، التي أتاحتْ له فرصة اللقاء بالمدعوين، وأعرب عن أسفه، لأنّ حياته النسكيّة في الغابة، قد أنهاها، تلبيةً لرغبة الإلهة ننسون، الغيورة على مملكتها، الحريصة على خدمة شعبها.

تابع كلامه قائلاً: أنا سعيدٌ بأنْ أكون بينكم، تنتفعون برأيي وحكمتي، وشفاعتي عند الإله أنليل. لقد أفنيتُ ثلاثين عاماً في الغابة، زاهداً في الدنيا، زلْفى لربّي أنليل، بالصوم والصلاة، لنيل بركته ورضاه، ماردت بشريّاً طلب شفاعتي، وما خيّب الإلهُ أنليل رجائي، عشت حياتي على فَضْلةِ أُعْطيات المُؤمنين. كرّر شكره إلى الإلهة ننسون، والملك جلجامش، على ثقتهما به، مؤكّداً على إخلاصه لهما، وطاعتهما ما أطاعا الإله أنليل. صفّق الحاضرون، إعجاباً بفصاحته وحسن بيانه، ماعدا كَهَنَةُ معبد شمش، وإيا وآنو، فقد لاذوا جميعاً بالصَّمت.

بعد الانتهاء من الاحتفالات، التي استمرّتْ أسبوعاً، اتخذ الملك عدّة قرارات، بتوجيه من والدته، أهمها تعيين شوناترا قائداً للجيش، وإيتاكاما مستشاراً ووزيراً أوّل.

أمّا مهمّة تدريب الملك على فنون القتال، فكانتْ مهمّةً غير معلنة، يقوم بها إيتاكاما، في إحدى قاعات القصر الواسعة، بعيداً عن عيون الجميع. سواء

أكانوا من داخل أوروك أم من خارجها، يجب أن يعلم كلُّ مَنْ يرى الملك جلجامش، أنَّ مهارة القتال لديه، هبةٌ من الإله أنليل.

خلال ستة أشهر من التدريب المُكثَّف، قدّم إيتاكاما الملكَ جلجامش إلى الإلهة ننسون، رجلاً كأكمل الرجال، مُصارعاً ومقاتلاً. قال لها: لقد أخذ جلجامشُ الجمالَ منكِ ياسيِّدتي، والحكمةَ من جَدّه الإله إيا، وبُعْدَ النظر من الإله آنو، وبشفاعتي حلّتْ عليه نعمةُ القوَّة العاصفة من الإله أنليل، لن يبزّه فارس في الميدان مقاتلاً، مهما كان ماهراً مُخاتلاً، لقد اجتاز كلّ الاختبارات بنجاح مُذهل. ولكنّه يا مولاتي!. يخبّئ في أعماقه بذرةً من الرَّحمة، أعتقد، أنّه ورثها عن أبيه الملك لوجال بندا. بهذه العبارات الموجزة، قدّم إيتاكاما نتيجة خدماته للإلهة ننسون.

- قالتْ ننسون: الماء تكذّب الغطّاس، غداً سأرى بعينيَّ صِحْةَ ما تقول على أرض ميدان التدريب، سيواجه جلجامش فرسان أوروك بمبارزات فرديَّة، وعلى ضوء النتائج ستكون المكافأة. بلّغ شوناترا رغبتي بحضور المبارزات.

في اليوم التالي، تجمّع حشدٌ كبير من الناس، لمشاهدة عروض المصارعة الحرّة..

في المبارزة الأولى كسر ساعد خصمه منذ الجولة الأولى، أمّا خصمه الثاني، فكان شمتار، أقوى فتيان أوروك. كان شمتار حذراً، يعرف كيف يفلت من بين يدي جلجامش، وكيف يناور. وبحركةٍ رشيقة استطاع أن يقبض خَصْرَ جلجامش من خلفه. لكن جلجامش، تمكّن من قبض رأسه بكلتا يديه، ومن ثمَّ فتل رأسه بقوَّةٍ ومهارة، فكسر عظام عنقه، ارتخى جسد شمتار، فتركه جلجامش، فوقع على الأرض جثّة هامدة.

راح جلجامش يتأمله بحَيرة وذهولٍ، فاق منهما على أصوات متعالية من الطرف الآخر، تعبّرعن إعجاب أصحابها بقوّة الملك، وأخرى تردّد: يحيا الملك، يحيا جلجامش سيّد الرجال. ترك جلجامش الرجل مُمدّداً على الأرض، وفي صدره حسرةٌ هائمة شاردة. وفي عينه دمعةٌ مائرة غائمة. تقدّم منه إيتاكاما مُهنئاً ومُشجِّعاً، ولكنّ جلجامش قابله بقلب حزين وقال: علَّمتَني أن أكون قاتلاً لأعداء أوروك، لا لأبنائها. فردَّ إيتاكاما بهدوء: مولاي الملك!. عاصفة أنليل، عندما تهبُّ، تدمّر كلّ ما يقف أمامها، هي لا تنظر إلى الوراء أبداً، ولا تهتمُّ

بالدمار الذي تحدثه. اذكر دائماً، أن روح أنليل المدمّرة، ترافقك في ميادين القتال، فكنْ مثلَها، أنت من الآلهة، والآلهة لا تُسْألُ عن نتائج أفعالها، لأنَّ في أفعالها حكمةً، وفيها دروسٌ للبشر. سعادتي بفوزك على أقرانك لا توصف، شاركني سعادتي يا مولاي. والدتك بانتظارك أيضاً.

سارا معاً إلى حيث تجلس ننسون. كان الفرح يغمر وجهها، والغرور يعقد على جبينها هالات الفخر بولدها، الذي غدا رجلاً، تنحني له الرجالُ مهابةً وخوفاً. انحنى أمامها، قبّل يدها، قبلتْ جبينه، ولكنّ سحابة الأسى بقيتْ تجلّل وجهه، كيفّما تحرّك.

تقدّم منه شوناترا: سائلاً:

- ما لي أراك حزيناً يا مولاي!؟. ألستَ مستعداً للمبارزة بالسيف؟.

- بلى، ولكنَّ ضميري، يُؤنّبني يا شوناترا. ماكان عليَّ أن أقتل شمتار. كان مقاتلاً شجاعاً، يهابه الأعداء في يوم البلاء. أنا أحبُّ الأقوياء الشجعان يا شوناترا!.

- هذه إرادة السّماء يا مولاي. نمتار جاء من العالم السّفليّ، ليقبض روحه، هو لا يعود إلى العالم السّفلي خاويَ الوفاض. سيموتُ شمتار، إمّا بيدك أو بيد غيرك، تتعدّد الأسباب والموت واحد. لقد اختارتْ له الآلهة ميتةً مُشرِّفةً على يديك، واختارتك الآلهة أيضاً، لتكون ظلّاً لهيبتها على الأرض يا مولايَ. هل نتابع العمل الذي جاءت الإلهة ننسون من أجله؟.

- نعم. ولكن دون دماء. يكفي نمتار فخراً بما أخذه من أوروك في هذا اليوم، شمتار كان من أكمل الرجال.

- فليكن ما تريد يا مولاي!.

كانت المبارزات وديّة أظهر فيها المُتبارزون مهاراتٍ جيدةً. وكان جلجامش أمهرَهم، فقد استطاع إزاحة الفرسان الكماة عن ظهور جيادهم، كما تفوّق عليهم في المواجهة راجلين.

الفصل الخامس

عاد جلجامش إلى قصره الملكيِّ، ليجلسَ على عرش أبيه، ملكاً كأعظم الملوك، هيبةً وجلالاً، بعد أنْ أثبت، أنَّه أكملُ الرجال فحولةً وشجاعةً وشدَّةَ بأسٍ في المصارعة، وفي مهارات فنون النزال والطِّعان. ولكنَّ المُلْكَ، لا تُرسيه قوّةُ الأبدان فقط ، كما قالتْ له أمُّه، بل يحتاج إلى الحكمةِ وحسنِ التدبير، والجرأة في التقرير، وأن يكونَ في اختيارالأعوان بصيراً. وعلى محاورة المُعارضين قديراً.

- قال جلجامش: ومن أين أبدأُ مامي؟.
- قالت: ابدأْ باختيار الأعوان.
- قال: سأختار إيتاكاما وزيراً، وأنمركار مستشاراً، وشوناترا قائداً للجيش.
- حسناً تفعل بُني!. انهضْ إلى تدبير ملكك، وخذْ مكانَك في ديوانك، بينَ أعوانك.

جلس جلجامش على كرسيِّ ملكه. قال لوزيره إيتاكاما، ومستشاره أنمركار: من أينَ يبدأ الملكُ، لتأسيس مُلْكٍ لم يُعرَفْ له مثيلٌ، لتكونَ هيبتُه على ملوك الأرض خيرَ دليل.

- قال أنمركار: الناس في ضائقةٍ يا مولاي!. الفقراءُ يزدادون عدداً وفقراً، والأغنياءُ يزدادون غنىً، ويقلّون عدداً. المقاربةُ بين الثروات، تقوِّي أواصرَ العلاقاتِ الاجتماعيّة، وتؤلّفُ القلوب وتوّحّد الطاقات، والتفاوتُ فيها، يباعدُ الأخَ عن أخيه، وعن جاره وحميه، أرى أن يهتمَّ الملكُ بالفقراء، فيأخذُ من القويّ، ويُعطي الضعيف.

- قال جلجامش موجّهاً الكلام إلى إيتاكاما: ما رأيُ الوزير بمقالةِ المستشار؟.

- أدامتِ الآلهة عزّ مولاي، ما نطقَ المستشارُ إلاّ بالحقِّ، إلاّ أنَّ للرعيّة حقوقاً كثيرةً، وبين تلك الحقوق أولوياتٌ، هي بالتقديم جديرةٌ، ومن خلال ما رأيت، أنَّ الجيشَ ضعيفٌ، قليلُ العدد، رقيقُ العُدّة، وأوروك في وهادٍ خضراءَ شجراءَ، خيرُها كثير، ودرُّها وفير، والخير والدّرُّ مَجْلَبةٌ لطمع الطامعين، وبغيةُ المغامرين من الحكام المجاورين، ولّما كانت ثروةُ الأغنياء مجلبةٌ للبلاء، فمن واجبهم، أن يساهموا في بناء جيشٍ يحمي أموالَهم، ويحفظُ نعمتَهم.

أمّا الفقراءُ، فلهم ما تجودُ به المعابدُ عليهم. وفي أوروك معابدُ كثيرةٌ، وأوقافُها دريرةٌ، المائدةُ الجماعيّة التي تقدِّمُها المعابدُ للفقراء، تسدُّ الرّمقَ وتضع طاعتهم في النفق. أمّا الأغنياءُ، فطاعتُهم لمن يحمي ثروتَهم، ويضمنُ عيشَهم الرغيدَ، وهذا ما سيقوم به الجيش القويُّ العنيد.

- قال الملك: صدقتَ القول يا إيتاكاما. نادوا على قائد الجيش شوناترا.

دخل شوناترا، مَثُل بين يديْ الملك، قال: أمرك مولاي!.

- قال الملك: نريدُ منك تقريراً مُفصَّلاً عن جيش أوروك، عدد أفراده، عتاده.

- يا مولاي!. الجيشُ ضعيفٌ، وعتادُه خفيفٌ، ولا يقوى على نزالٍ عنيف.

- ماذا ترى لإعادة بنائه، وتقوية فتيانه!؟.

- مولاي!. أوروك، تحتاجُ إلى خمسة آلاف مقاتلٍ، للدفاع عنها، إن تعرَّضَتْ إلى غزو طامعٍ من أصحابِ المعامع.

- قال أنمركار: الجيشُ يحتاج إلى سلاح.

- قال إيتاكاما: شراءُ السَّلاح من عيلامَ وأنشانَ مُكلفٌ، ولمالِ الخزينة مُتلف، فهو يحتاج إلى مالٍ كثير.

- قال جلجامش: في أوروك حدّادون، فلماذا لا نبني لهم مَصنعاً، يُصنِّعُون فيه ما يحتاجه الجيش من عتادٍ وسلاح!؟.

- قال شوناترا: نِعْمِ الرأيُ يا مولاي!.

- احضروا شيخَ الكار وشيخ التجّار.

- دخل شيخا الكار والتجَّار.

سجدا أمام الملك، قالا: جئنا طائعَين ولك سامعَين يا مولانا الملك!.

- ما طلبتكما، إلاّ لأسمع منكما رأيكما، في إمكانيّة بناء مصنعٍ للسِّلاح في أوروك، يسدُّ حاجة جيشِ البلاد من العتاد.

- قال شيخ الكار: في أوروك ثلاثةُ حدّادين، خِبرتُهم ضعيفةٌ في مهنة الحدادة، ولكنَّني أعرف حداداً ماهراً، في قريةٍ قريبةٍ اسمها زيبارا، يمكنُني استخدامُه في مشروع المصنع، فإذا تمّ ذلك، أضمن لك نجاحَ المشروع.

- قال إيتاكاما: سأتولّى أمر إحضاره، سأغريه بالمال، فإذا أبى هدّدتُه بغضب الإله أنليل.

- قال الملك: وأنت يا شيخ التجَّار!. عليك بتدبير حاجة المصنع من الحديد بأرخص الأسعار.

- قال شيخُ التجَّار: أمر مولاي! مُطاع، وسأبذلُ كلَّ جُهْدٍ مُستطاعْ. حديدُ عيلام، لا يعلو عليه كلام.

- قال الملك: يا شيخَي التجّار والكار!، ادرسا تفاصيل المشروع، مع الوزير إيتاكاما، إنَّه بصناعة السلاح ضالعٌ وباستخدامه بارعٌ. كلمةُ الفصل بين شفتيه، وليكنِ المصنعُ على اسم الإله أنليل. يمكنكما الانصرافُ الآن.

توجّه الملك إلى إيتاكاما بالقول: التنفيذ بعهدتك، وخلال أشهرٍ قلائلَ، يجب أن أرى بضاعتك.

- قال المُستشار أنمركار: مولاي!. أوروك عددُ أفرادها ليس بكثير، ولا تستطيعُ تجنيدَ أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا العددُ، لا يكفي للدفاع عنها، أريد أن أسمع رأي قائد الجيش شوناترا.

- قال شوناترا: هذا ما أجهله، إذن! ليس أمامنا إلا تحصينُ المدينة بالأسوار وبناءِ الأبراج، وحفر الخنادق، لتكون لها كالسياج المانع.

- قال الملك: نِعْمَ الرأيُ يا شوناترا!. سورُ المدينة ترابيٌّ قليلُ الارتفاع، لا يأبه باقتحامه ذوو الأطماع، أريد بناءَ سورٍ لأوروك، لم يشهدِ الناسُ له مثيلاً ، قاعدتُه عشْرةُ أذرعٍ وقمتُه خمسةٌ، وارتفاعه عشرون ذراعاً، وليكنْ بناؤه بالآجر المشويّ بالنار، حتى إذا رآه القادمون إلى أوروك، حسبوه من النحاس الأحمر. له أربعةُ أبوابٍ، الأوّلُ بابُ الإله شمش من الشرق، والثاني بابُ الإله آنو من الشمال، والثالثُ بابُ الإله أنليل من الغرب، والرابع بابُ الإله إيا من الجنوب. وبعد الانتهاء من بناء السّور سنحفر خندقاً حوله، نملؤه بالماء، من قناةٍ نجرُّها إليه من نهر الفرات.

- قال شوناترا: بوجود مثل هذا السور، ألفا مقاتلٍ، يردّون عن المدينة أيَّ غازٍ طامع. إذا تمَّ تحصينُ الأبواب، كلُّ بابٍ ببرجين دفاعيين، أحدهما عن يمين الباب، والآخر عن يساره، هذه الأبراج تساعد الحرس على القيام بمهامهم خلالَ السِّلم، فتكون لهم مُستراحاً، وفي الحرب تكونُ درعاً نطّاحاً.

- قال الملك: ناقشْ هذه التفصيلات مع المهندس عاميرو، أنت من سيتولّى الإشراف عليه، افعل كلَّ ماتراه لازماً، لإنجاز المشروع بأقصر وقت، ولتكنْ أوامرُك وتعليماتُك باسم الملك.

- قال المستشار أنمركار: جَمَلُ الأوقار، لا يمشي إلاّ إذا لوّحتَ له بالدينار. أرى أن يرسل مولاي الملك وراء قيِّمِ بيت المال، الشيخِ كابار.

- قال الملك: أرسل في طلبه يا إيتاكاما!. وادرسا تفاصيل المشروعين بحضور المهندس عاميرو، والمحاسب إشماريا، ثمّ وافني بتقرير واضحٍ ومفصّلٍ، عمّا توصلّتم إليه.

في الجلسة الأولى، أظهر الملك مواهبَه القياديّة، كحاكم تمرّس في الحكم لسنين عديدة. غادر قاعة الاجتماع، تاركاً وراءه انطباعاً أدهش المستشار والوزير وقائد الجيش.

- قال أنمركار: المجد للملك، إنّه من الآلهة، خَبِر كلَّ شيء، وعرف كلَّ شيء، بصير بالأسرار، كرجلٍ مُوغل في الأسفار، أرأيتُم الثِّقة في عينيه، وهو يقرر ويعطي الأوامر من شفتيه؟. لن أشكَّ بعد الآن، بأنّ جَدَّه إيا إلهَ الحكمة يُوحي إليه بما ينطق من كلامٍ يخلبُ الألباب. يجب أن يعرف أهل أوروك حقيقةَ ملكهم الجديد.

- قال إيتاكاما: لقد وضع بين أيدينا مشروعين، يحتاجان عملاً دؤوباً، ويحتاجان أيضاً إلى رعاية الآلهة ودعمها.

- قال شوناترا: اعتمدوا على طاقات الملك. خَبِرْتُه خلال عامٍ كامل مضى. هو دائب النشاط، موفور الحيويّة، متوقّد الذِّهن، لا يعرف الكللَ، ولا الملَلَ، باركتْه الآلهة، فأودعتْ فيه سرّها، يملك قدرة عشْرةِ رجال أقوياء، ولديه خبرةُ الحكماء.

- قال إيتاكاما: أشاطرك الرأيَ يا صهري!. لقد وهبتْه الآلهة بعضَ صفاتها. وتركتْ بعضها البشريّ فيه، لكيلا ينسى أنّه دون الآلهة.

توجّه الملك جلجامش إلى مَخْدع نيكال، فوجدها غائبة عنه، سأل إحدى الوصيفات. فقالت: طلبتْها الكاهنةُ الأمّ أشخارا، ولمّا تعُدْ.

انتظر عودتها حتّى المساء، ولكن دون فائدة. لم تعدْ نيكال، ولم يعدْ قادراً على الاحتمال، أرسل في طلبها، فعاد الرسول برسالة شفهيّة من الكاهنة الأمّ، تقول: بأنّها تدعوه لزيارتها غداً، في الساعة العاشرة صباحاً.

جلس وحيداً، راح يملأ خَلْوته بخواطرَ من هنا وهناك، بعد أنْ كانت تملؤها نيكال، بكلّ ما يبهج النفس، ويُمْتِع الحِسّ، ويبعد البلبال. قطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، فتح الباب، مشى في الممرّ الطويل بخطواتٍ مضطربةٍ لاهثة، كمن يُطارِدُ رغبة تجري أمامه، صعد الدرج المؤدّي إلى صومعة أمّه في الطابق العلويِّ، قرع البابَ بيدٍ مضطربة، عكستْ دقّاتُ بابِ الصومعة صدى اضطرابِ نفسه. فُتِح الباب بعد انتظار حسبه طويلاً، قالت الإلهة ننسون: مالك!؟. لِمَ أراك مضطرباً!؟. أبسبب أعباء الملك!؟. هل من عقباتٍ تواجهُك؟.

- أجاب باقتضابٍ شديد: بل بسبب غياب نيكال، تعوّدتُ عليها، لم أعد أقوى على غيابها.

- انتهتْ مهمَّتُها بُنيّ!. نيكال من بنات الإلهة عشتار، منذورةٌ للمعبد منذ أنْ كانت في بطن أمّها، يجب أن تعود إلى المعبد، خُلِقَتْ لتكون هناك، لا هنا، هذه إرادة الآلهة، اقضِ ليلتك اليوم مع إحدى وصيفاتي، وفي الغد سأبحثُ لك عن زوجة، تعيش معك، لتخصب رحمها بالخلفة المباركة.

- ليتني أستطيع يا أمّاه!. نيكالُ مختلفةٌ عن غيرها من النساء.

- وكم عرفت من النساء، لتعطي هذا الحكم!؟، كلُّ النساء سواء. لا تنسَ أنّك ملك أوروك، ولا يجوزُ أن ترهَنَ قلبَك لأنثى بعينها، ولاسيَّما أنت الآن في ذروة قوتِك الجنسيّة. كلُّ قِواك الجسميّة، بما فيها الجنسيّة هبةٌ من الآلهة، حدّثتني نيكال عنها بإسهاب، ومن الخطأ أن تحصرها في امرأةٍ واحدة. اذهب إلى مخدعك، أرسل في طلب الوصيفةِ شاميرا، هي موفورةُ الجمال والأنوثة. اقضِ وطرَك منها هذه الليلة.

عاد جلجامش إلى مخدعه، لم يستطعْ إبعادَ طيفِ نيكال، كلُّ شبر في المخدع، يحمل مشهداً مُمتعاً، نسجتْه نيكالُ بأصابعِ أنوثتِها الخبيرة. لعنَ في سِرّه الرَّهبنة التي حرمتْه من نيكال. رفضَ فكرةَ الحرمان منها، قال لنفسه: في

الصباح رباح، قد تتراجعُ الكاهنةُ أشخارا عن قرارها، فتزوّجني من نيكال، لنعيشَ معاً زوجين في هناءٍ وصفاء. وضع رأسه على وسادة الأحلام، ترك الرجاءَ والنعاسَ يتراقصان، على أنغام زفراته المُتْعَبةِ الهائمةِ حول طيف نيكال، حتّى لمّ النعاسُ بكفّه السحريِّة زفراتِه، فسلّمه إلى نومٍ مشرَّدٍ مضطرب.

استيقظ على عادته، مع زقزقة العصافير صباحاً. نهض من فراشه، جرَّ قدميه بتثاقل نحو الباب، فتحه ببطءٍ، فوجد شاميرا تجلس أمامه، نهضتْ من مقعدها، تقدّمتْ منه بدلالٍ حذر، قالت له: هل من خدمةٍ أقدّمها لمولاي الملك، قال: لا. سأخلو بنفسي في حديقة القصر، سار في الحديقة على غير هدىً، وصل إلى مكان ظليلٍ، يحمل عبقَ نيكال، جلس فيه، وراح يستعرض شريط الذاكرة النديّ، الذي كتبتْه الأيامُ مع نيكال بحروف الماضي البهيِّ، كان شريطاً لا يتجاوز طولُه الزمنيُّ عاماً، ومع ذلك كان مُترعاً بالذكريات المُمتعة، التي اختزلتْ حياته كلّها. مرّتِ الساعاتُ الراحلةُ إلى موعد اللقاء بأشخارا مُثقلةً عابرةً على جسر الرَّجاء. على إيقاع خطواتِ حُلمٍ، رسمه خيال جلجامش النَشِط.

في الساعة العاشرة تماماً كانت قدما الملك العاشقِ تقفُ أمام معبد عشتار. كلُّ من رأى الملك في تلك السَّاعة، اعتقد أنَّ الملك جاء لأداء واجب الطاعة للإلهة عشتار، أو لنيل بركتها بتواضع الملوك الحكماء.

دخل إلى بهوِ الاستقبال، كانت الكاهنةُ أشخارا بانتظاره أمام الباب، رحّبتْ بالملك أحسنِ ترحيبٍ، جلسا معاً وحيدين في قاعة خاصَّةٍ، تليقُ بملك أوروك الشابِ الوسيم.

حلاوة الاستقبال، شجّعتْ جلجامش، على أنْ يطرق الموضوع الذي جاء من أجله مباشرة. قال بوضوح: أيَّتُها الكاهنةُ الأمّ!. ما اعتقدتُ يوماً، بأنّ الأمَّ أشخارا، ستضنُّ عليّ بفتاة من فتيات المعبد، ولاسيَّما الفتاةُ الأولى التي دخل حبُّها إلى قلبي المُتصابي للحياة، كان قلبي قبل نيكال صفحةً بيضاءَ، وعندما دخلتْ إليه، رسمتْ بمهارة عليه لوحاتٍ من العشق العشتاريِّ الذي لن تمحوَه الأيّامُ، لماذا نسلْتِ منّي حلميَ الأحلى والأبهى والأجمل؟.

أيَّتُها الأمُّ الحنون!؟. كانت نيكال تجدّد لي ذلك الحلمَ كلَّ يوم، فأحببتُ.الحياة بروضةٍ من رياض الإلهة عشتار، اسمها نيكال. نيكال أيَّتُها الأمُّ المباركة!. روضةُ أنوثةٍ فوّاحةٍ بالعطاء، حَبَتْها الآلهةُ، كلَّ صفات المرأة الكاملة.

- قالت الكاهنة بهدوء: ما ذكرتُه من صفات، رأتْه الآلهةُ، بصورةٍ أفضلَ مما رأيتَه أيُّها الملك!، لذلك أسبغتْ عليها نعمتَها، فحلّتْ عليها نعمةُ الإلهةِ عشتار منذ أسبوعٍ، فصارت كاهنةً من المرتبة الثانية، والكاهنةُ مكانُها المعبدُ لا البيتُ، وإذا تزوّجتْ، فسوف تتزوّجُ كاهناً لا ملكاً!.

- ولكنّي أحبُّها وهي تحبّني!. كلانا راغبٌ بالآخر!.

- لا وجودَ لرغبتيكما أمامَ رغبة الآلهة. الآلهة تقرِّرُ، والبشر ينفذون. لقد وضعتُني نيكال بتفاصيل علاقتكما، وأنا مشفقةٌ عليكما، ولكنْ لا معصيةَ لإرادة الآلهة. أمامَك نساءُ أوروك، كلُّهنَّ طوعُ يديك، تختار أيّاً منهنَّ، متى تريدُ. أنت أوّل ملك لأوروك، ثلثا صفاته إلهيّةٌ، وصفاتُك هذه، تعطيك الحقّ بمضاجعتهنّ، والإلهة عشتار تفرض عليك أيضاً، أن تعطي بركتَكَ الإلهيّة لهنَّ، هذه البركة يجبُ أنْ تحلَّ على أرحام العذارى في أوّل يوم من زفافهنّ أيضاً، يجب أن تفضّ بكارةَ العروسِ قبل عريسها، هذه إرادة الإلهة عشتار، ولسوف أبلّغُ المؤمنين والمؤمناتِ إرادتها.

أمّا حبُّكما أنت ونيكال، فأنا أشفقُ عليكما، وسأمنحكما فرصة لقاء واحدة كلّ عام، في يوم عيد الخصوبة، سأتخلّى عن دوري مُمثلةً للإلهةِ عشتار، إلى نيكال، بصفتها كاهنة تخدم في المعبد.

- طالما حلمتُ بها زوجةً، أخصبُ رحمها بالأولاد، أولادٍ كثيرين يملؤون فناء القصر حركة وصراخاً.

- يمكنك إخصابُ رحمها في يوم عيد الخصوبة، فإن استجابتْ الإلهة عشتار لرغبتكما، فأولادكما، سيحملون صفاتٍ إلهيّة، وسيحكمون أوروك من بعدك.

عاد الملك جلجامش بعربةٍ ملكيّةٍ، قدّمتْها الكاهنة إشخارا له، بمناسبة جلوسه على العرش، قالت له: هذه هديَّة معبد عشتار. لتكنْ ذكرى من إشخارا، خليفةِ الإلهة عشتار على الأرض، إلى الملك جلجامش، سوف أقف إلى جانبك في حكم أوروك، مادمتَ تعطفُ على بنات عشتار. تذكّرْ دوماً أنّ حبيبتك نيكال، تعيشُ بينهنَّ.

كانت العبارةُ الأخيرةُ التي نطقتْ بها أشخارا، تلميحاً قلقاً عن منافسة معبد أنليل لمعبد عشتار في اهتماماتِ الملك.

نقل جلجامشُ إلى أمّه الإلهة ننسون، ما دار بينه وبين الكاهنة أشخارا، فقالتْ: أعتقدُ أنّ صراعاً سيحدثُ بين كهنة المعابد على كسب ودّك، وهذا من حُسن حظّك. فعليك أن تحرص على الموازنة بينهم في الظاهر. أمّا في أعماقكَ، فلتكنِ المساحةُ الأكبر للإله شمش. الإله شمش يرسل نوره على الأخيار والأشرار، واسعُ الرحمة، لا يعرفُ النَّقمة، طويلُ الأناة. عليٌّ قدير، للكون مدير، وهو أقرب الآلهة إلى الإله إيا، إله الحكمة.

أمّا أنت يا بُنيّ! فكنْ مِقداماً هُماماً، قليلَ المَقال، كثيرَ الفِعال. أمّا زواجك، فما زال الوقتُ مبكّراً، وكما قالتْ لك الكاهنةُ أشخارا: أنت من الآلهة، ونساءُ أوروك ملكُ يمينك، أنا سأرتّب برنامجاً خاصّاً لهنّ، وستحظى في كلّ ليلة بواحدة منهنّ. كلُّهنّ نساء.

يجب العملُ على تأسيس مجلسِ كهنة، مهمَّتُه إرشادُ الملك، وتقديمُ النصح والمشورة له، أعضاؤه رؤساءُ كهنة معابد أوروك. وأنت واحدٌ منهم بصفتِك سيّدِ قولاب، وملكِ أوروك أمّا رئاسةُ المجلس، فستكونُ لي، لكوني أرفعَهم رتبةً في الكهنوت.

علمتُ أنّك قرّرتَ بناءَ سورٍ لأوروك، ومصنعٍ للسِّلاح. المشروعان رائدان على طريق مَنَعَةِ أوروك، فامضِ بهما، وكنْ مشرفاً على المشروعين من بعيد، ولكن يجب أن تتدخّل كلّما وجب التدخُّل. لا تمنحْ ثقتك كاملةً لأحد. امضِ إلى تدبير مُلكك. وسأمنحك بركتي، وشفاعتي عند الآلهة السبعِ الكبار.

غادر جلجامش صومعة أمّه، شعر للمرّةِ الأولى، بأنَّ القيام بأعباء الملك مسؤوليةٌ، وليس جلوساً على كرسيِّ العرش وحسب. توجّه إلى الديوان الملكيّ، وجد المستشارَ أنمركار، والوزيرَ إيتاكاما، والقائدَ شوناترا، قد سبقوه إليه. وقفوا جميعاً احتراماً له.

جلس على كرسيّ الملك، وضع التاج على رأسه. أمرهم بالجلوس. قال: أسمعوني ماعندكم.

- قال إيتاكاما: مولاي الملك! ناقشنا بناء السّور مع المهندس عاميرو، فقدّم لنا بعض النصائح. رأى عاميرو أن يكون السّور دائريّاً حول المدينة، وأن يُبنى درجٌ للصعود إليه. وآخر للنزول عنه، وليكنِ الدرجُ قليلَ الميل، بحيث يصعد إليه المقاتلُ راجلاً أو فارساً. أمّا المواصفات الأخرى، التي ذكرتَها البارحة، فستكونُ

مكلفةً، ويحتاج إنجازُها إلى زمنٍ طويلٍ. وهذا بدوره، يتوقّف على عدد العاملين. ووفرة المال بالخزينة، وعندما سألنا قيّمَ بيتِ المال، قال: الكلفةُ أكبر من قدرة الصندوق بكثير. ولك القرار مولاي الملك.

- قال الملك: حسناً أيّها الوزيرُ. أمّا أنت يا شوناترا!. فإلامَ توصّلت مع شيخ الكار وشيخ التجّار؟.

- قال شوناترا: كلُّ شيءٍ يسير سيراً حسناً يا مولاي. المعمل سيُبنى خلالَ شهرٍ أو شهرين، بمساعدةٍ من كهنة معبد أنليل، وعشرةٍ متطوعين من الجنود، والحديدُ تعهّد بإحضاره شيخُ التجَّار من عيلام.

- قال الملك: يجب أن يعلم شعبُ أوروك، بأنَّ السّور هبةُ الأمان للفقراء والأغنياء، على حدٍّ سواء، هو حارسُ العيال والأموال، وعلى كلِّ فردٍ في أوروك المساهمةُ في العمل، كلٌّ حسب قدرته. ادعُ شيوخَ أوروك وأعيانَها، إلى اجتماع في ساحة القصر الملكيّ غداً.

في اليوم التالي، تحدّث الملك إلى الشّيوخِ والأعيان، بوضوحٍ لا يختلفُ عليه اثنان، فقال: أيُّها السّادةُ!. ما دعوتُكم إلاّ لأقولَ لكم: خَيرُ الملوك من خَيرِالأعوان، وخَيرُ الأعوان من خَير الخاصّة والعامّة، وخيرُ الخاصّة والعامّة، من الأمن والأمان، ولا أمن ولا أمان إلاّ بمَنَعَةِ الوركاء، مدينة الآلهة الأولياء، أمام الأعداء، لذلك قرَّرتُ بناء سور للمدينة، يحمي الأموال والعيال.

من لا يملك شيئاً، لا يخشى شيئاً، الفقراءُ يملكون العيال، وأنتم الأغنياء تملكون المال، وكلّ واحد، يجب أنْ يجود بما لديه، الفقراءُ سيقدّمون العمّال، وأنتم ستقدمون الأموال. سيقوم شنشور تو، جابي الضرائب، منذُ صباح الغد، بجمع المال من الأغنياء، كلٌّ حسب ملكيته ودخله، أمّا القادرون على العمل من الفقراء، فسوف يقسَّمون إلى مجموعتين، الأولى لصنع الطوب، والثانيةِ للحفريات والبناء. مديرُ المشروع، المهندس عاميرو، الجميع سيأتمرون بأمره. ملك أوروك يُخاطبكم بتكليف من الآلهة، ومن واجبنا جميعاً نيلَ رضاها.

كانت خطبةً موجزة بليغةً، خلبتْ ألباب الحضور، وزادتْ من إيمانهم، بأنَّ الملك جلجامش مُلْهَمٌ من الآلهة، لما أبدى من خِبرة في الحكم، على الرغم من حداثة سنّه.

عاد الملك إلى الديوان الملكيّ، أعطى وزيره إيتاكاما، أمراً باستدعاء رؤساء كهنة المعابد الخمسة. أشخارا، وشنشتور، وشامتور، وأدريخي ،وإلْيانا. باسم الإلهة ننسون.

حضر الكهنة الكبار في الوركاء، كممثلين أرضيين للآلهة، ترأستِ الاجتماعَ الإلهةُ ننسون، أشارتْ إلى أنّ فكرة مجلس الآلهة، كانت من الإله آنو إله السماء، خلال اجتماع الأنوناكي، وقد تعهّدتُ له أمام الآلهة، بتشكيله في الوقت المناسب، والآن حان وقتُ تنفيذه.

أمّا مهمّةُ المجلس، فهي تقديم النُّصح للملك، وترويج الدعاية له، ودعم مواقفه، وقراراته أمام شعب أوروك. فالملك جلجامش، هو سيّد قولاب. والدمِ الإلهيّ، يجري في عروقه، نجاحُه في الحكم، نجاحٌ للآلهة، ولا أعتقد أنَّ واحداً منكم، لا يحب رِضا الآلهة. سأترك الكلام للملك، ليحدّثكم عن مشروعاته الطموحة في أوروك.

بدأ الملك حديثه بتقديم الشّكر للإلهة ننسون على رعايتها الاجتماع، ثمَّ قال: أيُّها الكهنةُ الأجلاء!. ممثلو الآلهة الكبار على الأرض، .أشكر حضوركم، وحسن استماعكم لحديث الإلهة ننسون.

أوروك أو الوركاء، كما يسمّيها بعض الناس تحبُّباً، هي مدينة الآلهة، والآلهة تباركُ كلَّ مَنْ يحبُّ جمالَ مدينتها، ويسعى إلى تحصينها ومَنَعتها. لذلك عزمتُ على افتتاح عهدي بحكم أوروك بمشروعين حبّاً بالوركاء، وإرضاء للآلهة. الأوّل سورٌ يجعلُ المدينة آمنةً على الأموال والعيال، لأنّ الأمن يستقطب التجَّار، ورجال الأعمال، فتزدهر الأحوال، والثاني بناءُ جيشٍ قويٍّ، له في نفوس الطامعين حوبةٌ، وفي نفوس الطائعين هيبةٌ، ولا جيشَ قويّاً بلاَ سلاح، والسلاح في الأسواق غاليَ الثمن عند المِحَن، فلنصنعِ السلاح بأيدينا، وعند المحن يكفينا، فيصير لنا عزوة، وفي عيون الأعداء سطوة، فيحترمنا الصديق ويخافنا العدوّ. وما زاد عن الحاجة، يُباعُ في الأسواق، لمن يرغب بالدفاع عن مدينته، أو يُصدَّرُ للملوك الأصدقاء. هذان المشروعان يحتاجان إلى دعمكم وتأييدكم.

من يرغب بالحديث، أو تقديم مقترحٍ مفيد، فليتفضّلْ.

تكلّم كاهنُ معبد أنليل شَنْشَتور. شكر الإلهةَ ننسون، وشكر الملكَ أيضاً، بارك المشروعين، ووضع إمكانات معبد أنليل تحت تصرُّف الملك. وحذا حذوه بقيّةُ الكهنة.

بعد أسبوعٍ من الاجتماع، بدأ المهندس عاميرو، والوزير إيتاكاما، العملَ ببناء السُّور، حسب توجيهات الملك، ووِفْقَ المقاسات التي أرادها المهندس عميرو. في بداية العمل، كان نشاطُ العمال وفيراً، وخوفُهم من الآلهة نذيراً، ولكنَّ حماسَهم مع تقدّم الأيّام، بات يضعف، مما حدا بالملك إلى التدخل المباشر، لحثِّ العمال على العمل، فاستنفر الناسَ بقرع الطبول كلَّ صباح، وقسا على المتخلِّفين والمتقاعسين، فجلدهم بالسياط، فسَلسَتْ قيادتُهم، وارتفعتْ وتيرةُ عملِهم. وراح يُشرف بنفسه على مجرى العمل، منذ الصباح، وحتّى المساء.

ولم يهملْ تدريب الجيش على القتال، بل كان يقوم بتدريبه بنفسه، يبارز الجند، ومن لا يظهر مهارة في القتال، يقيم عليه الحدَّ.

كان في أعماقه يُخبّئ رغبةً بأن يرى له نِدّاً بين جنده مهارةً وقوّةً، ولكنْ هيهات هيهات. كلُّ الذين نازلهم نالوا الهزيمةَ والخذلان، حتّى شوناترا قائدُ الجيش، كان يخشى مبارزته. الوحيد الذي بقي يبارزه في ساحة الميدان، مدرّبُه إيتاكاما، ولكن إلى حين، فما إنْ بلغ جلجامش الخامسةَ عشْرةَ من العمر، حتّى تفوّق التلميذ على أستاذه، وصار هو الآخر يتحاشى نزاله.

في هذه السّن بلغ طولُ جلجامش تسعةَ أذرعٍ، وعرضُ منكبيه ستةَ أشبارٍ.فأصبح أكملَ الرجال في بلاد أوروك، وأقواهم جسداً، وأشجعَهم قلباً، وأوفرَهم نشاطاً، وأدأبَهم حركةً. لا يهدأ، من الصباح إلى المساء.

بعد شهرين بدأ الحدَّادون في أوروك، بانتاج السيوفِ والرماح والفؤوس الحربيّة. خلال ستة أشهر، كان لكلّ جنديّ من جنود أوروك سيفُه، وترسُه، وصار كلُّ جنديٍّ في أوروك، يشعر بمعنوياتٍ قتاليَّةٍ عالية.

اطمأنَّ جلجامشُ إلى جيشه المؤلّفِ من ألفي جنديّ. سمّى نفسه قائداً أعلى للجيش، وشوناترا نائباً عنه.

عاد حلم شوناترا بمصاهرة الملك، يلوحُ أمام عينيه نَشِطاً، فابنتُه شامات، بلغتِ الثانيةَ عشرةَ من عمرها، وصارتْ في سنّ تؤهّلُها للزواج، ولكنْ كيف السبيلُ إلى قلب الملك المعلَّقِ بهوى نيكال؟. لم يكنْ أمامه إلاّ حموه الوزيرُ أيتاكاما، الذي نجحتْ مساعيه في الماضي مع أشخارا، فأبعد نيكال عن طريق حفيدته شامات، ولكنّه فشل في تمهيد الطريق أمامها إلى قلب الملك. فالملك العاشق لأنوثة نيكال الناضجة، لم يرغب بشامات الغرّة بفن المتعة والإغواء، تلك

المُتعةُ التي فقدها بغياب نيكال، فراح يطلبُها من نساء الوركاء الجميلات الناضجات الخبيرات دون جدوى.

في إحدى زياراته لوالدته، التقى بأنات زوجة شوناترا، زائرةً تطلب بركة الإلهة ننسون لابنتها شامات، كمحاولة من محاولات الأمّ، للتقريب بين ابنتها وبين الملك جلجامش.

كان اللقاء وديّاً مع أنات، تذاكرا فيه معاً أيام الغابة، وما حملته تلك الأيّامُ من ذكرياتٍ هنيّةٍ.هادئة، بعيداً عن صخب المدينة. عادت إلى ذاكرته صورةُ اللقاء الأوّل مع أنات، كانت يومذاك، ترتدي لباس الغابة المكوّن من نصيفٍ، يستر وسط جسدها، من السّرّة إلى ما فوق ركبتيها، بدتْ صورتُها تلك في ذاكرته فاتنة، وكأنّه يراها للمرَّة الأولى. قال لنفسه: إنّها فاتنة، ولكنَّ فتنتَها يوم ذاك، لم تكن قادرة على منافسة فتنة نيكال، أمّا اليوم فلم يبقَ أمام فتنتها منافسةٌ، لماذا لا أنال منها، ما أناله من غيرها من النساء؟، لماذا لم تضعْها شاميرا على قائمة المحظيَّات؟، أليستْ أناتُ من نساء أوروك؟. ومضاجعتُها حقٌّ من حقوقي.

رفع رأسه، تأمّلها بعمق وأناة، ثمّ طلب منها الخَلوة، فاعتذرتْ، متعلِّلةً بدورتها الطمثيّة، ورجتْه تأجيل موعد المضاجعة، إلى وقتٍ آخر، تكون فيه مهيّأةً للقيام بواجبها تجاه الملك.

عندما عاد شوناترا إلى البيت، نقلتْ أناتُ إليه رغبةِ الملك بها، فرفض قبول الفكرة قائلاً: شوناترا ليس كغيره من فرسان أوروك، حتّى يقبل ما يقبلونه، من لا يملك شيئاً، لا يخشى على شيء، أيَّنما أضعْ سيفي، تكنْ كرامتي. زوجتي ابنةُ الناسك إيتاكاما، لا تحتاجُ إلى بركة مضاجعة جلجامش. سأناقشُ الموضوع مع والدك، الوزير الأوّل عند الملك جلجامش.

حينما عاد إيتاكاما إلى البيت، شكا شوناترا إليه نزوةَ الملك الراغبةَ بأنات، فشاطره حموه رأيَه، بضرورة انقاذ أنات من براثن ملكٍ لا يشبع من مضاجعة النساء.

- قال شوناترا: ولكن كيف السبيل إلى إبعاده عن أنات.
- قال إيتاكاما: يجب البحثُ عن طريقة، تبعده عنها مؤقتاً، ريثما نتوصّل إلى حلٍّ، يجعل جلجامش ينسى أنات للأبد، . اتركني أفكر. في الصباح رباحٌ،

بعون الإله أنليل سنتوصَّل إلى حلٍّ مناسبٍ. ولكنْ يجب أنْ تعلمَ يا شوناترا، بأنّ جلجامش يرى نفسه إلهاً، له ما للآلهة من سلطاتٍ على البشر، وخاصّةً بعد أن اطمأنّ إلى تفوُّقه على كلِّ الذين حوله في الصراع والقتال. هو يشعر الآن، أنّ كلَّ ما في أوروك ملكٌ له، لا ينازعه فيه منازعٌ، نساؤها رجالُها أطفالُها بناتُها. تضخّمتِ الأنا في داخله كثيراً. تصوّر بأنَّك ستقدّم ابنتك شامات بيديك في يوم عرسِها، ليضاجعَها قبل عريسها، زوجتُك اعتذرتْ عن طلبه بمَكْرٍ، ولكنّها لم ترفضْ، وكلّها أملٌ، بأنْ يجد لها أبوها مخرجاً من مضاجعةٍ لا ترغب بها. ولكنّها قد تضعف في المرّة القادمة، وخاصّة عندما تجِدُ، أنّ زوجَها قائدَ الجيش، وأباها الوزيرَ الأوّل، لم يستطيعا حمايتَها من الملك، لذلك لن أخيّب رجاءَها بي، لقد وصل به جنونُ العظمة إلى درجةٍ، باتَ يعتقد بأنَّه ربٌّ أرضيٌّ، تجب عبادتُه من دون الآلهة، نسيَ من أكون أنا، ونسيَ بأنَّني مَنْ علمتُه فنون القتال، ونسيَ بأنَّكَ مَنْ علمتَه الفروسيَّةَ.

أنا الناسك إيتاكاما، شفيعُ الإله أنليل، أعظم آلهة الأنوناكي، بعد إله السماء آنو، لم يَعُدْ يُقيمُ ليَ وزناً.

حتى كهنةُ المعابد الكبار في أوروك، يشعرون بأنّه لا يقيم لهم وزناً أيضاً، ومجلسُ الكهنة الذي شكّلتْه والدتُه الإلهة ننسون، لا يأخذ بقراراته، ولا يُصغي إلى مقترحاته.

ألا ترى معي يا شوناترا، أنَّ أوروك غابةٌ بشريَّةٌ، يتحكّم بها جلجامش، لأنّه الأقوى بين رجالها، لا أخفيك سِرّاً، بأنّي أخاف مواجهتَه في ساحة القتال، وفي الوقت نفسه أرفض أن أرى أمامي من يتفوّقُ عليّ قوةً ومهارةً، عشتُ حياتي في الغابة، أشعرُ بأنّي الأقوى، أنا سيّدها، لا سلطةَ فوق سلطتي، وكما قال الأوّلون: فَرَسان لا تجتمعان على مَعْلفٍ واحد. العودة إلى مملكتي في الغابة، صارت واجبةً. ولأتركنَّ لجلجامش غابتَه.

الحياة هناك أهدأُ، وأوفرُ كرامةً. الكرامة لا تتجزّأ يا شوناترا!. كيف سأتحمّل طيف ابنتي أنات، بين ذراعي جلجامش، يضاجعُها رغماً عنّي!؟. أو كيف أقبل مَشْهدَ دخوله على حفيدتي شامات، ليفضّ عذريتها يوم عرسها!؟.هل توافقني الرأيَ يا شوناترا؟ أم أنَّ لك رأياً آخر.

- أوافقك الرأي، ولكنَّنا، نحن مَنْ مهّدَ له الطريق، التي يسير عليها الآن، نحن مَنْ شجَّعه، وبرَّر له أفعالَه، حتى صارت سلوكاً له. لقد جنينا على أوروك وعلى أنفسِنا.

- كلامُك صحيحٌ يا شوناترا، ولكنْ على شعبه لا علينا، أنا وأنت لسنا من شعب أوروك، طموحاتُنا في السلطة والجاه، جعلتْنا ننسى بأنَّ صحبةَ السلطان كصُحْبةِ العقرب، والمثل يقول: (قرب العقرب لا تقرب). الطمعُ بالجاه والسلطان، وبمصاهرةِ الملك، دفعتني لارتكاب حماقتين، الأولى، تآمرتُ مع الكاهنة أشخارا، لإبعاد نيكال عن جلجامش، طمعاً بتمهيد الطريق أمام شامات إلى قلب الملك، والثانية، كنت أبرِّرُ له كلَّ حماقاته على أنَّها حقٌّ إلهيٌّ، حتّى هو نفسه صدّق الكذبة، طمعاً منّي ومن أشخارا، بعزله عن شعبه، لنكون خاصّته التي لا غنىً له عنها، وليس هذا فحسب، بل ساهمتُ مع أشخارا، على إيهام النَّاس، بأنّ مضاجعة جلجامش لنساء أوروك، هي إرادةٌ إلهيّة.

- ولكنّي شعرتُ بأنَّ بعضَ أعيان أوروك، يرتاحون عندما يقعُ الاختيار على نسائهم.

- فقط الطامعون بالسلطة والجاه، ولكن هناك مَنْ يرفض هذا السلوك منه، هم يرفعون شكواهم إلى الكهنة، والكهنة ترفعها إلى الآلهة، هم يبحثون عن الخلاص، كما نبحث نحن الآن. أشراف أوروك كئيبون في منازلهم، طُغيانُ جلجامش المُتصابي لا يقف عند حدّ، لا في الليل، ولا في النهار. هسيسُ أنّاتهم بلغتْ مسامع السّماء.

- لماذا لا نقف مع هؤلاء!؟. أليستْ نصرتُهم واجبةً؟.

- بلى، ولكنْ لا مصلحة لنا بذلك، قلتُ لك: لسنا من أوروك، كلُّ عنزةٍ معلَّقةٌ من عرقوبها، لنتركْ مشاكل أهل أوروك إلى شعب أوروك، كهنةُ أوروك، هم أولى بها منّا، إنَّهم يرفعون صلواتِهم إلى الآلهة، لتجدَ لهم حلاً لجبروته وظلمه، يمكنُنا مشاركتَهم الدعاء إلى الإله أنليل، إرضاءً لضميرَينا.

مجمع الآلهة الكبار، سيستجيبُ لأوجاع شعب أوروك المظلوم في يوم ما. الأهمّ هو أنْ تنقذَ شرف زوجتك وابنتك من ملكٍ شهوانيٍّ، لا يرتوي من مضاجعة النساء، حتّى لو ضاجع نساءَ البشر كلّهنَّ، فلن تشبعَ عينه. إنّه مفتون بنيكال، وهو يبحث بين النساء، لعلّه يجد واحدةً شبيهةً بها، تفيضُ شهوةً ومتعةً.

- قال شوناترا: الموت أفضلُ ألفَ مرَّةٍ، من رؤية زوجتي، أو ابنتي بين يديه، أنت أعرف الناس بي يا عمَّاه!. سرقتني الأحلامُ، ولن أسمح لها، بأنْ تجرفني بتيارها، منْ يَهُنْ مرّةً يَسْتمرئِ الإهانة، أنا أكثر حماسةً منكَ للرحيل عن أوروك. افعل ما تراه مناسباً، أنت تأمرُ، وأنا أطيعُ.

- يجب أن نضع في أذني جلجامش، أنّ أناتَ مريضةٌ، نازفةٌ دماً، ريثما نتوصّل إلى طريقةٍ، نخرج بها من أوروك بإرادتنا، بعد أنْ دخلناها بإرادته، وإرادة والدته الإلهة ننسون.

- لقد أحببتُ شعب أوروك، ويعزُّ عليَّ فراقُهم.

- أحببتهم، أم أحببت السلطة والجاه، كقائدٍ للجيش؟.عليك أن تختار، إمّا شرفَك أو سلطانك. إنِ اخترتَ السلطان، فابقَ هنا بمفردك، وأرحلُ أنا بابنتي، وأحفادي إلى غابتي.

- لن أقابل وفاء أنات بالجحود يا عمَّاه، لن تكون أناتُ أكثرَ حرصاً منّي على شرفها.

- أمامنا أسبوعان، يجب أن نصفّي علاقاتِنا الماديَّةَ مع الناس، لِنَسْتَعِنْ على أمورنا بالكتمان، حتّى أمام الأولاد، شامات وأوبارا.

بعد يومين، سأل شوناترا إيتاكاما. متى سنرحل إلى الغابة يا عمّاه!.ألم تتخذْ قرارك بعد؟.

- بلى. سنرحل، ولكن ليس إلى الغابة يا شوناترا، طريقُ الغابة، يعرفُها جلجامش، قد يلحق بنا، إن عرف بأنّنا هربنا من أوروك، خوفاً منه على أنات، سوف يفسّر خروجنا تحدّياً لإرادته، فيقرِّر عندئذٍ اللحاقَ بنا، لينالها عُنوةً، ولا سيِّما أنَّها اعتذرتْ، وما تمنّعتْ، فغوله الجنسيُّ مازال ينتظرُها وليمةً كغيرها من نساء أوروك، أخشى أن تكون المواجهة مع جلجامش في غير صالحنا، أنا خبيرٌ بفنون القتال، جلجامش وحشٌ بشريّ، يصعب التغلُّبُ عليه.

- إلى أين سنخرج إذاً؟.

- ستتوجّه أنت وأنات والأولاد إلى إريدو، بحجّة معالجة أنات من مرضها. ادخلِ اليوم على الملك، أخبرْه برغبتك، واطلب إذناً بالمغادرة، وقابلِ الإلهةَ ننسون، واحصلْ منها على توصيةٍ لكاهن معبد الإله إيا. وبعد شهر من رحيلك، سأطلبُ من جلجامش إذناً، بمغادرة أوروك إلى نيبّور، حيثُ المعبد الرئيس للإله أنليل،

تلبيةً لدعوة من كاهن المعبد، ومن هناك سأطلب إليكم المجيءَ إلى نيبّور، حسب الوقت الذي أراه مناسباً. نيبّور مدينة الإله أنليل، ولا أعتقدُ أنَّ جلجامش يجرؤ على طلبنا فيها. هل وضحتْ لديك الخطة؟.

- نعم. كلّ شيء بات واضحاً يا عمّاه!.

بعد إسبوع غادر شوناترا أوروك، توجّه باتجاه الجنوب، على الطريق المسايرة لمجرى نهر الفرات، أمضوا يومين في أور للاستراحة، ثمّ تابعوا رحلتهم بأجواء خريفيّة ملائمة للسفر. في اليوم الرابع وصلوا إريدو.

إريدو مدينة الإله إيا، تقع على مرتفع من الأرض، تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث، لتجعل منها حصناً مسوّراً بمياه الإله أنكي العذبة، التي جاءت من أعالي الأنهار، بعد مسيرة ساعة فقط، ستغيب المياه العذبة، في الماء المِلْح إلى الأبد،

عندما اكتمل البدرُ، غادر إيتاكاما أوروكَ وحيداً، على الرغم من أنّ جلجامش، حاول إقناعه باصطحاب ثلاثةٍ من الفرسان كمرافقين، يحمونه في الطريق، ويُؤنسون وحدته، كما يؤنس الصديقُ صديقه، وفي نيبّور، يسيرون معه كتابعين. ولكنّ إيتاكاما أبى بقوله: من كان في حِمى الإله أنليل، فلن يحتاج إلى خليل، ولا إلى دليل.

شعر جلجامش بعد رحيل شوناترا وإيتاكاما بفراغ مُضنٍ، لقد كانا يملآن عليه حياته. شكا أمرَه إلى أمّه، فنصحتْه بتعبئة أوقات فراغه، بتدريب الجيش، ومتابعة بناء السّور، أعظم أحلامه، وشجعتْه على اللَّهو مع النساء، وشربِ الخمرة، وأكلِ الخبز، فهما مباركان من الآلهة. قالتْ له: بُنيّ!. الخمرة والنساء، تغسلان قلب الرجل من هموم البلاء.

- قال لنفسه: لا الخمرة، ولا نساء أورك كلّهنَّ، غسلن ذكرى نيكال من قلبي. المرأة الوحيدة التي دعوتُها للمضاجعة، وما نلتُها، هي أنات، قد تكون أنات الدرّة المفقودة التي أبحث عنها؟، عندما تعود فلن تفلتَ من يدي.

لأذهبنّ إلى الإلهة أشخارا، لم أرها بعد أنْ حلّتْ عليها روحُ الإلهة عشتار، فأصبحتْ بنعمتها إلهةً أرضيّة، وحلّتْ نيكالُ محلَّها في المرتبة، صار بإمكاني رؤية نيكال، الحديث إليها، سماع صوتها، ربّما تؤاتيني الفرصة لنوالها، أيُّ شيءٍ من نيكال، يُطفئُ حرقةَ شوقي إليها، ابتسامتُها، صوتُها، رهافةُ خصرها.

توجّه إلى معبد عشتار زائراً ومهنِّئاً، بعد أن أرسل إليها الهدايا والأضاحي، عندما وصل، كانت الإلهة أشخارا في انتظاره، بحث بعينيه عن نيكال، فلم يعثُرْ لها على أثر، أصاخ السمع بأذنيه، لعلّه يسمع صوتَها، ولكنّه لم يفزْ بهسيسٍ منه، قرأتْ أشخارا ما يجول في نفسه من خواطرَ وأفكار. ابتسمتْ بهدوءٍ مُصْطَنع ووقارمُبتَدَع، ثمَّ قالت:

- أرى مولاي الملك، شاردَ اللبِّ، كمن ينقِّبُ بعينيه في الجبِّ، أهي أعباءُ المُلْك، أم يفكّر في أمرٍ ضنك!؟.

- لا هذا، ولا ذاك، الغربةُ يا أشخارا!. المَلِكُ غريبٌ في مملكته، وحيدٌ بين شعبه، لا صديقَ يُواسيه، ولا أخٌ يُداريه.

- عليك بالزواج وإنجاب الأطفال يا مولاي!، مرح الأولاد وضجيجهم في البيت، يخفِّف عنك عناء الملك. ويغنيك عن الرفيق والصديق.

- في عيد الخصوبة.سأخصبُ رحم نيكال، أضع فيه بذرةَ الحياة، أولادي يجب أنْ يخرجوا من بطن نيكال دون سواها.

- قد يكون رحمُها غيرَ مُسْتعدٍ للإخصاب في ذلك اليوم.

- عندئذٍ سأتمرّد على الآلهة، سأخصبُها في يومٍ يكون رحمها مستعدّاً.

- أسمعُ من الملك كلاماً يُغضب الآلهة!.

- مشكلتي بين يديك إلهة أشخارا، هل ترضينَ عنّي إنْ أغضبْتُ الآلهة؟.

- لا. ولكنْ كيف السبيل للحيلولة دونَ إغضابها؟.

- أن ألتقي مع نيكال سرّاً، في أيِّ مكانٍ ترغبين فيه.

- ما تطلبُه غيرُ مُمكنٍ!.لا أسرارَ تَخْفى عن عيون الآلهة!.

جثا على ركبتيه أمامها كعابدٍ، يطلبُ بركةً من كاهنه، وقال:

- أرجوك إلهة أشخارا!. الحبُّ يُذلُّ صاحبَه أحياناً، ويقوده إلى المعصيةِ حيناً آخر، لقد ذلّني حبُّ نيكال، أيَّتُها الإلهةُ الأمّ، اعترف بضعفي أمامه. أرجوك ساعديني. لا تدعيني أعصو الآلهة.

- كيف!؟. نيكال أضحتْ كاهنةً!. ولا تجوز مضاجعتُها إلاّ في يوم عيد الخصوبة، هذه طقوس المعبد. مضاجعتُها في غير هذا اليوم، يُغضب الآلهة، ليس أمامَك سوى الانتظار.

- لم أعد قادراً على الصبر أكثر من ذلك، نيكال بالنسبة لي، أجملُ شيءٍ في الحياة، هي الأنثى الأولى التي علّمتْني فنَّ المُتعة، هي أوَّلُ أنثى دخلتْ إلى حياتي، أنْسَنتْ مشاعري، هذَّبتْ ذكورتي، لقد وجدتُ فيها حنانَ الأمّ، الحنانَ الذي حرمتْني منه والدتي ننسون، غائبةً في صومعتها، غارقةً في مسؤوليات الحكم. وجدتُ في نيكالَ الأختَ الرقيقةَ الرفيقةَ بأخيها، وهو يشبُّ على الطوق، ووجدتُ فيها الأنثى التي تكمِّل حياتي. حرمتني الآلهة من والدي، وأنا في أمسِّ الحاجة إليه، عشتُ طفولةً متشظّيةً، تبحثُ عن الحبّ والأمان والدفء.

سلّمتماني أنتِ ووالدتي إلى نيكال، لترمِّمَ كسراتِ نفسي المتعطّشة لحضنٍ دافئٍ حنون. وسلّمتْني أمّي إلى شوناترا، وإيتاكاما، ليصنعا منّي ملكاً قويّاً مُحارِباً، فكانا ظلاً يلازمني ليلاً ونهاراً، رأيتُ عالمي الخارجيِّ من خلالِهما، كما رأيتُ من خلالِ نيكال عالمي الباطني. غابت نيكال، فغدتْ أعماقي مظلمةً، بحثتُ عنها بين نساء أوروك طويلاً، فلم أجدْها، وعندما غاب شوناترا وإيتاكاما، شعرتُ بأنّ أوروك غابتْ هي الأخرى أيضاً. فجئتُ اليومَ إلى نيكال القريبةِ البعيدة، هي الوحيدةُ التي تربطني بأوروك، نيكالُ وأوروك اثنان في واحدٍ. ليس من الإنصافِ، أنْ تحرمَني الآلهةُ من عالمي الداخليِّ، وكياني الخارجيِّ معاً، فلتتركْ لي بصيصَ أملٍ، أتلمّسُ فيه طريقي. صلّي إلى الآلهة لأجلي، لعلّها ترقُّ لحالي، تعطفُ على ضعفي، أمام نفسي الغارقةِ في بحرِ حُبِّ نيكال.

- عندما حرمتْك الآلهةُ من نيكال، وضعتْ تحت يمينك نساءَ أوروك كلّهنَّ، لتسلوَ عنها، فلماذا لا تُقْنعُ نفسَك بغيرها، اخترْ أيَّةَ فتاةٍ من أوروك، أو أيّةَ أميرةٍ من أميرات الممالك المجاورة، تكنْ بين يديك، زوجةً مطيعةً ولوداً. الآلهةُ خلقتْ نيكال، وخلقتْ غيرها الكثيرات من النساء اللواتي يَفُقْنَها جمالاً وأنوثةً. فالحياةُ لا تنتهي بغياب من نحبُّهم في حياتنا، أنت ملك أوروك، ولأوروك عليك حقوقٌ، يجبُ أنْ تؤدّيَها. الآلهة اختارتْك لهذه المهمّة، فلا تخيّبْ أملَها.

- أقسمُ لو وضعتِ الآلهةُ أمامي نساءَ البشر كافةً في كفّةِ ميزان، ونيكالَ في الكفّة الأخرى، لرجَّحتُ كفّةَ نيكال.

- لم يبق إلاّ القليل على موعد عيد الخصوبة، سأمنحكما يوماً كاملاً، تتمتّعان به، فإن أخصبتَ رحمَها، فسوف أنظرُ في أمركما مع الآلهة. املأْ وقتك

بالصَّيد، والمبارزة، والسِّباق في هذه الأيام. واجباتُ الملك، يجب أنْ تشغلك عن لواعج قلبك العاشق.

- لي رجاءٌ أخير عندك أيّتُها الأمُّ أشخارا!. أن أرى نيكال، هنا أمامَك. ربعَ ساعةٍ فقط، ثمّ أنصرف، ولن أطلبَ مشاهدتَها حتّى يحينَ موعدُ عيدِ الخصوبة،

- سأتركككما وحيدين، ولكنْ حذارِ أن تقوما بما يُغضبُ الآلهة.

- أشكركِ أيَّتُها الأمُّ المباركة.

دخلتْ نيكال، تقدّمتْ من جلجامش بخطاً مُتمهِّلةً، كانتْ نظراتُها هادئة، فيها سكونُ النفس المُترهِّبة، أمام نظرات جلجامش اللاهبة، التي طالما أشعلتْ أنوثتَها ثورةٌ من الأحاسيس الشَّبِقة في عينيّ جلجامش، طالتْ نظراتُ التأمّل دون جدوى، فهشيمُ الأنوثة بلَّلتْه أشخارا بماء الخوفِ، وعباراتِ التحذير من غضب الآلهة. عبارةٌ واحدة نطقتْ بها نيكال، كانتْ بالنسبة إليه، شعاعَ أملٍ في ظلام اليأس:

- تفضّل، اجلس مولاي الملك، ما بعد الصَّبر إلاّ الفرجُ.

أطرقتْ نيكال إلى الأرض، لم تنبثْ ببنت شفةٍ خلال دقائق اللقاء القصيرة، أمّا جلجامش، فراح يتأمّلُها بنظراتٍ لاهبةٍ حزينةٍ، فهو اللقاء الأوّل، الذي لا تُلقي فيه نيكال بجسدِها بين ذراعيه.

ليالي العاشقين قصيرةٌ، فكيف دقائقُهم. دخلتِ الأمّ أشخارا، أشارتْ بطرف عينها إلى نيكال: أنِ الزيارة انتهتْ. انسحبتْ نيكال، تاركةً وراءها جلجامش، يجترُّ حلمَه بين يدي أشخارا المقدودتين من خشب الأرز، هكذا تهيّأ له، وهو ينظرُ إليهما مشبوكتين مع بعضِهما فوق بطنها العشتاري المنتفخ، الذي يحدّدُ مع فخذيها الممتلئتين مثلثَها الجنسي، كما تخيله جلجامش المتصابي، وإلى الأعلى قليلاً، ثديان حُرّتان كبيرتان، تلامسان برفق قاعدة هرم بطنها. أمّا شعرُها، فقد تركتْه حُرّاً فوق كتفيها العاريتين.

الأمّ أشخارا خليفةُ الإلهة عشتار على الأرض، ومن طقوس المعبد، إبرازُ أعضاء الخصوبة لدى الأنثى داخل المعبد بصورةٍ شفيفةٍ، أمّا خارجَ المعبد، فترتدي جلباباً طويلاً، يستر جسدَها، كما تستر شعرَ رأسها مع برقعٍ على وجهها، فلا يَظهرُ منه سوى عينيها.

تأمّل جلجامش جسدَ أشخارا. تنهّد بعمق، وهو يقول لنفسه: هكذا ستكونُ نيكال في المستقبل!.

غادر معبد عشتار، وفي نفسه غمامةُ حزنٍ على جمال نيكال، الذي تدفنُه الآلهةُ حيّاً، خدمةً لأنانيتها المتضخِّمة، في نفق إنسانيّةٍ مقموعةِ الأحاسيس والرغبات، بطقوسٍ من العقائد والعبادات. قال لنفسه: ما أتعسَ الإنسانيةَ، عندما تجري وراء آلهةٍ، تنظر إليها من عليائها ، تحرّكُها كما تشاء، وفق قوانينها الخاصّة بعيداً عن فطرة الحياة.

عاد إلى القصر، لم يدخلْ قاعة العرش، بل توجّه إلى حجرته الخاصّة، ألقى بجسده فوق مصطبةٍ من رخامٍ أبيضَ، غاب في بحر تأمّلاته. قال لنفسه: ماجنيتُ من زيارة أشخارا إلا قبضَ الريح!، أشخارا سخرتْ منّي، ازدرتْ ضعفي أمام حبّي لنيكال، أرادتْ أن تساومني، تمنّيني بلعقةِ متعةٍ من نيكال كلَّ عام. بماذا تفوقُني أشخارا، حتّى تقرّر مصيري؟، أنا ثُلثا إله أرضيّ، ينقصُني ثلث فقط، لأصبح مثلها إلهاً أرضيّاً كاملاً؟، عندئذٍ أقرّر مصيري، ومصير نيكال، نيكال ما زالت تحبُّني، قالت لي (بعظمة لسانها): ما بعد الصَّبر إلاّ الفرج. هذا يعني أنّ نيكال تتعذّب، مثلما أتعذّب أنا، هي تنتظرُ مني أنْ أفعل شيئاً.

وقف على قدميه، حام في الغرفة كأسدٍ جريحٍ في كبريائه، تنهّد بعمق، توجّه نحو الباب، فتحه بنزق، وجد الوصيفة شاميرا أمام الباب، تنتظر أمراً منه، وقفتْ عندما خرج من الباب، استعداداً لتنفيذ ما يأمرها به سيّدُها الملك، ولكنّه تجاوزها، دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة، توجّه إلى صومعة أمّه في الطابق العلويِّ من القصر، وجدها هي الأخرى بانتظاره، قرأ القلقَ والعتبَ في عينيها.

- قال لها: ما لك مامي!، أراك قلقةً.

- أنا قلقةٌ عاتبةٌ عليك يا بُنيّ، سمعتُ بأنّك ذهبتَ إلى معبد عشتار، لمقابلة أشخارا، أصحيحٌ ما سمعت!؟.

- نعم. لقد ذهبتُ، ويا ليتني ما ذهبت.

- إذن! لماذا ذهبتَ؟. دعني أفكّر معك، هل غياب إيتاكاما وشوناترا، ترك فراغاً في حياتك، فرحتَ تبحثُ عنه عند أشخارا؟.

- نعم.غيابُهما ترك فراغاً في حياتي، كنت أرى بهما عضيدين وسندين، يبعثان في نفسي الطمأنينة، ولكنّه ليس كالفراغ الذي تركتْه نيكال. لم ولن أستطيع نسيانَها مامي!. ماذا أفعل!؟.

- نيكال!. ما هي إلاّ بنتٌ من بنات عشتار، دخلتْ إلى حياتك للقيام بمهمّةٍ، ومهمّتُها انتهتْ، وعادتْ من حيث أتتْ!، أين المشكلة بنسيانها؟، كلُّ نساء أوروك أمامك، والعذراوات أيضاً، اخترْ مِنْهنّ من تقرُّ بها عينُك، ولسوف تُشبع رغبتك.

- لقد فعلت يا أمّاه، ولكنّ الحبّ لا يخضع لمقاييس العقل، ولا للمنطق، ولا يعرف إلاّ طريقاً واحدةً إلى المحبوب، لا تشغلُه عنها ملذّاتُ الدنيا، ولا متاعبُها، الموت هو الوحيد الذي يجعلني أنساها، أنا مغرمٌ بنيكال، ولا أستطيع العيش من دونها.

- وأشخارا أخذتْ منك حبّك الوحيد، فذهبت إليها برجليك، تستعطفها لعلّها تجود عليك بلقاء مع نيكال، أليس كذلك؟.

- بلى مامي، سمحت لنا بعد توسُّلي إليها، أن نجلس معاً بضع دقائق لا غير، نيكال هي الأخرى تتعذّب مثلي، ساعديني مامي!. أرجوك.

- بُنيّ!. أشخارا ملكة معبد عشتار، تتربّع على كرسيّ عرشها، كما تتربّعُ أنت، على كرسيّ عرشك، ولا يمكننا إجبارها على أمر لا ترغب به. عيوني التي نشرتها في أوروك، تنقل إليّ كلَّ شيء، ومنها تحرّكاتِك. ومما نقلتْه لي فيما مضى، تعاوناً سرّياً بين أشخارا وإيتاكاما، كنتُ مهتمّةً بما يخطّطون له معاً، ولكنَّ رحيلَ شوناترا المفاجئ، ومن بعده إيتاكاما، جعلني في حَيرةٍ من أمري، لماذا رحلا!؟. إلامَ يخطّطان من وراء أسوار أوروك!؟. كلّها أسئلة، تحتاج إلى أجوبة. ولكنّي متيقنةٌ من أنّهما، تركا الأفعي أشخارا، لتلدغنا معاً في الوقت المناسب. أمّا شوناترا وإيتاكاما، فإنّهما، ينتظران منها خبراً، أو أمراً، هذا ما أجهله حتّى الآن، ولكنّي متأكّدةٌ من أنَّهما في نيبّور، المقرّ الرئيس لعبادة الإله أنليل، فهو المكان الأكثر أمناً لهما، إذا انكشف أمر تآمرهما مع أشخارا ضدّك، فكلاهما يخشى المواجهة معك.

- ولكن لماذا يتآمران علينا مع أشخارا!؟، لقد أكرمناهما، وأغدقنا عليهما المال والجاه، لم نقصّر معهما!.

- كلاهما طامع بك بُنيّ، في آخر زيارة لزوجة شوناترا لي، عرضتْ ابنتها شامات زوجة لك، لقد رفضتُ طلبها، قلتُ لها: إنّ ملكة أوروك يجب أن تحمل دماً ملكيّاً أو إلهيّاً، سأخطب له أميرة من شورباك، أرسلتُ رسلي إلى والدها،

وأنتظر منه الجواب. وقد لاحظت في تلك الزيارة، إهمالَك لابنتها، ولاحظتُ أيضاً، اهتمامك بالأمّ أكثر من اهتمامك بالبنت.

- ملاحظتك في مكانها، كنت راغباً بمضاجعة أنات، ولكنّها اعتذرتْ لأسبابٍ خاصَّةٍ بها. أمّا الزواج، فلن أتزوّج إلاّ نيكال، ولو كلَّفني ذلك غضب الآلهة. ابحثي لي عن طريقة ترغم أشخارا، على قبول زواجي من نيكال.

- اترك موضوع نيكال لي، سأفكّر بطريقة، تجعل أشخارا، ترضخ أمام الأمر الواقع. ولكن قبل رسْم الخطة، التي نُكْرِهُ بها أشخارا على تنفيذ رغبتك، يجب أنْ تحصل على لقب كاهن، المرتبة الكهنوتيَّة، تمهّد الطريق أمامك للزواج من الكاهنة نيكال.

أشخارا وسمتْها كاهنة، لتحرمك منها كزوجة، عندما تنال لقب كاهن، تقف أمام أشخارا، وقفة النِدِّ لِلنِدِّ، ونَوالُ اللَّقب، يحتاج إلى موافقة كهنة معابد أوروك، أنليل وإيا وشمش وعشتار وآنو. غياب إيتاكاما لصالحنا، أتوقّع منه لو كان موجوداً، لوجّه كاهنَ معبد أنليل، شَنْشَتور، إلى التحالف مع أشخارا كاهنة معبد عشتار، ليعطلا قرار منحك لقب كاهن قولاب، إيتاكاما يرغب، بأن يكون وزيراً لملك ضعيفٍ اجتماعياً وقياديّاً، لقد فشل إيتاكاما، ونجحتْ أشخارا في إبعادك عن نيكال. من أجل ذلك، ستكون أشخارا المعارض الوحيد لقرار الكهنة، لمنحك لقب كاهن قولاب، أو قد تصمت.

- لماذا أشخارا وإيتاكاما، يعملان كحليفين ضدي مامي!؟.

- لكي تفهم آلية تفكير كلٍّ منهما بُنيّ!. عليك أن تفهم مواقف الآلهة السماويَّة من البشر على الأرض. عشتار إلهة الخصوبة، تعطي حيناً وتمنع أحياناً، هي متقلّبة المزاج لا يُؤمن جانبُها، تحبُّ ذاتها، ماكرة مزواج، ضحّت بأزواجها الواحد تلو الآخر. بعضهم سلّمته إلى شياطين العالم السفليِّ، وبعضهم مسختْه، فحوّلته إلى أشكال حيوانيّة أو نباتيّة. أمّا الإله أنليل، فهو إله الحرب والعاصفة، يُجسِّد العنف والتقلُّبَ والغضب، قلبه لا يعرف الرحمة، وعلى البشر أن يتقوا غضبه بالأضاحي والقرابين. كهنة هذين المعبدين على الأرض، يحملون مواقف الإلهين وسلوكهما في السّماء، ويجسِّدونها في الحياة. إنّهم يمثلون الجانبَ المظلم في النفس البشريّة. أمّا الإله إيا، فهو إله المعرفة والحكمة والكار والتجّار، فهو إله حكيم يجيد التفكير، ويقبل التفاهم، ولا يميل إلى العنف والانتقام. أمّا الإله

شمش، فهو واسع الرحمة، تشرق أنواره على الأخيار والأشرار. وكهنةُ هذين الإلهين، يحملون أيضاً صفاتِهما ومواقفَهما من الحياة أيضاً، وهما بالمقابل يمثلان الجانب المشرق في النفس البشريّة. الصراع بين الظلام والنور أزليّ. أدريخي وشامتور، كاهنان محبّان للخير بُنيّ!، فهما يجسّدان سيرة الإلهين شمش وإيا. السلوكُ البشريُّ بُني! مُرتبِطٌ بالمَثَلِ الأعلى.

أوروك مدينة الإله شمش، كما أنّ إريدو مدينة الإله إيا، كلتا المدينتين، عاشتا آمنتين مسالمتَين، ومتسامحتين مع عبادة بقيّة الآلهة، إيتاكاما وشوناترا، كانا يعملان على تحويل عبادة الإله شمش في أوروك، إلى عبادة الإله أنليل، وبالتعاون مع أشخارا كاهنةِ معبد عشتار الطموحة إلى مرتبة إلهة أرضية، وقد نالت ما كانت تتمنّاه، خطّطا على تجريدك من حُبِّ شعب أوروك، فحرمتْك أشخارا من نيكال، وباعد شوناترا وإيتاكاما بينك وبين الناس، أرادا أن تكون أعماقُك ضعيفةً قلقةً، تسهل السيطرةَ عليها، ماداموا غيرَ قادرين على مواجهتك جسديّاً. هذا المخطّط الشيطانيُّ، شاركتْ فيه أشخارا خطوةً خطوة. لماذا!؟. هذا ما أجهله، ولكنّي أعرفُ أنّها وإيتاكاما، كانا على علاقةٍ جيدة.

احرص على تقريب شامتور، كاهنِ معبد الإله شمش، وأدريخي كاهنِ معبد إيا، وأنا سأتولّى أمر أشخارا، لا يفهم المرأةَ، إلاّ المرأةُ. أعِدْ الشيخَ ترحاسيس إلى منصبه وزيراً لك، كما كان في عهد والدك. أصلحْ غلطتي معه، كلُّنا نُخطيءُ بُنيّ!، ولكنَّ العيبَ كلَّ العيب أن نستمرَّ في الخطأ.

أشرف على بناء السّور بنفسك، يجب أنْ تنتهي من بنائه بأسرع وقتٍ ممكنٍ، أخشى أنْ يزيِّنَ إيتاكاما وأشخارا، لملكِ كيشَ مهاجمة أوروك قبل الانتهاء من بنائه، احرصْ على كسب ثقة شباب أوروك، ولاسيّما المقاتلون منهم، يجب تمتينُ وحدةِ الصفّ الداخليِّة.

في خزينة المملكة أموالٌ كثيرةٌ، يجب أن نشتريَ بها قلوبَ الناس وولاءهم. والآن عليك أن تذهب إلى قاعة العرش، لا يجوزُ أنْ تتخلّف عن القيام بواجباتك كملك.

خلال الفترة التي حكمتُ فيها الوركاء، ارتكبتُ حماقاتٍ عديدةً مع شعب أوروك، أريدُ التكفيرَ عنها، يجب أنْ تعودَ صورةُ لوجال بندا، إلى أذهان أهل أوروك من خلالك بُنيّ.

- وداعاً مامي!. سأعملُ بتوجيهاتِك.

نهضتِ الإلهةُ ننسون إلى خزانة ملابسها، اختارتْ أجملها، لبستْ عقداً من اللازورد، اتشحتْ بمنديلٍ أزرقَ، رمزِ إله السماء آنو، وتوجّهتْ إلى معبد الإله شمش، هناك رفعتْ صلاةً مع كاهن المعبد، من أجل سلامة أوروك، ورعاية أهلها، وهداية ملكها جلجامش، قامت بزيارة لكاهن معبد الإله آنو إلْيانا، فأبدا ارتياحَه للوشاح الأزرق الذي غطّتْ به ننسون رأسها، ثمّ رفعا صلاة للإله آنو:

(أيّها الإله السماويُّ آنو!. إنّ جلجامش، يلهو بقرع نواقيس الخطر، إنَّ جرأتَه لا تقف عند حدٍّ بالنهار، أو بالليل، هو دائبُ الحركة، موفور النشاط ،لم يعدْ ابنٌ يعيش مع أبيه، لأنّ جلجامش، يأخذهم جميعاً للسخرة لبناء سورٍ لبيت آنو. اجعل أعداءه مَوطئاً لقدميه، فهو راعي المدينة، الحكيم، والوسيمٌ، والعنيد).

ولم تنسَ زيارة شنشتور كاهن معبد أنليل في الزيارة، أكّدت له أن معبد أنليل سيبقى ضمن دائرة اهتمام الملك جلجامش، كما كان خلال فترة تولّيها الحكم.

عادتِ الإلهةُ ننسون إلى صومعتها في القصر، تحمل في ذاكرتها باقاتٍ من عبارات الشكر، التي قدّمها الكهنةُ الثلاثة، على الهدايا التي سبقتْها إلى المعابد الثلاثة قبل وصولها. كانت حريصةً على تجاهل أشخارا، كرسالةِ عدم ارتياح لتحركاتها المشبوهة مع إيتاكاما.

بعد إسبوعٍ من زيارتها للمعابد الثلاثة، دعتِ الكهنةَ، إلى حضور جلسة اجتماع مجلس كهنة أوروك، حضر الجميع، ناقشوا الملكَ بعددٍ من القضايا، فأبدى مرونةً مع كلِّ مقترحاتهم، وقبل نهاية الاجتماع، طرحتْ ننسون فكرةُ مَنْحِ الملكَ جلجامش لقبَ كاهن قولاب، بالإضافة إلى لقبه السابق، سيِّد قولاب،هذا اللَّقبُ الجديد يُعتبرُ أرفعَ لقبٍ يناله الملك، يضعه في مصافِّ الآلهة الأرضيين، وهم كهنةُ المعابد الكبار في أوروك، وبهذا اللَّقب، يؤهِّله لتولّي سلطتين، دينيِّةٍ وسياسيِّة.

لم تكن المداولاتُ بين الكهنة معقّدةً، كاهن معبد شمش شامتور، أبدى

حماسةً للفكرة، وكذلك فعل كاهن معبد آنو إليانا، ولحق بهما كاهن معبد أنليل شنشتور، وكاهن معبد إيا أدريخي. أمّا أشخارا كاهنةُ معبد عشتار فقد علّقت على المقترح بقولها: إنّ لقب الكهانة، لا يستحقّه إلاّ من نال محبّة الشعب، وثقتَه، وما أسمعه من أفواه الناس، أنّ الملك جلجامش، لا يأبه لأوجاع شعب أوروك، بل يقسو عليهم، من خلال العمل بنظام السخرة، لإنجاز بناء السور، ويبالغُ في مضاجعة النساء. كثيرٌ من النبلاء، يشكون أمرَه للآلهة.

ردّ عليها الملك جلجامش قائلاً: إنّ بناءَ السور، فيه مصلحةٌ لأوروك وشعبها، فالأمنُ أهمُّ الحاجات البشريّة، والمدينة الآمنة، خير من المدينة العاطلة من الأمن، فالأمن الموفور يُعطي شعوراً بالرّاحة للناس، فيعمّرون ويبدعون، ويستقرّون آمنين على مستقبلهم، أمّا التجُّار ورجال الأعمال، فسيجدون فيها مقرّاً آمناً حافظاً لأموالهم ومصالحهم.

أمّا مضاجعتي لنساء أوروك، فهذا ما منحتْني إيّاه الآلهة، وأنتِ من بلّغتِني بقرارها، ولا أعتقد، أنّي ضاجعتُ امرأة يوماً، وألحقتُ بها ضرراً، أو أذىً. بل كنَّ جميعُنَّ، يبدين ارتياحَهنَّ، أمام واجبٍ يؤدّينَه لملك ثلثاه من الآلهة.

- قالت الإلهة ننسون رئيسة المجلس: أعتبر الاقتراح فائزاً بمعدّل أربعةٍ موافقين، مقابل واحدٍ متحفّظٍ على الموافقة. مبارك لك أيُّها الملكُ الكاهن. نهضتْ الإلهة ننسون، علّقتْ على صدر جلجامش الشارة الكهنوتيّةَ، وألبستْه قُلُنْسوةً من كتّانٍ أسود، خاصَّةً بالمناسبات الدينيّة.

- تقدّم إليه الكهنةُ مرحبين به كاهناً بينهم، ومهنئين له باللّقب.

- شكر جلجامشُ الكهنةَ على ثقتِهم، وأكّد لهم حِرصَه على إرضاء الآلهة، وخدمة مدينتهم أوروك المقدّسة،

بعد انتهاء الجلسة، خلا جلجامش بوالدته، قال لها: مامي !. رأيتُ اليومَ حلمين، تركا أثراً حسناً، ولكنّهما ملكا عليَّ حَيرتي، أرغب بمعرفة دلالتِهما، وفكِّ رموزِهما.

- أسمعْني مارأيتَ بُنيّ!.

- كنت أسيرُ ليلاً، بين كوكبةٍ من فرسان أوروك، تحت قبّةِ السّماء الزرقاء، كانتِ السعادةُ تغمرني. كنتُ أشعر بغبطةٍ ما شعرتُ بها من قبل، وفي

غمرة فرحي، سقط شهابٌ من جوهر آنو على صورةِ إنسان، حاولتُ رفعه، ولكنّه كان ثقيلاً، تدافع الناس نحوه، تزاحموا لتقبيل قدميه، أمّا أنا فأحببتُه، انجذبتُ إليه، كما أنجذبُ إلى نيكال.

- ذاك النجم الذي هبط عليك من السماء، هو رفيقٌ أرسله لك إلهُ السَّماء آنو، ليمدَّ لك يدَ المساعدة، هو قويٌّ وفيٌّ يقف إلى جانبك، ولن يتخلّى عنك، كما تخلّى شوناترا وإيتاكاما.

- احكِ لي الحلمَ الثاني.

- في أوروك، وفي ساحتها العامة، رأيتُ فأساً ضخمةً ملقاةً على الأرض، كان شكلُها غريباً، لم أرَ شبيهاً لها من قبل، انجذبتُ إليها بقوة، كما انجذبَ إلى مشاهدتها جمهورٌ غفيرٌ من المارّة.

- فأل حسنٌ أيضاً. الآلهة تنظر إليك بعين العطف، إنّها تهتمّ بحاجاتك النفسيّة والاجتماعيّة، سترسل لك صديقاً يكون لك عضيداً ونصيراً، يلازمك كما تلازم الفأس المقاتل في أرض المعركة، سيكون لك بمقام الأخ المُحِبّ. لاشيءَ يُقلق في الحلمين. فلتهدأْ نفسُك يا بُنيّ!.

أمّا بخصوص زواجك من نيكال، فكن مطمئنّاً، صار بإمكانك الزواجُ منها رغماً عن إرادة أشخارا، أنت الآن كاهن قولاب، ولم يَعُدْ هناك مانعٌ شرعيٌّ، يمنعك من الزواج بمن تحبّ. في عيد الخصوبة القادم، ستكونُ زوجةً لك، بقرارٍ من مجلس الكهنة

والآن حدّثْني عن بناء السور.

- العمل يجري فيه بوتيرةٍ منتظمة، ولن يكتملَ البناءُ قبل عامين من الآن، السُّورُ سيكون مفخرةً لشعب أوروك عبر العصور مامي.

- ولكن خصمنا التقليديَّ العنيدَ أجا ملك كيش، لن ينتظرنا حتّى ننتهيَ من بنائه، ثمّةَ أخبارٌ تردني من عيوني في كيش، أنّ حلمه في غزو أوروك، يستيقظُ بين الحين والحين.

- في هذه الحالة، يجبُ الاهتمامُ بالجيش، نزيدُ عددَه، وتسليحه.

- ولا تنسَ تدريبه، وضمانَ ولائه إليك بُنيّ!.

- هذا ما أفعله مامي!. جنودي من الشباب المُتحمِّسين للدفاع عن أوروك، يجب أن أدرّبهم على صيد الوحوش في البراري، في الشهر القادم، سوف أخرج بهم

إلى السُّهوب الغربيّة لصيد الغزلان والأسود والضباع. منازلةُ الوحوش متعةٌ للمقاتل، تعلِّمُه الجسارةَ والمهارة عند مواجهة الأخطار، ما زلتُ أذكر مواجهةَ شوناترا للأسد خلال رحلتي الأولى إلى الغابة.

- على بركة الآلهة بُنيّ!. ولكن!. كم سيطولُ زمنُ رحلة الصيد؟.

- ربما تستغرق شهراً أو تزيد قليلاً. ستقومين بأعباء المملكة عنّي خلال فترة غيابي.

- كنْ مُطمئنّاً. الشيخ ترحاسيس، كُفؤٌ وحريصٌ على مستقبل أوروك. ولكن قبل أن تخرج برحلة الصيد، أعدْ تشكيل مجلس الشيوخ كما كان في عهد والدك. ترحاسيسُ يعرف العقلاء الأتقياء منهم، اعتمدْ عليه. لا تُطِلْ الغياب، قد أستدعيك في أيّةِ لحظةٍ.

بعد ثلاثة أسابيعَ من خروج الملك جلجامش مع مئة فارسٍ من فرسان أوروك إلى الصيد، وصل رسولٌ من أجا ملكِ كيش، يحملُ رسالة إلى الملك جلجامش، أحسنتْ ننسون استقباله، وحاولت معرفة مضمون الرسالة، ولكنّه أبى، متمسّكاً بخصوصيّة الرسالة وسرّيتها، أدركتْ ننسون بفطنتِها، أنّ الرسول جاء بمهمَّة تجسُّسٍ، فأمرتْ بالحجْر عليه، ومنعتْ الاتصال به، ريثما يعود الملك من رحلة الصيد.

عندما عاد جلجامشُ من رحلة الصيد، سمع من الرسول مضمون الرسالة بحضور الوزير ترحاسيس. كانت الرسالة تطلبُ منه بصراحةٍ تسليمَ المدينة إليه، لتكون أوروك تابعة لمملكته، وتحت سيطرته.

أعاد الرسول إلى سجنه، وطلب اجتماعاً عاجلاً لمجلس الشيوخ، والمجلس العسكريِّ المؤلّف من قادة جنوده، قرأ عليهم إنذارَ ملكِ كيش، بما فيه من التحذير والتذكير بسوء المصير، إذا امتنع الملكُ جلجامش الصغير، عن تسليم المدينة إلى الملك أجا الكبير.

رأى الشيوخ، أنّ تسليم المدينة، يحميها من الدمار، ويجنِّبُها إزهاق الأرواح من قبل الأشرار، لأنّ ملكَ كيشَ حَنِقٌ فاجرٌ، وعلى الفتك والبطش بخصومه قادرٌ، استرضاؤه بالهدايا خيرٌ من استعدائه. ولكنَّ المجلسَ العسكريّ المؤلّفَ من المقاتلين الشباب، رفض مقترح الشيوخ، وقرّر ملاقاةَ ملك كيش الحنِق الفاجر،

ليلقّنوه درساً لن ينساه، فالعدوُّ الفاجرُ الحَنِق لا يردعه إلاّ إظهارُ القوة، وتنكُّبُ السّلاح. انضمّ جلجامش إلى رأي الشباب وقال: يجب أن يعرف هذا الملك المغرور، أنَّ الملك جلجامش، لا يهاب تهديده.

في اليوم الثاني أقام في ساحة المعابد عروضاً للمصارعة، والمبارزة، حضرها رسول الملك أجا، لينقل إلى ملكه، أن مقاتلي أوروك ليسوا لقمةً سائغةً، ثمّ طرده بعد أنّ زوّده برسالة ضمّنها استعدادَ شعب أوروك على المواجهة.

الفصل السّادس

في البراري الممتدّة غرب مدينة أوروك، سهوبٌ واسعةٌ، تعيشُ فيها قطعانُ الغزلان، والحمُر الوحشيّة والضباع والفهود والأسود. كانتِ الطبيعةُ عذراء، كما خلقها آنو إله السّماء منذ البدء.

في إحدى المرّات، خرج صيّادٌ يطلب صيداً، فكَمَنَ في أجَمَةٍ من القصب، قربَ مورد ماءٍ، فرأى رجلاً بين القطيع. كان طويلَ القامة، كبيرَ الهامة، واسعَ الصَّدر عريضَ المَنْكَبين، لم يعرفِ المدنيَّةَ، ولا طعامَها ولا كساءَها، يعيش عارياً كما تعيش حيوانات الفلاة. ينتقل مع قطيع الغزلان في المراعي، ويَرِدُ به الماءَ كلَّ مساء.

كان لا يسمح لأيِّ فردٍ من أفراد القطيع، ورودَ الماء قبله. كان الرجل يشربُ الماء حتّى الارتواء، ثمَّ يتأمّل صورة وجهه في الماء قليلاً، ينظر حوله فلا يرى له شبيهاً، بين أفراد القطيع، ولا نِدّاً بين وحوش البراري.

كان يسابق الغزلان فيسبقُها، يصارع السِّباعَ بيديه العاريتين، فيصرعها، فصارتِ الوحوش تخافُه، تهرب من طريقه، وتتجنَّب ملاقاتَه.

ارتاع الصَّياد من منظره، فبقي في مَكْمَنِه، حتّى انصرف ابنُ البراري وقطيعُه. في اليوم الثاني ثمَّ الثالث، عاود الصيّادُ الكرّة، فتكرّر المشهد أمامَ نظره كما في كلِّ مرّة، فانسحب ببطءٍ، سلّم للريح ساقيه، وما توقّف عن الجري، حتّى وصل إلى بيت أبيه، كان الصيّاد مرعوباً تَعِباً. فسأله أبوه عن سبب تعبه واضطرابه، فحكى له ما رأتْ عيناه، وما سمعتْ أذناه.

- قال الأب: بُني دونكَ الملكُ جلجامش، فهو الوحيد القدير، على ملاقاة هذا البشريّ المتوحّش.

توجّه الصَّياد الشَّابُّ إلى أوروك، طلب مقابلة الملك جلجامش، قائلاً: أنا من رعية الملك، جئتُ من مكانٍ بعيدٍ في السُّهوب الغربيَّة، طالباً منه المساعدة.

عندما دخل الصَّيادُ على جلجامش، كان يجلس مع وزيره، في حديقةِ قصره، تحت ظلّ نخلتين متجاورتين باسقتين في فراغٍ عابقٍ بالهدوء، وكأنّهما تسبّحان الإله آنو بصمت السكون. وقف الصياد الذي لم يتجاوزِ العشرين من عمره، أمام الملك حافيَ القدمين، أشعثَ الشّعر، عاريَ الصدر، تسترُ حِقْويه بردعةٌ من جلد. ولكنَّ الفتوّة، كانتْ تنزّ من مسامٍّ جلده البرونزيِّ المشويِّ بأشعةِ شمس الإله شمش السّماويّ.

جثا الصيّاد أمامهما على ركبتيه، نكّس نظره، وحنا رأسه إظهاراً للطاعة، كمَنْ يطلب الشّفاعة. فهو أمام ملك أوروك العظيم، الذي ملأتْ أخبارُ قوته البلادَ، فتحدّث عنها القاصي والدّاني، كما صوَّرها رسول الملك أجا للعباد. كان لتلك الصورة المَهَيبة أثرٌعلى أمن أوروك، فجعلتِ الملك أجا، يطوى صفحة أحلامه الطامعة في أوروك إلى الأبد.

قال الملك: انهضْ يا فتى!. إنْ كانتْ لك حاجةُ قضيناك، وإنْ كنتَ مظلوماً أنصفناك، وإنْ كنتَ خائفاً أمَّناك. احكِ!. مابك!؟.

- قال الفتى: جئتُ أنقل إليك يا مولاي الملك، ما رأتْ عيناي، وما سمعتْ أذناي، فقد رأيتُ ما لم ترَه عين، وسمعتُ ما لم تسمعْه أذن.

- وماذا رأيتَ، وسمعتَ يا فتى!؟.

- رأيت رجلاً لا مثيلَ له بين الرجال. رجلاً طويلَ القامة عظيمَ الهامة، سَبْطَ الذراع، طويل الباع، يكسو جسمه شعرٌ كثيفٌ، عيناه لامعتان كعيني الضَّبُع، يقفز من مكانٍ إلى مكان مثل السَّبُع. يعيش مع قطيع الغزلان، ويَرِدُ بها الماء، ويجوب معها في البراري والقفار، حتّى حدودِ الصحراء.

ثلاثة أيام وأنا أراقبه، وفي كلّ مرّة، أتجمّد في مكاني من الخوف والرُّعب، تهيّأ لي أنّه أقوى رجلٍ في الدنيا، من بعد مولاي الملك. يخرّب الفخاخ، يقطّع الشِّباك، يساعد الطرائد على الهرب، يتغذّى العشب.

هذا أغرب ما رأتْ عيناي في البراري، طيلة عملي في مهنة الصَّيد يا مولاي!.

- زدني من وصفه أيُّها الصيّاد.

- من ينظر إليه، يتهيّأ له، أنَّ نظرتَه من جوهر الإله آنو قوةً، ومن الإله أنليل خشونةً وعنفاً، شعرُ رأسه طويلٌ كشعر رأس إلهة القمح نيسابا، جسدُه مُغطّى بشعرٍ مُلبّدٍ كشعر إله القطعان الساموقان، لم يعرفْ حياةَ البدو، ولا الحضر.

- التفت الملك إلى الوزير ترحاسيس وقال: سأرسل مع هذا الصياد عدداً من الفرسان، ليحضروه حيّاً إلى هنا، سيعيش معي في هذا القصر، كم أنا توّاق إلى صُحْبةِ رجل بهذه الصفات!.

- يا مولاي!، من الحِكمة، ألاّ نطلبَ حاجةً بالقوة، إلاّ بعد أن تعجزَ عنها الحيلةُ.

- قال الصياد: إنه متوحشٌ يا مولاي!، والمواجهةُ معه، ليستْ أمراً سهلاً، قد تُسبِّب له ضرراً، أو موتاً، فلن يستسلم بسهولة.

- قال الوزير: نريدُه مُسْتَأنساً، يدخل إلى أوروك راغباً لا راهباً.

- وكيف السبيلُ إلى ما تقول أيُّها الوزير!.

- جاء في الإلوما إليش: سُمّيَ الإنسانُ إنساناً، لأنّه بالأنثى يستأنس، عليك بالأنثى يا مولاي!.

- في قولك حقٌّ أيُّها الوزير، إنَّ عزمَ الرجال يهدُّ الجبال وإغراءَ النساء يهدُّ الرجال، شِباكُ الأنوثة، أقوى من شباك الكتّان. اطلبْ ليَ الفاتنةَ شمخة من معبد الإلهة عشتار، قل للإلهة أشخارا: إنّ الملك يريدها في مهمّةٍ خاصّة.

دخلتْ شمخةُ إلى مجلس الملك، لم تقبّلِ الأرضَ أمام قدميه، كما يفعل عامةُ أفراد الشعب. هي من بنات عشتار، تنتمي إلى عائلة الآلهة، وتمارسُ مهنةَ البغاء المقدّسة، سارتْ إليه بخطىً رشيقةٍ مشوبةٍ بدلالِ غَنِجٍ، وعلى شفتيها تفتّحتْ ابتسامةٌ من وردٍ أحمرَ، أمّا عيناها النرجسيّتان، فكانتا ترسلان رسائلَ عشقٍ عشتاريٍّ، يحمل إيحاءاتٍ أنثويّةٍ مُحيّرة.

وقفتْ أمام الملك، قالتْ: أمةُ الإلهة عشتار، شمخة بين يديك يا مولاي!. اطلب وأنا رهن إشارتك.

- قال الملك: بركةُ عشتار تحلُّ عليك وعلى كلِّ بنات عشتار، اللواتي نذرْنَ أنفسهنّ لخدمة أوروك، مدينة الآلهة الكبار.

- قالت شمخة: هل من خدمةٍ أقدّمها لمدينة الآلهة، الوركاء؟!.نفسي وجسدي فداءُ الآلهة،

- كلّنا هنا في أوروك لخدمة الآلهة، أيّتها البنت البارّة!.

- ألخدمةُ، فعلٌ أم قولٌ يا مولاي!؟.

- قول وفعل.يا شمخة!. قوةُ الأنوثة عند النساء، تهزم جيشاً جرّاراً، الأنوثة الهادئة الصامتة، أقوى من الجيش الجرّاراللَّجِبِ الأصوات، قوةُ الأنوثة تتسلّل إلى

مدينة القلب دون استئذان مهما علت أسوارُها، لا تدقُّ الأبواب، ولا تقعقع بالسلاح، ولا تقرع طبول الحرب، عندما تستعصي المدينة على القادة، يستعينون بفتاة جميلة غادة فاتنة مثلك. وبك اليوم أستعين ياشمخةُ!، يا أيَّتُها الجميلة الفاتنة!.

- أنوثتي، بقوتيها الخفيّة والظاهرة في خدمتك، يا ملك أوروك العظيم.

- أتاني هذا الصيّادُ الشابُّ، بأخبارٍ عن رجلٍ يرتعُ مع القطعان في البراري، لا يعرف أمّاً ولا أباً، ولم يعرفِ المدنيَّة، ولم يذقْ قطّ خبزاً، ولا خمراً، فراشُه الأرضُ، ولحافُه السّماء، أريدك أن ترافقي الصَّياد، إلى السُّهوب الغربيّة، حيثُ يسرح ذلك الرجل مع القطعان، لتشري حوله شِباكَ أنوثتك، وعندما يقعُ فيها، أحضريه إلى أوروك.

رجل بهذه الصفات، سيكون عضيداً ونصيراً قويّاً لأوروك، يُخصِبُ نساءها، ويحمي أسوارها. اجعليه ينسى حياة البراري، هذه خدمةٌ كبيرةٌ تقدّمينها لأوروك، ولسوف تنالين عليها جزاءَ الملك والآلهة.

- شمخة أَمَةُ الإلهة عشتار تحت أمرك يا مولاي!.

- لتحرسْكِ الآلهة يا شمخة.

التفت جلجامش إلى ترحاسيس وقال: زوّدهما بما يحتاجان إليه، من مؤونةٍ وكسوةٍ ومال خلال الرحلة.

كانت الطريق إلى السّهوب الغربيّة، طويلةً مقفرة، سارا عليها يومين وليلتين، ناما فيهما بالعراء. وفي كلِّ صباح، كانت شمخةُ، تستيقظ مع الفجر، تناجي عشتار المتجليَّة في نجمة الصباح، وإذا حلَّ الليل، تناجي تجلّيها في نجمة المساء. إنّهما عينا الإله آنو الساهرتان منذ بدء الكون، تستقبلان الليل النهار.

في صباح اليوم الثالث، تابعا سيرهما على الطريق، التي ستقودهما إلى مَنْهلِ الماء. عندما اقتربا منه، قال الفتى لشمخة: حذارِ حذارِ عندما تقتربين من المنهل، فإن رأتك الغزلان، أو سمعت صوتاً هربتْ، فننال عقاباً شديداً من ابن البراري.

علينا أن نتسلَّل بكلّ هدوء إلى أجمة القصب، نختبئُ بين عيدانها، حتّى إذا وردت الغزلان الماء، وردتْها آمنةً كما تعوّدتْ. ابنُ البراري سيشربُ أولاً، انتظريه حتّى يرتوي، وبعد أن يخلّي الماء للغزلان، سيجلسُ هناك عند جذع تلك الشجرة. عندئذٍ اخرجي إليه بكلِّ هدوءٍ، ازرعي ابتسامةً على شفتيك، فتُزهرْ طُمأنينةً في

نفسه، اخلعي رداءك، اكشفي عن صدرك، أظهري فتنتك، أغويه كما تغوي المرأة الرجل، اكشفي له عن نهديك، ينجذب إليك، دعيه يُلْصِقُ صدرَه بصدرك، علِّميه كيفَ ينامُ بين فخذيك.

- قالت له شمخة: انتهتْ مهمَّتُك أيُّها الصَّياد أنا سيِّدةُ الإغراءِ والفتنة في معبد عشتار، أعرف كيف أصيد الرجال بشبكة أنوثتي، لقد اختارني الملك جلجامش المُتصابي، كما تلقبُهُ بناتُ عشتار، لأنّه يعرف مهارتي في إغواء الرجال.

قبل غروب الشمس، جاء القطيع كعادته، وعلى مقدّمته ابنُ البراري. شرب أولاً. تراجع عن المَنْهل، ليخلّيَ الماء لأفراد القطيع. جلس في جذع الشجرة، وراح يتأمّل القطيع وهو يرد الماء.

عندئذٍ خرجتْ شمخة من بين عيدان القصب، نظرتْ إليه بعينيها الساحرتين الناعستين، وعلى شفتيها زهرةُ ياسمين حمراء، تقدّمت من أنكيدو بثقة سيّدة الإغراء، عندما صارت على بعد أذرعٍ قليلة منه ، كشفتْ عن ساقها المرمريّة المصقولة البيضاء.

فتح ابن البراري عينيه، راح يوزّعُ نظراتِه في كنوز أُنوثتها، التي يراها للمرة الأولى، قلّب نظره في كلِّ الاتجاهات، كلُّ شيء كان كما عهده، إلا هذه البشريَّةُ التي وُلِدَتْ من دغل القصب، كيف وصلتْ إلى هنا؟، ولماذا جاءتْ؟. وماذا تريد؟. لقد أخذته المفاجأة، لم يرَ امرأةً من قبل، ولكنَّها الآن أمامه من لحمٍ ودمٍ، كلُّ تلك التساؤلاتِ، غابت أمام تيار الرَّغبة، التي بدأتْ تتحرّكُ في داخله. تقدّمتْ منه شمخة بضع خطواتٍ بدلال أكثر. قالتْ له: أنكيدو!. لقد رأيتُك في الحلم، فأحببتُك، فجئتُ إليك، لتكون رَجُلي الذي أرغبُ به، لقد أرشدتْني الآلهةُ إلى طريقك، أنا هِبَةُ الآلهة إليك، فهل تقبلُ هِبتَها يا أنكيدو!؟.

- تخاطبينني بأنكيدو!، من هو أنكيدو!؟.

- هذا اسمك!، أنت من خلقتْه الإله أورورو من رحم الأرض؟. أنكيدو تعني ابن البراري. ألم يعجبْك هذا الاسم!؟.

- بلى يعجبني، سيكون اسمي إذن أنكيدو من الآن فصاعداً.

- نعم!.

- إنّه اسم جميل يسيل على شفتيك حلواً كالعسل البريّ. وما اسمك أنت؟.

- شمخة ومعناه الفِتْنَة، ألستُ فاتنةً يا أنكيدو!.
- بلى! فاتنةٌ وأنا مفتونٌ بكِ!
- مادمتَ مفتوناً بي!، لماذا لا تتقدّم منّي!؟، تقطفُ ثمار أنوثتي.

خلعت ثوبها، فرشتْه على الأرض، استلقتْ عليه. انحنى أنكيدو فوقها، وراح يضاجعها بشبق جنونيٍّ، نسيَ القطيعَ، الذي انطلق إلى البراري وحيداً من دونه.

ستةُ أيّامٍ وسبعُ ليالٍ، لزم أنكيدو شمخة، كان حلماً مُمتِعاً. عندما استيقظ منه أنكيدو، تذكّر القطيع الذي تآلف معه في الماضي، تطلّع إليه، وهو يبتعدُ في السهوب، نهض من مَجْثَمِه الذي شَهِد أحلى تجربةٍ في حياته، حاول اللّحاق بأفراد القطيع، ولكنّه شعر بأنّ قواه تخونه، انتظر عودة القطيع في اليوم التالي، فنفرتِ الغزلان منه، عاد إلى شمخة، مدفوعاً بالحنين إلي أُنوثتِها، جلس أمامها، وراح يُصغي إلى كلامها:

- لماذا ترغب في حياة البراري أنكيدو!؟. تعالَ معي إلى أوروك، المدينةِ العظيمة ذاتِ الأسوار النحاسيّةِ العالية، والمعابد العظيمة، معبد آنو السّماويّ، وعشتار الحبِّ والخصوبة، وأنليل المحارب، وشمش نور السماء، هناك ترى الملك العظيم جلجامش، هو قويٌّ كثورٍ بريّ.
- سأذهبُ معك شمخة!. لن أتخلّى عنك، لقد ساقني القدرُ الجميل إليك، ولن أرفضه ما دمتِ قربي.
- لا تحرمني من حنان ذراعيك، وهمساتِ صدرك، ولمساتِ أصابعك، وخصوبة حرثك أنكيدو!.
- شمخة!. أنا لا أعرف متى أتيت؟، وكيف أتيت؟. ولماذا وُجدتُ في هذه البراري!؟. ولكنّني أشعر، بأنّي وُلِدتُ في اليوم الأوّل الذي التقيتُك فيه.
- أنكيدو!. كلُّنا من رَحِم الأرض خُلِقنا، وسنعودُ إلى رحِمها في يومٍ ما، ليس مهمّاً أن نعرف كيف ومتى أتينا إلى الحياة، المهمُّ أن نعرف لماذا أتينا؟. وكيف نعيشها؟، لنحقّقَ كلّ معانيها الإنسانيّة، نزرع الأرض، نربّي الماشية، نبني البيوت، نتزوّج، ننجبُ الأطفال. السعادةُ ملك أيدينا، العاقلُ مَنْ يحوّل حياته إلى عملٍ دائمٍ على طريق مُتعة المَعرفة والاكتشاف وإسعاد الآخرين، هي بغيةٌ لا يستطيع الإنسان تحقيقها كاملةً، ولكنْ عليه أن يحاول، قد ينجحُ حيناً، وقد يفشل أحياناً.

أنا نذرتُ نفسي لمعبد عشتار، ومن واجبي إدخالُ البَهجة والسعادة إلى قلوب طالبي المتعة، أفرّج عنهم كرْبَهم، أجعلُهم يَسلون همومَهم، كما نسيتَ أنت القطيع الذي عشتَ معه لسنواتٍ عديدة، أسعدهم كما أسعدتُك، ولكنّي لن أستطيع البقاء معك طوال حياتي، عندما أعود إلى أوروك، ينتظرني هناك واجبٌ آخر، سأقوم به بكلِّ سعادة. أتعرفُ السببَ يا أنكيدو؟. لأنّ إسعاد الآخرين، واجبٌ فرضتْه علينا الآلهة، هو واجبٌ من واجباتي الدينيّة، التي نذرتُ نفسي من أجلها. لن أكونَ بعيدةً عنك في أوروك، ولكنّني لن أكون متفرّغةً إليك، كما هو الحال الآن، هناك في أوروك فتياتٌ حسناواتٌ كثيرات، تجد بينهنّ بُغيتك.

- أنا أَدخل الحياة الإنسانيّة للمرة الأولى، لم أعرفْ أباً ولا أمّاً، عرفتُ حياة قطيع الغزلان، كنت أشعر بالسعادة معها، لأنّها كانت تطيعني، كنتُ أناديها، فتتجمّع حولي خلال وقت قصير، آمرها بالانتشار فتنتشر، أدعوها إلى ورود الماء فترد، سُلطتي المطلقة عليها، كانت تعطيني شعوراً بالفخر والاعتزاز، لا أعرف له اسماً. كنت قائدَها وحاميها من تعدِّيات الوحوش المفترسة، أعتقدُ أنَّ عملي كان نبيلاً مثل عملك. من سيحميها من بعدي؟.

- لا تخشَ عليها، سوف تدبّر أمرها، أنت لم تُخلق لحياة البراري، خُلقت لحياة المدينة، هناك في أوروك، تجد ما يبهج قلبك، ويحقّقُ إنسانيتك، ستتعرّف على شيوخها الحكماء، وفرسانها الشجعان، ولكنّهم دون جلجامش شجاعةً.

جلجامش شديد البأس، عظيم البطش، جميع الفرسان يخشونه، ويؤدّون له الطاعة، هو كالثور الوحشيِّ خلال النِزال. لم يهزمْه أحدٌ من قبل. لا تخشَ منه، هو يقدّر الأبطال الأقوياء، يُقرّبهم ويُجزل لهم العطاء. ولسوف تكون من أصحاب الحُظوة لديه.

في أوروك يلبس الناس ألبسةً زاهية، يحتفلون بأعياد الخصوبة، شباباً وشيوخاً، نساء ورجالاً، الجميع يمارسون الحبّ في يوم عيد الخصوبة، ما أجملهم وهم يمارسون الحبّ يا أنكيدو!، ينهضون من أسرّتهم صباحاً، يتوزّعون على أحياء المدينة، يعيشون الحياة، كما أرادتها لهم الآلهة بدون قيود، يرقصون يغنون، يشربون الخمر.

أنكيدو!، أنت تحبّ الحياة، يجب أن تكون بينهم، تشاركهم أفراحهم في يوم عيد الخصوبة، سترى أيضاً الملك جلجامش المتصابي، إنه سعيد في مدينته،

كاملٌ في قوته، دائب في حركته، موفور النشاط في الليل والنهار، هو أقوى منك، أسبغ عليه إله الشمس فضيلة الخير، والإله إيا نِعمة الفهم العميق للأشياء، والإله أنليل هِبةَ القوة، والإله آنو بُعْدَ النظر إلى الأمور، سيرحّب بك، لأنّه يحب الأقوياء.

لديه عيبان فقط: حبّه لمضاجعة النساء، وقسوته في التعامل مع شباب أوروك. وما عدا ذلك، فهو من أخير الملوك.

- شوَّقتني للقاء جلجامش، سأتحدّاه في أوروك، سأقول بصوت عالٍ: أنا الأقوى بين الرجال، أنا الآتي من البراري، من وراء التلال، أنا الأقوى من الجميع، أنا أنكيدو.

- مهلاً أنكيدو. أوروك ستكون سعيدةً بك، ستزيدُ سورَها مَنَعةً، وجلجامش يعشق البطولة ويسعد بصحبة أصحابها، ولكنّه لن يقبل منك، أن تتغلّب عليه في عرينه، ولن تتغلّب عليه، لأنّ الإلهة أورورو، لم تخلق من سيتغلّب عليه بعد، ثلثاه إله، وثلث من البشر. حاول أن تكون صديقاً له، فإن صرتما صديقين، أرهبتما الإنس والجنِّ، من الخطأ أن تبقى هائماً على وجهك في البراري، انهضْ لنتوجّه إلى مساكن الرعاة قرب أوروك، يجب أن ينظر إليك شعب أوروك، بأنّك نظير لجلجامش.

يجب أن نقيم بين الرعاة، حتّى يحينَ موعدُ عيد الخصوبة، هناك تتعلّم من الرعاة نمط الحياة البشريّة، قبل أن تدخل إلى أوروك.

نهضتْ شمخةُ، قسَّمتْ ثوبها إلى نصيفين، نصيفٌ لها ونصيف لأنكيدو، سارا إلى مضارب الرُّعاة، بعد يومين وليلة، وقبل غروب الشمس بقليل، بدتْ مضاربُهم المصنوعةُ من جلود الحيوانات قميئةً بائسةً، تتقاربُ حيناً، وتتباعد حيناً آخر، وفي وسط المضارب خيمةٌ مرتفعةٌ، ينتصب ساموكُها على ارتفاع ستةِ أذرعٍ، وحول تلك المضارب جميعِها، كانت زرائب الماشية، المسوّرة بجدران حجريّةٍ قليلة الارتفاع، تنتظر عودة القطعان من المراعي.

من عادة الرعاة رَصْدُ السهوب المحيطة ببيوتهم، حتّى لا تأخذُهم المفاجأة من عدوّ بشريٍّ، أو حيوانيّ. شاهدوا شمخةَ وأنكيدو قادمَين، فخرجوا جميعاً لمشاهدتهم، كانت شمخةُ ممسكةً بيد أنكيدو، كأنّها أمٌّ تقود ابنها، تسمّرتِ العيونُ في جسم أنكيدو العملاق الضخم، تساءلوا فيما بينهم!. منْ يكون هذا

القادم إلى مضاربنا، كأنّه إله!؟. يا له من رجلٍ جسيمٍ!، عريضِ المنكبين، فارعِ الطول، مفتولِ العضلات، عَبْلِ الساعدين. صفاته الجسميّة سرقتِ الأنظار إليه، فغابتْ شمخةُ عن اهتماماتِهم وسط تساؤلاتهم، وانبهارهم بضيفهم القادم من وراء التلال الغربيّة. ولكنّ شمخة سارت بخطىً ثابتةً، نحو الخيمة الكبيرة، هناك في الخيمة الكبيرة، وجدتْ شيخ الرعاة، قد استعدّ لاستقبال ضيفيه، كان في الخيمة شيخان آخران، وقفتْ شمخة أمام الجميع، عرّفتْ بنفسها أولاً: شمخة من معبد عشتار المقدّس في أوروك، ورسولة الملك جلجامش إلى البراري الغربيّة. أنكيدو ابن البراري. ضيفان عابران متوجّهان إلى أوروك، يمرّان في مضاربكم.

رحّب شيخُ الرعاة بهما، أجلسهما في صدر الخيمة، على أرائكَ محشوَّةٍ بالصوف، وعلى بساط من جلود الأغنام، طلب إليهما ماءً، فشربا، ثمّ وضع أمامهما خبزاً وخمراً، كسرتْ شمخةُ الخبز وأكلتْ، شربتِ الخمر أيضاً، أمّا أنكيدو فبقي فاغرَ الفم، حائرَ النظرات. قالت له شمخة: كُلِ الخبزَ أنكيدو!. إنه عمادُ الحياة، أنعمتْ به الإلهةُ نيسابا على البشر، اشربِ الخمر، إنّه الشرابُ المقدّس. الإلهة سيدوري، هي التي علّمتِ البشر صنعه، كلاهما مقدّسٌ. أكل أنكيدو من خبز الرعاة، وشرب سبعةَ كؤوس من خمرتهم، ابتهجتْ نفسُه، قام بعدها، فغسل جسمه بالماء، دهن جسده بالزيت، ارتدى ثيابَ البشر، فبدا كأنّه من الآلهة.

- قال شيخ الخيمة: أنتما تقصدان أوروك، حيثُ الملكُ العظيمُ جلجامش.
- أجابت شمخة: نعم، يجب أن نكون في أوروك قبل عيد الخصوبة، أعتقد أنّه سيصادف البدر الأول من هذا الشهر.
- نعم تقديرك صحيح يابنة عشتار!.
- وريثما يحين الموعد، سأحلُّ مع رفيقي أنكيدو ضيفين عليكم.
- على الرَّحب والسّعة يا بنة عشتار المقدّسة. في تلك الخيمة، ستجدان كلَّ ما يلزمكما من وسائل الراحة، هي خيمتكما ما دمتما مقيمَين في مضاربنا، وجودكما بيننا بركةٌ من الآلهة.

سمع أنكيدو في الليل، قرعَ طبولٍ، نُباحَ كلابٍ، عواءَ ضباعٍ، أصواتُ حيواناتٍ تتشاجر في الفضاء من حوله. فسأل عمّا يجرى!؟.

- فأجاب الشيخ: الرعاةُ يطردون الوحوش عن القطعان.

نهض أنكيدو يملؤه الحنين إلى المواجهة. هاجم الوحوش المفترسة، أبعدها عن القطعان. سهر الليلَ وحيداً، يمنع عنها الخطر. في اليوم التالي، ابتهج الرعاة، شكروا أنكيدو، وشكوا له خطر أسدٍ، يربضُ في الوادي القريب من مضاربهم. توجّه أنكيدو إلى الوادي، راح يقلّد صوت زئير الأسد بمهارة كبيرة، خرج الأسد إلى لقائه، تهاوشا، ثم تصارعا. صرع أنكيدو الأسد، حمله بيديه، كما يحمل الراعي جدياً. عاد إلى مضارب الرعاة، ففرحوا بمقتل الأسد فرحاً عظيماً.

ستة أيّامٍ وسبعُ ليالٍ مضتْ على وجودِهما في مضارب الرُّعاة، كانا سعيدين بضيافتهم، تعلّم أنكيدو خلال هذه الأيّام القليلة، كثيراً من العادات، وأنماطِ العيش البشريّ، صار إنساناً، يعرف كيف يتناول طعامه، كيف يشربُ من جام الماء الفخاريّ، كيف يلبسُ ثيابه، كيف يصغي إلى حديث الآخرين.

كانت شمخة سعيدةً بسرعة تأقلُم أنكيدو مع الحياة الإنسانيّة، بعد أسبوع فقط، سيكونان في أوروك، يشاركان أهل أوروك أفراحَهم في عيد الخصوبة، ومن حقّ أنكيدو كضيف على المدينة، أن يمارس حقّه في هذا العيد كأيِّ فرد من أهلها. ستسلّمه إلى إحدى بنات عشتار ضيفاً يجب إكرامُه.

لذلك كانت شمخة حريصةً على تدجين طباعه، وتدريبه على ممارسة شعائر العيد، لتمكّنه من الاندماج في البيئة الجديدة.

كانت تعتقد في البداية، أنّه مشروع طويل الأجل، لم تكن تتوقّع، بأن أنكيدو يملك من الذكاء ما يمكّنه من غسل سلوكه الوحشي خلال فترةٍ قصيرة. فكان سرورُها به عظيماً.

أوّل شيءٍ نجحتْ فيه، كيف يمارس وظيفته كرجل أنيسٍ مع المرأة، صار يقترب منها بهدوءٍ، يداعبها، يلاطفُها قبل مضاجعتها، علّمتْه كيف يتعاطفُ مع الرعاة، يساعدهم على تحقيق أمنهم على ذواتهم وعلى مواشيهم، يدفع عنهم خطر الوحوش المفترسة، عرّفته آداب السلوك الاجتماعي، كيف يأكل الخبز، كيف يشرب الخمر، كيف يغتسل.

كانت تشعر في قرارة نفسها بالسعادة والرِّضا، لأنَّها حقّقتْ مشروعاً إنسانيّاً جديداً، بالإضافة إلى المهمّة الأساسيّة التي كُلِّفتْ بها من الملك.

ستقدّم أنكيدو إلى الملك جلجامش صديقاً متحضّراً، لا متوحشاً. يعرف كيف يتعامل مع ملكٍ، يحمل ثلثي صفاته من الآلهة، يجب أن تعلّمه أيضاً، كيف يعيش وسط مجتمعٍ، يعتزّ بأنّ مدينته هي مدينة الآلهة، متميزة بغناها وحضارتها، وعلاقاتها مع المدن الأخرى في بلاد أور.

قالت لنفسها: في أوروك سيكون كلُّ شيءٍ حسناً، سوف أتابع مهمَّتي على أرض الواقع. بدأتْ ترسم في ذهنها خطةَ بناء أنكيدو الإنسان. أفكارٌ كثيرةٌ اجتمعتْ في ذهنها، وهي تتأمّلُ أنكيدو بعين الرِّضا.

في ذلك الصباح الربيعيّ المشمس، انتابها شعور بالارتياح والزهو، إلى النتائج التي توصّلت إليها، فبدأتْ تلك النتائج، تلحُّ عليها بالعودة إلى أوروك في أسرع وقتٍ ممكن. وما قطع تيارُ الإلحاح، إلاّ شبحُ رجلٍ قادمٍ من الجهة الشرقيّة لمضارب الرعاة، راحتْ تراقب خطواته المتسارعة المستثارة نحو الخيمة الكبيرة، دقائق قليلة، بدأتْ تنكشّف هويَّته أمام عينيها، إنّه من أوروك، شابٌ في العشرين من عمره، طالما جلسا معاً في بهو معبد عشتار، وسيمُ الملامح حُلْو المعشر، ذكيُّ الطبع، يفيضُ حيويةً ونشاطاً، نادتْه باسمه. شامير!. التفتَ الشاب، يبحث عن مصدر الصوت، وقفتْ شمخة لتساعده على اكتشاف موقعها، تلاقتْ نظراتُهما بعد زمن، رحّبا ببعضهما، عرّفتْه بأنكيدو، الذي كان يجلس إلى جوارها صامتاً، يراقبُ الفرح في عينيها، وفي اضطراب جوارحها.

- سألته شمخة: ماذا تفعل هنا في مضارب الرعاة شامير!؟.

- جئتُ لأشتريَ عدداً من الخراف، لأقيم بها وليمة عرسي. سيكون قبل عيد الخصوبة بسبعة أيام. أنا سعيد لأنّي رأيتُك هنا، ستكونين حاضرةً عرسي، أليس كذلك!؟.

- بلى شامير!. ومعي أنكيدو أيضاً، هل أعجبك؟.

- نعم. كأنّه من الآلهة. كم يشبه جلجامش ملك أوروك في شكله الخارجيّ. ولكنّي أتمنّى ألاّ يشبهَه في شبقه الجنسيِّ، هو لا يشبعُ من مضاجعة النساء. شمخة!. كيف السبيلُ لإطفاء لهيب رغبته إلى النساء. صلّي للآلهة، لعلّه يتزوّج، فيترك النساء والفتيات وشأنهنَّ لمن أحببنَ.

أشعر بالحزن الشديد، كلّما تخيلته يضاجع عروسي، يفضُّ بكارتها، هذا من حقّي أنا، كيف ترضى الآلهة بالظلم شمخة!؟. شيوخ أوروك وكهنتها، صلّوا كثيراً إلى الآلهة، ولكنّها أغلقت آذانها بالقطن والطين، لماذا لا تسمع الآلهة أنين أهل أوروك!؟.

- الآلهة تُمْهلُ، ولا تُهْملُ شاميرا.

- قال أنكيدو: شعب أوروك كلّه، غيرُ قادر على الوقوف في وجهها، من يكون جلجامش!؟.

- قالت شمخة شعب أوروك مؤمنٌ، لا يغضب الآلهة، وطاعة أولي الأمر، من طاعة الآلهة، هم ينتظرون حلاًّ من الآلهة، لتصحيح سلوك الملك. كيف؟. ومتى؟. هذا بعلم الآلهة، ولكنّها ستفعل في يومٍ ما شيئاً.

- قال أنكيدو بحماسٍ: أنا سأضع حدّاً لجبروته وظلمِه، سوف ألاقيه في أوروك، سوف أغيّر النظام القديم، يجب أن أفعل شيئاً، أنا ابن البراري، لا أستطيع أن أرى مظلوماً، هيّا بنا، ننطلق إلى أوروك.

ودّعوا الرعاة، شكروهم على حسن ضيافتهم، دخلوا أوروك في وضح النهار، كان منظرُ أنكيدو مثيراً للدَّهشة، فراح الناسُ يتساءلون. مَنْ يكونُ هذا الضيف!؟. أيكونُ ضيفاً حلَّ على شامير، ليحضر عرسه؟، أم أنّه إله أرضيٌّ؟. قال أحدُهم لرفيقه: انظر إليه، هو شبيهٌ بالملك جلجامش. ردّ عليه رفيقه: ولكنّ جلجامش أكثرُ طولاً. فردّ عليه الأوّل: وهذا الذي أراه أثخنُ عظماً من جلجامش!.

وقف شامير وسطهم، ونادى بأعلى صوته: يا أهل أوروك!. هذا ابن البراري أنكيدو، جاء إلينا برفقة شمخة بنتِ عشتار، ليحضر عرسي، وليشاركني فرحي، كأيِّ شخص من شعب أوروك، باسمكم أرحّب به.

لم يكن تعريف شامير الموجز كافياً، لإيقاف سيل التساؤلات اللاهثة على ألسنة الآخرين. من أين جاء؟، ما اسم البلد الذي انطلق منه؟، ما اسم أمّه وأبيه؟. وما هي المصادفة التي جمعتْه بشمخة وشامير؟. كانت هذه التساؤلات تجد طريقها على ألسنة الذين جاؤوا لرؤية الملك جلجامش، وهو يدخل على العروس قبل عريسها، ليبارك عذريتها. نزولاً عند إرادة الآلهة، كما بلّغتهم أشخارا كاهنة معبد عشتار. متجاهلين حلقات الدبكة والرقص على صوت قرع الطبل

العابق في فضاء الساحة المتربِّعة أمام بيت العروس.توقّف كلُّ شيء فجأة، لا طبلَ يُقرع، ولارقصَ يُقْشَع ولا غناءَ يُسمع. كانت همهمة الأصوات، تتسلّل خجولةً من أفواه أصحابها: جاء الملك، ليبارك العروس.

نظر أنكيدو إلى عينيّ شامير، كان ثمة دمعةٌ حارّة تمور في عينيه تريد الانعتاق، لتعانق آهة حارة خرجت من صدره الحزين. أتاه من الطرف الآخر صوت بكاءٍ مخنوق، يعبّر عن رفض مكتوم. سأل شمخة : من المنتحبةُ؟. قالت: والدة العريس.

عندما وصل الملك جلجامش إلى مدخل البيت، وجد أمامه رجلاً ضخماً، يسدّ عليه طريق الدخول، تأمّله جلجامشُ بنظرة استنكار، فردّها أنكيدو بنظرة تحدٍّ، تدعوه إلى المصارعة. تجاذبا، ثمَّ تماسكا. ظهرا أمام المحتفلين كثورين ضخمين، يتناطحان في المراعي. تجَمْهر الناس حولهما، ليروا صراعاً، لم يروا مثيلاً له، إنّه صراع الأبطال الأنداد، طال الصراع بينهما، دونَ أن يغلب النِدُّ نِدَّه، كانتْ همهماتُ لهاثهما، تملأ أسماع المشاهدين.

- قال أحد الحاضرين: هذا صراع آلهة، وليس صراعَ بشر!.

- قال آخر: مشهدٌ مثيرٌ حقّاً، لم يصمد أمام جلجامش مصارعٌ قبل الآن، كما صمد ابن البراري. ولكن إلى متى؟. ولمن ستكون الغلبة؟.

- قال الأوّل: أتمنّى أن تكون من نصيب أنكيدو، يجب أن يعرف جلجامش،أنّ الآلهة قد خلقتْ مَنْ يفوقُه قوّةً،

- ولكنّ جلجامش ملكُنا!، هزيمتُه هزيمةٌ لأعماقنا الآمنة بقوته.

- بل هزيمة للخوف الذي دخل إلى أعماقنا، ويأبى الخروج منها. يجب أن يتغيّر النظام القديم، الذي يحكم به جلجامش أوروك.

- جلجامش يحكم باسم الآلهة، ولن يتغيّر شيءٌ من غير إرادتها. أتمنّى أن يكون أنكيدو هبةَ الآلهة لأوروك، ليضع حدّاً لغرور الملك وقسوته.

قطع النقاش بينهما هَرْجُ مديحٍ، وأصوات تصفيق أكفّ، تعلن النتيجة لصالح الملك جلجامش. وقف جلجامش بقامته الفارعة الضخمة، اعتزازاً بفوزه، نهض أنكيدو، تقدّم من جلجامش. قال له: لم يغلبني قبلك مخلوقٌ واجهته في البراري، أنت الأقوى يا جلجامش بين الرجال، وأنت السيّد هنا، وأنا التابعُ لك.

تقدّم أنكيدو من جلجامش، ركع أمامه، كما يركع أمام الآلهة. تقدّم منه جلجامش، وضع سيفُه على كتفه، وقال: أنت أقوى رجلٍ صارعتُه يا أنكيدو.

تقدّمت شمخةُ منهما بدلال، وعلى شفتيها ابتسامةُ الفوز والرِّضا، حنَتْ رأسها أمام الملك، ثم قالت: هذا أنكيدو ابن البراري، طِلْبتُك يا مولاي بين يديك، استلمْها، لقد انتهتْ مهمَّتي.

- قال جلجامش اطلبي يا شمخةُ ما يحلو لك، وسأنفّذ رغبتك مهما كانتْ.
- قالت: يدخل شامير على عروسه بدلاً منك.
- جلجامش. لم ولن يخلف وعداً قطعه على نفسه، تستحقين أكثر من هذا الطلب، سأكرمك على طريقتي الخاصّة. التفت إلى أنكيدو وقال: أهلاً بك صديقاً لي في أوروك، أدعوك لزيارتي في قصري.
- قال أنكيدو: ولترافقْنا شمخة أيضاً، من بعد أُذنِ الملك. لا أستطيعُ الابتعاد عنها.

دخلوا معاً القصر، كان أنكيدو مبهوراً بكلِّ شيء، فهي المرّة الأولى التي يدخل فيها قصراً، أمامه حديقة واسعة، وله مدخلٌ مزيَّنٌ بزهورٍ بديعةٍ، وصورِ حيواناتٍ مفترسة، طالما صارعها في البراري وهزمها، شعر عندما رآها بمخراز الهزيمة أمام جلجامش يَخِزُ أعماقه، ولكنّ ثناء جلجامش عليه وإكرامه، قد بدّدا ذلك الشعورسريعاً. هو الآن ضيفه يمشي معه في أروقة قصره. إنّه صديق، والصديق يقبل الهزيمة من صديقه.

وصلا إلى قاعة العرش، جلس جلجامش على كرسيّ الملك، وإلى جواره أنكيدو، كان منظرهما رائعاً، كما عبَّر الشيخ ترحاسيس بقوله: لو لم أكن أعرف، أنّ مولاي الملك، لا أخَ له، لقلتُ: إنّكما أخَوَان، جئتما من بطن واحدة.

- قال الملك: هو ضالتي المنشودةُ يا ترحاسيس!، لقد شعرتُ بفراغ بعد رحيل إيتاكاما وشوناترا، والآن عوّضتْني الآلهة عنهما بخيرٍ منهما، أنا أحبّ الرجالَ الأقوياء الشجعان، أنكيدو يعادلُ خمسين رجلاً. سيكون صديقي، ورفيقي الذي يلازمني، لن أخشى منه غدراً، ولا خيانةً، فهو ابن البراري، لا يعرف غدرَ سكان المدُن ولا فجورهم، ولا طمعَ أهلها. جهّز لصديقي أنكيدو جناحاً خاصّاً بالقصر، يليقُ بمن لم يعرف الغدر طريقاً إلى قلبه. سأقدّمه إلى مامي الإلهة

ننسون، تنبّأتْ لي منذ أشهرٍ، بقدوم صديقٍ وفيٍّ، يملأ عليَّ وحدتي، وليكون سندي. هيّا بنا يا صديقي الوفيّ، لأقدّمك إليها، فتنالَ بركتَها.

صعدا معاً برفقة شمخة، السلّم الحجريَّ إلى الطابق العلويِّ، حيثُ صومعةُ الإلهة ننسون، كانت الإلهة في خَلْوةِ مناجاة، عندما انتهتْ، تأمّلتْ أنكيدو، أطرقتْ إلى الأرض هنيهةً، ثمّ عادتْ لتُمْعِنَ النظر إليه، قبل أنْ تقولَ بصوتٍ مسموع: ليتمجّد اسمُ الإلهة أورورو! إنّه هو!، هو من جاءتني به أورورو في الحلم، كان ممسكاً بيدها، قالت لي: هوذا ابن البراري، من رحم الأرض خلقتُه، ليكون لابنك جلجامش أخاً، ولتكوني له أمّاً، صمتتْ برهةً، ثمّ قالتْ لهما: تقدّما منّي يا ولديّ الحبيبين، اجلسا هنا على هذه المَصْطَبة. احضرتْ زيتاً، مسحتْ به جبينهما، ردّدت على مسامعهما بعض المقطوعات من الإلوما إليش، باركتْهما، ووسمتْهما أخوين.

بعد أن انتهت، من وسمهما، قالت لهما: بعد ستة أيّام سيكون عيد الخصوبة، وسيكون الاحتفال في هذا العام مميّزاً، سيشهد يومُ العيد زواج جلجامش من نيكال، وسأختار لأنكيدو عروساً أيضاً، ألا ترغبُ بالنساء يا أنكيدو؟.

- بلى!. أرغب بشمخة، هي أول من عرفت من النساء، وستكونُ آخرهنّ إذا تزوجتُ بها، ستكون حبيبةً لي، وأمّاً لأولادي.

- ما رأي شمخة؟.

- أنا من بنات عشتار، وقرار زواجي بيد الكاهنة أشخارا.

- قالت ننسون: كم سأكون سعيدةً لو زوّجتُكِ أنت وجلجامش بيومٍ واحد. سوف أسعى لتحقيق أمنيتكِ.

- قال جلجامش: نيكال هي أوّل أنثى عرفت فراشي، وعندما تعود إليه، لن تعرفه امراة غيرها. أعدك مامي، سأترك نساء أوروك وشأنهنّ.

- قالت ننسون: هذا فألٌ حسنٌ أيضاً، اطمئنَّ بُني!. نيكال ستكون لك الحبيبة والزوجة، وستكون بعون الآلهة أمّاً لأولادك. لنزرعِ الحبَّ في القلوب، لا في الجيوب.يا بُني!.

في اليوم التالي، دعتِ الإلهةُ ننسون مجلس الكهنة إلى الاجتماع. وطلبتْ من جلجامش أن يصحب معه أنكيدو.

في الاجتماع رحّبتْ بالحاضرين، ثمّ عرّفتْ بأنكيدو قائلة:

- إنّه ابن البراري أنكيدو، أنعمتْ به الآلهة على أوروك، ليكون صديقاً وأخاً، لكاهن قولاب جلجامش، أرجو أن يجد في أوروك بيتاً طيّباً وعيشاً حسناً. لقد وسمتُه أخاً لولدي، بناء على أمر الإلهة أورورو، وعلى هذا الأساس، يجبُ أنْ نتعاملَ معه كواحدٍ من شعب أوروك، له ما لنا، وعليه ما علينا.

والأمر الثاني الذي أودُّ الحديث فيه، هو الاستعدادات لاحتفالات عيد الخصوبة، في هذا العام، سيكون الحدث مُميّزاً، ففيه سيتمُّ زواج ولديَّ، جلجامش وأنكيدو، هما راغبان بالزواج من بنات الكاهنة الأم أشخارا، كاهن قولاب جلجامش يرغبُ بالكاهنة نيكال زوجة له، ونيكال توّاقةٌ للاقتران بجلجامش، وحسب القواعد الشّرعيَّة، فليس هناك ما يمنع من زواج كاهنٍ بكاهنةٍ. أمّا أنكيدو فيرغب بشمخة التي لا تحمل صفةً كهنوتيّة، فهي أوّل أنثى عرفها، ولها فضلُ إحضاره إلى أوروك. وكلاهما راغبٌ بالآخر، وليس هناك من مانعٍ شرعيٍّ يمنعُ زواجهما. فما رأيُكم؟.

رفضتِ الكاهنة أشخارا الاقتراح لأنّ البنتين نشطتان في المعبد، ولا يمكنُها الاستغناءُ عن خدماتهما فيه، ولكنَّ كاهن معبد شمش شامتور قال: نحن الكهنةَ في أوروك نسعى معاً لمصلحة أوروك. استقرار أوروك، من استقرار حكّامها، جلجامش الملك، وأنكيدو صديقُهُ ومساعدُه في حكم أوروك. ومن واجبنا تأمين الاستقرار والسعادة لهما. بالإضافة إلى ضمان سلامة مشاعر أهل أوروك، كثيرون منهم يشكون من مضاجعة الملك لنسائهم. وفي حال وموافقة مجلس الكهنة على زواج الملك من نيكال، على جلجامش أن يتعهّد أمام المجلس بعدم التعرّض لأيّةِ امرأةٍ مُحْصَنَةٍ من نساء أوروك.

- قالت ننسون: جلجامش وعدني بما طلبتَ أيّها الكاهن المُبَجّل، ومع ذلك أطلب من جلجامش كاهن قولاب، أن يتعهّد أمامَكم، بأن نساء أوروك حرامٌ عليه، حُرْمةَ أمّه عليه.

- قال جلجامش: أيُّها الكهنةُ الأجلاء. ما كنتُ لأفعل ما فعلت، لولا حرماني من نيكال، هي الأنثى التي علمتْني ممارسة الحبّ، هي أوّل امراة عرّفتْني بوظيفة الأنثى. من بعد نيكال، كلُّ النساء عندي بئرُ متعة، عندما تكون نيكال معي، لا وجودَ لامرأة أخرى في حياتي. وما جرى لي، يجري الآن

مع صديقي وأخي أنكيدو، شمخةُ هي أوّل أنثى في حياته، ولم يذقْ طعمَ المتعة إلاّ منها، فأرجو منكم أن توافقوا على زواجه من شمخة، حتّى لا تتكرّر المشكلةُ التي أقلقتْ أهل أوروك في الماضي.

- قالت ننسون: أيُّها الكهنةُ المحترمون. بعد أن سمعتُ آراء الذين تحدّثوا في هذا الاجتماع، أقترح ما يلي:
- 1 - زواج جلجامش من نيكال.
- 2 - زواج أنكيدو من شمخة.
- 3 - تحتفظ نيكال بتمثيل الإلهة عشتار في عيد الخصوبة.

القرارات مطروحة للتصويت برفع الأيدي.

وافق على المقترحات الثلاثة، كاهنُ معبد شمش شامتور وكاهن معبد آنو إليانا، وكاهن معبد أيا أدريخي، وامتنع كاهن معبد أنليل شنشتور عن التصويت، في الوقت الذي أصرّتْ فيه كاهنةُ معبد عشتار أشخارا على رفض المقترحات.

وبناء على نتيجة التصويت، ثلاثة موافقون، مقابل واحد رافض، وواحد ممتنع عن التصويت. قرّرَ المجلسُ تنفيذَ المقترحات الثلاثة.

خرج الكَهَنةُ جميعُهم من الاجتماع، وبقي جلجامش، وأنكيدو مع الإلهة ننسون في القاعة. سأل جلجامش أمّه:

- مامي!. فسّري لي موقف شنشتور كاهن معبد أنليل أولاً، وموقف أشخارا ثانياً.

- بُنيّ!. شنشتور كاهن معبد أنليل، ما زال يحتفظ ببذرة الحلم، التي وضعها إيتاكاما بين يديه، إذا تمَّ زواجُك من شامات، فسوف يمهِّدُ الطريقَ أمام سيادة معبد أنليل على أوروك، ربّما تكون الاتصالات بينهما قائمة حتّى الآن.

أمّا أشخارا، فقد أصيبتْ بصدمةٍ حلّتْ عقدة لسانها، فنطق لسانها بما يفيضُ به قلبها، فعندما تكون نيكال كاهنةً من كهنة معبد عشتار، وملكةَ أوروك معاً، فهي مرشّحةٌ لأن تكون الكاهنة الأمّ، وهذا ما يقلقُ أشخارا قلقاً شديداً.

الأنا وحبّ الذات معاً، يغلفان تفكيرَ أشخارا وشنشتور، وهما يرجوان من الإله الراعي لأنانيتهما، أن يدعم موقفهما في أوروك بأيّةِ وسيلةٍ، وإن كانت شريرة.

أمّا أنت وصديقك أنكيدو، فتنتميان إلى الإلهين، إيا وشمش، جَزيلَي الخير والرحمة والحكمة، وإلى الأرض التي تسيرون عليها، وإلى البشر الذين يشاركونكما لقمة العيش، وشربة الماء، وإلى أوروك مدينة الآلهة المقدّسة. هذه المدينة أمانة آلهة الخير والحكمة والضياء السماويِّ، تضعها بين أيديكما، احرصا عليها، تحرصْ عليكم الآلهة وتحرسْكم.

بالنسبة لكاهن معبد أنليل شَنْشَتور، يجب أن يعود إلى المربع، الذي كان يقف عليه، في عهد والدك الملك لوجال بندا، رحمتْه الآلهة. أمّا أشخارا، فسوف تثير أمامكما المتاعب، فكونا منها يقظَين، اثنتان من بنات عشتار، تنامان في سريركما، فلا تغفلا عن ذلك أبداً. قد تضعفُ إحداهنَّ، أو الاثنتان معاً، فكونا حريصَينِ على تقوية انتمائهما لأوروك، فالمرأة يقوى انتماؤها لوطنها، من خلال ارتباطها بمصير أولادها وزوجها. وفقتْكم الآلهةُ وحمتْكم.

الفصل السابع

في ليلة البدر الأوّل من شهر نيسان، فتحتْ أوروك صدرَها، لاستقبال حدثٍ يتكرّرُ مرَّةً كلّ عام، عيدِ عشتار. مع شمس الصباح، كانتِ الوركاء ترتدي حِلّةَ العيد. شوارعُها نظيفةٌ، أبوابُ بيوتها مزدانةٌ بشرائطَ من كتانٍ أبيضَ، أهلُها يرفلون بثيابهم الجديدة. كلّها إشاراتٌ تشير إلى أنّ عيد الخصوبة سيمرّ من ها هنا اليوم، إعلاناً عن بشرى عام جديد، يحمل معه الأملَ بخصوبة الزرع والضرع.

أطفال أوروك كانوا أكثرَ حماسةً من الشيوخ لاستقبال يوم العيد، ألبسةٌ جديدةٌ نظيفة، يتباهون بها وهم يمرحون في شوارع المدينة وساحاتها، طعامٌ وحلوى على المائدة الجماعيّة في ساحة معبد عشتار، تنتظرها بطونُهم الصّغيرة، ألعابٌ يُفرّغون بها طاقاتِ أجسادهم المتوثّبة للحياة، أمّا الشباب والصبايا، فكانوا أكثر لهفةً لوليمة الحبّ، يُعدّها كلُّ شابٍّ مع فتاة أحلامه، على طريقتهما الخاصّة، أمَّا الرجال والنساء، فالعيد بالنسبة لهم جهدٌ يُبذَل، ومال يُنفَق، بسماحة يدٍ، وكرم نفسٍ، مادامت أفراح العيد، تمنح أولادهم السعادة والفرح.

ولكنّ من أين يبدأ العيد؟. وكيف يبدأ؟.

على طول الشارع العريض، الذي يشطُرُ أوروك إلى حيِّين، قولاب، وأيْ أنّا، يحتشدُ الناس على طرفي الشارع، ترقّباً لمرور الملك. الرجال في أكمل هيئتهم، والنساء في أتمّ زينتهنَّ. وعلى طول الشارع وبأبعاد متناسبة وقفتْ بنات عشتار بزيٍ موحّدٍ يحملْنَ مجامرَ البخور العابق في فضاء الشارع. جميعُهم ينتظرون موكبَ الملك جلجامش، وهو يمشي على قدميه مع اثني عشر شخصاً من حاشيته الأقربين إليه.

ظهر الملك جلجامش، تحفّ به حاشيتُه بلباسها المميّز. في هذا العام كان ابن البراري، والإلهة ننسون، يسيران خلف الملك مباشرة، ومن خلفهما بقيةُ أفراد الحاشية من الأعوان.

مشى الملك بخطواتٍ ثابتةٍ متسارعة، وهو يلوّح بيديه، يحيِّي الجماهر المنتظرة موكبَه على طريق الشارع، بحماسةٍ ومرحٍ غيرِ معهودين من قبل، كانت عيناه تنظران إلى نهاية الشارع حيثُ مدخل الزقورة، هناك كانتْ ثلاثُ نساءٍ، يقفْنَ منتظراتٍ، اثنتان منهنَّ في لباس العرس، هما الكاهنةُ نيكال، ممثلةً الإلهة عشتار في هذا العام، والثانية شمخةُ حبيبةُ أنكيدو، وبين الاثنتين وقفتْ أشخارا، الكاهنةُ الأمّ في معبد عشتار. أثار وقوفُهنّ معاً تساؤلاتِ بعض الناس، ولا سيّما النساءُ منهنّ.

وصل جلجامش إلى باب الزقّورة، حيثُ تقفُ أشخارا ونيكال وشمخة. تأمّل عروسةَ الخِصْبِ نيكال لهذا العام بعينِ الرَّغبةِ المحرومة، عندما وصل على بعد عشرة أذرع، خرجتْ نيكال لملاقاة حبيبها الملك، مشتْ بخطواتٍ مُشْبعةٍ بدلال أنثى، تتصدّى لذكرٍ حُرِمتْ منه منذ زمنٍ طويل، كانت خطواتُها القُطُفُ المتسارعةُ، تشبه دَرْجَ عصفورة تكرج على أرض ممهَّدةٍ صُلبة، فتح لها جلجامشُ ذراعيه، كما كان يفعل في الماضي، عندما وصلت أمام جلجامش، قفزتْ نيكالُ إلى الأعلى، تعلّقتْ بعنقه، لقفها جلجامش بين ذراعيه، ضمّها إلى صدره، وراح يمشي بها إلى باب الزقورة.

بدا العاشقان في نشوة لقائهما، غائبين عن أصوات زغاريد النساء التي انطلقتْ من حولهما، لتؤكّد على انتصار الحبّ وخلوده.

هناك أمام باب الزقورة، وقف الحبيبان، متقابلين، بأيدٍ متشابكة، وراحا يتناجيان بصوت مسموع، ويردّدان ما يفيض به لسانُهما من أشعار.

- قال جلجامش: أيتُها العروسُ الغاليةُ على قلبي!. أمام قدميك أسكبُ خمرةَ حبّي، من شفتيكِ سأشربُ عسلاً لذيذاً، في رحمك سأسكبُ ماءَ ذكورتي، لتنتعش روضةُ أنوثتك بالخصوبة.

وكما أخصبُ روضةَ أُنوثتِكِ، أخصبي أرضَ أوروك، حنطة وشعيراً، عدساً وبقولاً، لتمتلئ أهراء أوروك. باركي أشجارها لتعطي عنباً وتمراً، نصنع منه خمراً قرباناً للآلهة. أخصبي أرحام النساء، فيلدنَ البنين والبنات، حتى يغدو نسلُ أوروك، عددَ نجوم السماء ورملِ البحر.

أخصبي قطعان أبقارنا وأغنامنا وماعزنا، تضع حَمْلها توائمَ، ولتكنْ ضروعُها مدرارةً، لتملأ بيوتنا لبناً وسمناً.

أخصبي أفراسنا وأُتننا ونوقَنا، لتحمل مواليدُها أثقال عطائك السرمديِّ.

لتحلَّ خصوبةُ الزرع والضرع على الوركاء، بشفاعة والديك الإلهين آنو وأنتوم.

- فأجابته نيكال: أيُّها العريسُ الغالي على قلبي!. أنت بعلي الذي أنتظر ماء ذكورته، اِحْنُ عليّ كما تحنو تُويجاتُ زهرةِ اللوز على ميسمها، ضع في ميسمي بذرة الحياة، لتقف عنيدة في وجه الممات. احملني بين ذراعيك إلى الخِدرِ المقدّس، عرِّ جسدي، امسح نهديَّ بأصابعك السحريّة، قبّل شفتيَّ، فرجي كهلال السماء، فلا تتركه ينتظر طويلاً.

حمل جلجامش عروسه نيكال، صعد بها درج الزقورة بخطواتٍ متسارعةٍ، وراح الجميعُ ينتظرون.

بعد ربع ساعةٍ ونيّف، خرج العروسان إلى الشرفةِ المُطلّة على الجماهير، حيّتْ نيكالُ الناسَ بمنديلٍ أحمرَ، في الوقت الذي كانت فيه الإلهتان بالحلوليّة، ننسون وأشخارا، تقفان إلى جانبي العروسين.

- قالت ننسون: يا شعبَ أوروك المؤمن العظيم، سأزفُّ لكم خبراً يسعدكم، الملك جلجامش والكاهنة نيكال، نعلنهما زوجين، بناء على رغبة مجلس كهنة أوروك. نساء أوروك حرامٌ على الملك جلجامش بعد الآن.

كما قرّر المجلسُ أيضاً، زواجَ ابنِ البراري أنكيدو من بنتِ عشتار شمخة، ليعيشا مع بعضِهما كزوجين، باسمكم أبارك لهما، وأتمنّى لكم عيداً سعيداً، وكلُّ عام وأنتم بخير.

خرج جلجامش وأنكيدو من باب الزقّورة، وبينهما نيكال وشمخة، ساروا على نسَقٍ واحدٍ، على طول الشّارع المستقيم، الذي يصل الزَّقورة بالقصر الملكيّ، وسْطَ تهليل الرجال، وزغاريد النساء، وتصفيقِ الصبايا والشّباب.

للمرة الأولى قرأ جلجامش، في عيون الناس حبّهم له، شعر بالسعادة تغمر قلبه، وبالمنعةِ والقوَّةِ تسوّر فضاءه، الآن بات يملك كلَّ شيء، قلبُ نيكال غدا ملكَ يمينه، وقلوبُ شعبِ أوروك ملكُ يساره. قال لنفسه: من يملك كلَّ شيءٍ، يجب أن يعطي جزءاً من هذا الشيء.

أثمن شيءٍ أعطيه، هو حبُّ شعبي، خِدمتهم كراعٍ لهم، ألستُ راعياً لهم بتكليف من الآلهة!؟.

تحرّر جلجامش من كبريائه، صار يتعاملُ مع الناس بتواضعٍ، ورقةٍ ودماثةِ خُلُقٍ. ينصفُ الضعيفَ من القويّ، ويأخذ من الغنيّ ليساعدَ الفقير.

أعطى تعليماتِه إلى المعابد، ليُخصّص كلُّ معبد، يوماً للمائدة الجماعيّة من كل أسبوع، وحدّد يوماً خاصّاً به. كلُّ مَنْ كان يعرفُه سابقاً قال: إنّه جلجامش الجديد، أحيا سيرة والده لوجال بندا في الحكم. كيف حصل هذا التغيير المفاجئ؟!.لم يكن أمامهم إلاّ التسليمُ، بأنّ الآلهة استجابتْ لصلوات أهل أوروك، ولشفاعة الكهنة المكرّمين، فأعادتْ إلى الملك إنسانيته.

مضت أيّامُ الاحتفالات سريعةً ككلّ أيّام السعادة، وعادتْ أوروك إلى حياتها اليوميّة، كما عاد جلجامش إلى كرسيّ عرشه بصحبة صديقه أنكيدو، الذي بات يلازمه في عمله كحاكم، يقضي بين الناس بالعدل، ويُصرّفُ أمور المملكة، كملك مسؤول عن أمن المدينة، وحسن سير الحياة فيها، ولم ينسَ مشروعَ بناءِ السُّور.

صحبه أنكيدو بجولةٍ لمشاهدة ما تمَّ إنجازُه من البناء، حدّثه عن أهمية السُّور في تأمين المدينة وتحصينها، ولكنَّ ابنَ البراري أنكيدو، لم تَرُقْ له فكرةُ السور.

- فقال أنكيدو: سورُ المدينة رجالُها. الأسودُ لا تبني أسواراً حول عرينها، ومع ذلك لا يجرؤ أحدٌ على اقتحامها. لو أنّك بنيتَ جيشاً قوياً، وشعباً مُحِبَّاً لأوروك لأغنتيتَ بهما عن السّور القويّ!.

- الجيش القويّ موجودٌ يا صديقي!. ستشهد في الأسبوع القادم عروضاً له، في المصارعة والمبارزة، ما رأيك لو انضممتَ إليه كمقاتل؟.

- سوف أرى أولاً، ثمَّ أقرّرُ ثانياً.

- أعتقد، أنّه لا يُشقُّ لك غبار في المصارعة، فهي مهارة اكتسبتَها من حياة البراري، ولكنَّ تلك البراري، لم تعلّمْكَ مهارةَ المبارزة بالسيف.

- كم من الوقت تحتاج للانتهاء من بناء السّور؟.

- ستة أشهر حسب تقديري.

- الحياة لا معنى لها، إذا لم ترصّعْها بالأَعمال المجيدة، التي ينتفع بها الناس.

- أملك جيشاً قويّاً مدرّباً. ما رأيك بغزو الممالك المجاورة، وفرض الجزية عليها.

- ظلم الآخرين شرٌّ، لا يفعلُه إلاّ الملوكُ الظالمون الطامعون.
- نبني معبداً آخر للإله شمش السّماويّ.
- كثير من الملوك، سبقوك إلى بناء المعابد، والمعابد الموجودة في أوروك تفي بالغرض، إنّكَ لا تقدّمُ شيئاً جديداً.
- أشقّ قناة أخرى من نهر الفرات إلى المدينة، تملأُ الخندقَ حول السّور ماءً، فتزداد أوروك منعةً وهيبةً.
- هل من عملٍ غير هذا العمل. لا أحبّ الخنادقَ والأسوار، كانت تُعيقُ حركتي عندما كنت أعيشُ في البراري.
- نبني سفينة مثل سفينة أوتنابشتيم القصيّ، تسيرُ في نهر الفرات، وتساعد الناس على العبور من شاطئ إلى شاطئٍ آخر، فتسهّل حركتَهم وتنمّي تجارتَهم.
- فكرةٌ جيدة. ولكنّني أرغب منك، أن تختار عملاً أساهم أنا في إنجازه، يُخلّدني معك ألستُ صديقَك؟. يجب أنْ أعبّر عن وفائي إليك، وأنْ أكونَ نافعاً لأوروك، كما كنت نافعاً في البراري مع قطيع الغزلان.
- سور المدينة عندما يكتمل بناؤه، سيحتاج إلى أربعة أبواب، يجب أن تكون الأبواب من خشب الأرز الصُّلب القويّ، لا من خشب الصفصاف الهشّ الضعيف.
- خشب الأرز موجود في غابة الأرز البعيدة، حيث تغرب الشمس كلَّ يوم، كيف السبيل للوصول إليها، إنّها رحلةٌ شاقةٌ مضنية.
- ولأنّها رحلة شاقّة مضنية، اقترحتُها عليك، ألا تريد عملاً يخلّدك، عملاً لم يَقُمْ به إنسانٌ من قبل.
- حسناً يا صديقي!. سوف أسلّم بقدرتك على تحمّل مشاق الرحلة، ولكنْ كيفَ السبيلُ إلى مواجهة حارسها الرهيب خمبابا!؟. لقد أقامه عليها الإلهُ أنليل حارساً، يقتل كلَّ مَنْ تطأ قدمُه أرضَها، لم يدخلْ إليها بشريٌّ من قبل.
- وهذا ما يزيدني إصراراً على غزوها، والدخول إليها، ولو كلّفني غزوها حياتي، لكي يصيرَ الإنسان خالداً، يجب أن يكون مُضحّياً. بالتضحية والأعمال العظيمة النبيلة، يكتب البشر سِفْرَ خلودهم يا صديقي!.

سمعت عن غابة الأرز قصصاً كثيرةً غريبة، وصفَتْها وصْفاً يعجز العقل عن تصوُّره، وعرضتِ القَصَصُ أحداثاً، تجعل من حارسِها كائناً مُخيفاً، يخشاه أقوى الرجال، وبما أنَّني الأقوى على هذه الأرض من البشر، يجب عليّ غزو تلك

الغابة، لأكون أوّلَ مَنْ تسير قدمُه على أرضِها، ستكونُ معي يا صديقي، سندخل معاً باب الخلود.

- لا أصدّقُ ما سمعتْه أذناي!، خمبابا!، غابة الأرز!، أمران مُخيفان!. أتدركُ أيَّ خطرٍ تقتحم!؟. أتعي ماذا تقول!؟. أنا ابن البراري، قبل أنْ آتي إلى أوروك، كنتُ دائبَ التجوالِ في مشارق البراري ومغاربها، شمالِها وجنوبِها، وصلتُ إلى تخومِها الشّرقيّة، وقفتُ على أعلى قمّةٍ من قِمَم جبل سَرَيون (حَرَمون)، كان صوتُ خمبابا الرهيب، يصل إلى مسمعيَّ، على صورة رعدٍ قويٍّ يخرجُ من فمٍ العاصفة، وعيناهُ اللامعتان، تومضان برقاً على صدر غيمة الإله أُدُدَ الماطرة. كلُّ هذه الظواهر الغريبة المخيفة، رأيتُها وأنا أتأمّل الغابة، التي تغطّي عشرةَ آلاف فرسخٍ من جبل لابان، (لبنان)، الذي يقع إلى الغرب من جبل سَرَيون (حرمون)، ووراءهما تنامُ الشمس في الليل، لتستيقظَ في الصباح من وراء أرض عيلام. (فارس). عندما كانت عينا خمبابا تبرُقان في الأفق، وصوتُه يرعد كزئير العاصفة، كنتُ أهرب مع قطيع الغزلان إلى المغاور. في كلِّ مرّةٍ نقترب من غابته، كان يرسل لنا تحذيراً، بَرَداً أو مطراً غزيراً، وأحياناً ثلْجاً يُغْلِق علينا مسالك العبور إليها. أسلحتُه تلك، أعطاها له الإلهُ أنليل، فكيف السبيلُ إلى تحدّي الحارسِ خمبابا، الذي يرعاه الإلهُ أنليل!؟.

- كلامُك صحيحٌ يا أنكيدو، بمثل كلامك تحدّث شيوخُ أوروك وعجائزُها، أنليلُ جعل لسانَ خمبابا من نار، وأنفاسَه من لهبِ بركانٍ ثائر. أنت تتحدّث عنه بخوف، لأنّك رأيتَ ما لم أرَه، وسمعتَ ما لم أسمعه. أنت تخاف الموت، لأنّك من البشرَ الذين كتبتْ الآلهةُ فناءهم بالموت، ولكن على البشر، أن يكتبوا خلودَهم بالموت. يجبُ أنْ نموت في سبيل أهدافٍ سامية، تُخلّد اسمينا في ذاكرة أجيال أوروك المُتعاقبة، ألا تريدُ أن يكون اسمك خالداً مُؤبّداً!؟.

- نعم يا صديقي، كلُّ إنسانٍ يسعى لِأن يكون ذكرُه مؤبّداً، ولكنَّ الموتَ يخيفنا جميعاً!.

- أتخشى الموت يا أنكيدو؟.ألستَ ابنَ البراري!؟، أنت مَنْ وُلِد في فمّ الموت، بين فكيه نشأتَ، ومع ذلك بقيتَ حيّاً، لأنّ الحياة كُتبتْ لك، إذا أتاك الموت، فلن يقيك منه برٌّ ولا بحرٌ. لم أكنْ أتوقّع أنْ أرى صديقي أنكيدو الشّجاع، يهتزّ أمام الموت كورقة تهزّها الريح، أعتقدُ بأنَّ حياةَ المدن الناعمة، أنسَتْك حياةَ البراري الخشنة، فتعلّقتَ بالحياة، وصرتَ تهربُ من الموت.

سأمشي أمامك يا أنكيدو!. فإنْ متُّ، فارجعْ إلى أوروك، خبّرْهم عن مغامرات جلجامش، عن أعماله المجيدة التي قام بها، لكي يردُّدها الكبارُ على مسامع الصِّغار، حدّثهم عن لحظاتي الأخيرة، حتّى تذرف نساءُ أوروك الدّموع على ملكهم، الذي ضحّى بحياته من أجل تحصين مدينتهنَّ، بالأسوار العالية، وبالأبواب المتينة، لضمان أمن شعب أوروك، صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً. يكفيني من الحياة، أن أحيا في ذاكرتهم خالداً.

خمبابا يمثّل الشّرَّ في الحياة، يمنع غابتَه عن الأحياء، من الأنس والوحش، عندما كنتَ تقترب من غابته مع قطيع الغزلان، كان يقطع عليك الطريق بأسلحته المختلفة، كما ذكرت، مطر وبَرَدٌ وثلج، هو لا يسمحُ لكائنٍ حيٍّ أنْ يقتربَ منها. أليس من الشرّ أنْ تمنع الخير عن الأحياء، أليس من الظُّلم والشرّ أيضاً، أن يحرمنا من خشب الأرز؟، لنصنع منه أبواباً لبيوتنا وأسواراً لمدننا، هذا حقُّنا كبشر!، أليس من الشرّ أن تمنع الإنسانَ حقَّه؟.

- لأذهبنّ إلى العالم السّفليِّ، إن تخليتُ عنك غمضةَ عين، يا أخي وصديقي جلجامش!. أو تأخّرتُ عن نُصْرتك خطوةً واحدة. ولكنْ عليك أولاً أن تبلِّغَ الإله شمش عن مغامرتك، فغابة الأرز في أرضه، لنحصل على موافقته وبركته، الإله شمش باعثُ النور، قاهرُ الظلام، نصيرُ البشر، يرسل نوره أمام الأشرار والأخيار، ولكنّه يَنْصُر الأخيارَ فقطً، أليستْ رحلتنا مغامرةً على طريق الخير؟. ستواجهنا أخطارٌ كبيرةٌ وكثيرة، أنا أعرف البراري أكثر منك يا صديقي!. يجب أن نحصل على بركته قبل القيام بأيِّ عمل.

- كلامُك صحيحٌ، ورأيُك مليحٌ يا صديقي!. نحن الآن في الهزيع الرابع من الليل، ولمْ يبقَ إلاّ القليلُ على عودة نور الإله شمش إلى الأرض، لمباركة الأحياء دون استثناء، لتشملنا بركتُه مع مَنْ يبارك، علينا أن نقدّمَ له أضحيةً،

أخذا من الحظيرة تيساً خالص البياض من الماعز، وشاةً بيضاء أيضاً. قصدا معبد الإله شمش، دخلا من باب الأضاحي، وجدا أحدَ غلمان المعبد، يقفُ أمام الباب، أمره الملك: أيْ غلام!، نادِ على الكاهن شامتور. تابعا سيرهما في رواق الأضاحي، وجدا شامتور في نهاية الرواق ينتظرهما، رحّب بهما، سلّماه الأضحيةَ. حدّثه جلجامش عن رحلته مع صديقه أنكيدو، لإحضار خشب الأرز، من أجل صناعةِ أبواب أوروك الأربعة.

دخل جلجامش وشامتور قدسَ الأقداس، لكونهما كاهنين، وبقي أنكيدو في البهو الخارجيِّ، رفعا صلاتهما إلى الإله شمش، وطلبا منه المساعدة.

خرج جلجامش إلى البهو الخارجي، بناءً على طلب شامتور، وبقي شامتور وحيداً يقرأُ طِلْسَماً بين يديه، منقوشاً على لوحٍ حجريّ، بعد قليل خرج شامتور إلى جلجامش وأنكيدو، وبلّغهما، بأنّ الإله شمش قَبِل الأضحية، وبسط عليهما رعايتَه خلالَ الرحلة.

في هذا الوقت كانتِ الشمس تشقُّ الأفقَ الشرقيَّ بقرصها الذّهبيّ، تطلّع إليها جلجامش وقال: ليتمجّدْ اسمُك أيُّها الإلهُ السّماويُّ شمش. يا إلهَ الحقّ والعدل، يا صديقَ البشر، يا ناصرَ جلجامش ورفيقه أنكيدو في معركة الأشرار. من أجل الخير نهضْنا إلى طريق الغابة، للقضاء على بؤرةِ الشرِّ، خمبابا.

- قال جلجامش لصديقه أنكيدو: كُنْ مُطمئنّاً يا صديقي!. الإله شمش سينصرنا على خمبابا، وسيردّ عنّا غضبَ أنليل حاميه.

هلمّ إلى القصر لِنُعِدَّ متاع السّفر، يجب أنْ نبدأ رحلتنا بأقرب وقتٍ ممكن.

- لا يأخذنّك الحماسُ يا صديقي!. يجب ترتيبُ شؤون المملكة في زمن غيابك، يجب أنْ تنال رضا أمّك الإلهة ننسون. في التأنّي السلامة، وفي العجلة الندامة.

- بالحقّ تنطقُ دائماً يا أنكيد، لِنعُدْ إلى القصر، نبحثُ تفاصيل مغامرتنا بتأنٍّ. من أين سنبدأ ، وكيف نرجو أنْ تنتهي؟.

- من الإلهة ننسون يا مولاي!، احصلْ على رضاها أولاً.

- هلمّ بنا إلى قصر الإيجالماه، نقف أمام الملكة الحكيمة، إنّها ذات علم غزير، ستنصحُنا بالطريق التي تضمنُ لنا السلامة. سارا معاً إلى الإيجالماه، حيثُ صومعةُ الملكة الحكيمة ننسون، تقدّم منها جلجامش، قال: أيْ مامي!. هلّا أصغيتِ إلى كلامي!. أمامي طريقٌ طويلة، مسالكُها مجهولةٌ عسيرة، معاركُها رهيبة. إلى غابة الأرز، قرّرتُ الرحيل مع صديقي أنكيدو، سنحطّم الشّرَّ الذي يكرهه الإلهين إيا وشمش معاً، سنُحْضِر من هناك خشب الأرز، لنصنع منه أبواباً لسور أوروك.

ذهبتْ ننسون إلى حجرتها، لبستْ أفخر ثيابٍ تليق بإلهة ملكة، وضعتْ تاجاً على رأسها، وطوّقتْ عنقها بعقد من اللازود الأخضر، أمسكتْ مَجْمَرةَ البخور

بيدها، ثمّ توجّهت إلى معبد الإله شمش. هناك فوق سطح قُدْسِ الأقداس، حرقتِ البخور في مكان خاصٍّ، اسمه الصّر، رفعتْ ذراعيها إلى شمش، وسط دخان البخور العابق في المكان، وقالتْ: أيْ شمش العظيم!. لماذا أعطيتَ ولدي جلجامش قلباً قلقاً، دفعه إلى طريقٍ مجهولة، يخوض معارك غريبة!؟، أنت الأعلم بالجواب!. لا تنسَه إذنْ، من يوم رحيلة، وحتّى يوم عودته، عندما يصل إلى غابة الأرز، احمِه خلال المواجهة مع خمبابا الشرِّير، الذي تمقتُه أنت. دع زوجَك آيا إلهةِ الفجر، تذكّرُك به دائماً في النهار. وفي الليل، اعهدْ به إلى حارسِه الإله إيا، إلهِ العقل والحكمة الذي لا ينام.

أطفأتْ ننسون البخور، عادتْ إلى القصر، توجَّهتْ، إلى أنكيدو بالكلام: أيْ أنكيدو القويّ، لستَ ابناً من جسدي، ولكنّي مسحتُك بالزيت المقدّس، فصرتَ ابناً لي بالتبنّي، أنت طفلي الآخر، مَثَلُكَ كمثل طفل لقيطٍ أحضروه إلى المعبد، فصار ابناً للكهنة. أخذتْ تميمةً، وضعتْها في عنقه، ثمّ قالتْ: كُنْ حريصاً على سلامة أخيك جلجامش، دافعْ عنه، وكأنّك تدافع عن إله.

خرجا من قصر الإيجالماه، توجّها إلى قاعة العرش، وجدا الوزير ترحاسيس بانتظارهما، عرض جلجامش عليه مشروع إحضار خشب الأرز، لصناعة أبوابٍ قويّة لأوروك، فالسُّور شارف على الانتهاء.

- قال ترحاسيس: الفكرة كبيرةٌ، ولكنَّها خطيرةٌ، وطريق غابة الأرز طريقٌ عسيرةٌ، لم أسمع بأنّ شخصاً سار عليها وعاد إلى أهله سالماً منصوراً، أو غانماً محبوراً. خمبابا الرهيب، يقتلهم دون رحمة، ودون أنْ يسألهم عن هدفهم من المجيء، أتمنّى على الملك، أن يحفظ حياته وحياة صديقه أنكيدو. بكما أوروك أكثر مَنعَةً من أبوابٍ مصنوعةٍ من خشب الأرز.

- قال جلجامش هذا قرارنا، ولا سبيلَ للتراجع عنه، أنت من ينوب عنّي خلال غيابي، احكم شعب أوروك بالحكمة، والعدل، أنت رأسُ شيوخها، وأكرمُهم عند الإله شمش السّماويّ.

- لو سمح لي مولاي بالقول: إنّ السور لم يكتملْ بعد، قد يحتاج إلى وقتٍ ليس طويلاً، ماذا لو انتظر مولاي أشهراً قليلة، حتّى يكتمل بناؤه!؟، وبعدئذٍ، تسافر وأنت مُطمئنٌ على البناء، وعلى أمن أوروك من الأعداء. خلال غيابك نترك بابين فقط مفتوحين، الشماليّ والجنوبيّ، ونغلقُ الشرقيَّ والغربيَّ ريثما تعودان،

بابان يسهل الدفاع عنهما خلال غيابكما، الذي قد يطول أشهراً يامولاي. بعدما ترجعان غانمَين سالمَين بعون الآلهة، نفتح البابين الشرقيَّ والغربيَّ.

- نِعْمَ الرأيُ يا ترحاسيس!. والآن أرغبُ إليك، أن تُحْضِرَ لي شيخَ كارِ السّلاح.

- أمر مولاي.

دخل شيخُ الكار، خاويَ الأفكار، لا يعرف شيئاً عمّا دُعِي إليه. قال: أمر مولاي مطاع، ولو كلَّفني عبورَ الأصقاع.

- قال الملك: ستعبرُها معنا يا شيخَ الكار!، ولكنْ بسلاحِك الذي سيُصنَع، لا بأذنيك اللتين تسمع، ولا بعينيك اللتين تقشع. سلاحُك هو الذي سيرافقنا في رحلتنا إلى غابة الأرز، نريدُ سلاحاً، يليقُ بي وبأخي أنكيدو.

بلطتان، وزنُ كلٍّ منهما تسعُ دستاتٍ، سيفان، وزنُ كلٍّ منهما ستُ دستات، قوسان من أقواس أنشانَ، وسهاماً من سهام ماري، وجعبتا سهامٍ لا مثيلَ لهما في البلاد. ودرعان من الزَّردِ المحبوك، يُسربلان الفارسَ من أعلى كتفيه حتّى أسفل ساقيه، وخوذتان من حديد، وترسان من دَرَقة جلدٍ متين.

- أمر مولاي، نحتاج إلى شهرين ليتمّ إنجاز هذه الأسلحة. ولكنْ يا مولاي هذه الأسلحةُ لا تقوى على مواجهة حارس الغابة خمبابا، إذا طلبكما للنزال، تحتاجان إلى عونٍ من الآلهة.

- أيّها الشيخ!. لن نواجه خمبابا إلاّ دفاعاً عن أنفسنا، هدفنا شجر الأرز، لا خمبابا، من يسافر على طريق الغابة، يجب أن يحمل سلاحاً، فاحرص على أن يكون قويّاً، يردّ عن حامله سطوةَ غريمه. سوف أختبر السّلاح بنفسي، فكُنْ حريصاً على أنْ ينالَ إعجابي.

خرج ترحاسيس وشيخ الكار، وبقيَ جلجامش وأنكيدو وحيدين. همسَ جلجامش في أذن صديقه: استعينوا على أموركم بالكتمان، خشب الأرز هو الهدف الظاهريُّ للرحلة، ورأس خمبابا، هو الهدف الخفيُّ. إن علم أنليل بما نخطّط له، وضع في طريقنا العراقيل، فلا نصل إلى الغابة مطلقاً.

بقي علينا أن نخبر مجلس الكهنة وشيوخ أوروك، يجب أن يعرف شعب أوروك أنَّ ملكهم يسعى لتحيق السلام والأمن لهم، يجب أن يقتنع شعب أوروك، بأنَّ ملكهم أعظم ملوك الأرض قاطبةً، غداً سأدعوهم إلى اجتماع في القاعة الكبيرة.

تجمّع الشيوخُ والكهنة في القاعة، وكانتِ الإلهة نِنْسون من بين الحاضرين، لم تتكلّم في هذا الاجتماع كما تعوّدتْ، كان المتحدّث الأوّل، الملك جلجامش، فقال: أرحّب بكم في هذه القاعة، التي بُنيتْ بعون الآلهة، لتكون ملتقى حكمة الكهنة، ومحبة الشيوخ في أوروك، أوروك هي حجر الزاوية في كلّ ما نخطّط له ونفعله، خطّطنا لبناء السور، وصار السورُ حقيقةً بعون الآلهة، وهمّة شعب أوروك الغيور، بقي أمامنا تصنيعُ أبواب قويّة، حتى يصبحَ سورُ أوروك أعظمَ سور في العالم، سورٌ لم تعرف شعوب بلاد ما بين النهرين مثيلاً له، والأبواب تحتاج إلى أخشاب، والأخشاب المتوفّرة بين أيدينا من شجرالصفصاف أو الحور، وهما نوعان من الخشب الرَّديء، فلا تصلُح لصناعة أبوابٍ قويّةٍ، لذلك قرّرتُ، أنا وأخي أنكيدو، إحضار خشب الأرز الصُّلْب، من غابة الأرز الموجودة في جبل لابان. (لبنان)

تبادل الشيوخُ بينهم نظراتِ الاندهاش والاستغراب. تابع الملك كلامه، أيُّها الكهنةُ والشيوخ الحكماء: أوروك تملك جيشاً قويّاً مُسلَّحاً مدرّباً، وفيها شيوخ وكهنة حكماء، وأسواق عامرة. دورها فسيحات، ونساؤها مليحات، هي مطمع الطامعين، وقبلة المغامرين من أمثال ملك كيش. لذلك قررتُ الذهاب إلى غابة الأرز برفقة صديقي أنكيدو، هو يعرف الطريقَ إليها، خَبِرَها عندما كان يعيش في البراري، فإذا عُدْنا بالخشب، ضَمِنَّا أمنَ المدينة، وسلامَها من طمع الطامعين.

- قال أحد الشيوخ: أيْ جلجامش!. أنت مازلت حَدَثاً قليلَ التجربة، حبُّ المغامرة دفعك إلى عملٍ، لا تُحمَد عواقبُه، نتائجُه وخيمة. أنت لا تدرك كُنْهَ المغامرة التي عزمتَ على القيام بها، لقد سمعنا أنّ خمبابا، ليس كالبشر الفانين، لديه أسلحةٌ لا يقوى أحدٌ على مواجهتها، الغابة كبيرة، تمتدُّ على عشرة آلاف فرسخٍ، مَنْ يدخلْ إليها، يضلّ، ولا يقدر على الخروج منها، أمّا خمبابا نفسُه، فأنفاسُه نارٌ حارقة، وأنيابُه سهامٌ خارقة، وصوتُه هزيم ريحٍ دافقة. لماذا تُلقي بنفسِك وبصديقِك إلى التَهْلُكة!؟.

أثنتْ أشخارا على عمل جلجامش، وشجَّعتْه على القيام بالرحلة، في أقرب وقتٍ مُمكن، ووصفتْه بالبطل الشجاع الغيور على أمن شعبه، وسلامة مدينته.

عندما سمع جلجامش كلام الشيخ، شكره على حبّه لملكه، وحرصه على سلامته، وأكّد للجميع أنّ جلجامش، لا يخافُ من الموت في سبيل خدمة أوروك.

الإلهة ننسون، والكاهن شامتور باركا رحلتي، وقدّرا غَيرتي على مستقبل شعبي، أتمنّى من الجميع، ألاّ ينسَوني، ويذكروني بصلواتهم. أشكر الإلهة أشخارا على تشجيعها لي. وأؤكّد لها، بأنّي سأعودُ ظافراً.

الإلهة الملكة ننسون، طلبت من الملك أن يُؤجّل الرِّحلة، ريثما تضع نيكالُ حملَها الأوّل. فقال الملك: إذا حملتُ معي صورة ابني، فقد تضعفُ قوتي أمام خمبابا، فأنهزم من أمامه، وأنا لم أعرف الهزيمة قبل الآن مامي!. إنْ ولدَتْ نيكال في غيابي مولوداً ذكراً، فليكنِ اسمُه، أور نيكال.

- قال أحد الشيوخ: إذا لم يكن من الرحلة بُدٌّ، فاحرص على أن تعود إلينا سالماً، اسمك، هو حصن أوروك الحقيقيِّ، أكثر من أسوارها العالية، وأبوابها المتينة. دعْ أنكيدو يمشي أمامك، فالصديقُ الوفيُّ، يُضحّي بحياته من أجل صديقه. سوف نصلّي لكما، لتحرسْكما الآلهة آمين.

- قال جلجامش: غداً مع الفجر، مع يَقَظة الإلهةِ آيا زوجة الإله شمش، سأنطلقُ على طريق الرحلة، ليكونَ ظلُّ جسدي دليلَ قدميّ، لن أتأخّر حتى لا تفْتُر هِمَّتي، ويضعفَ حماسي، الطريق مهما كانت طويلةً، تنتهي بالخطوة الأولى، لن أتردّد، ولن أتراجع عمّا عزمت عليه، فإن عُدْتُ، فرحنا معاً بعودتي وفوزي، وإنْ مُتُّ، فاذكروني دائماً في صلواتكم، وأحاديثكم، وأحزانكم وأفراحكم. حتّى يبقى ذكري مُؤبّداً على ألسنة الأحفاد من بعد الأجداد.

والآن أحضروا لي سلاحي، لنكون على أُهْبَةِ الاستعداد للرحلة في نهاية الهزيع الرابع من الليل.

بارك الشيوخ جلجامش وقدَّموا له النصائح: لا تثقْ بقوتك أكثر مما ينبغي، كنْ حذراً في إقدامك، اكبحْ ضرباتِك في البداية، حتّى تستنزفَ قوّةَ خصمك، دع أنكيدو يتقدّمُك على الطريق، فهو أدرى به منك.

التفتوا إلى أنكيدو وقالوا: أيْ أنكيدو!. إنَّنا نعهد بملكنا إليك، فاحرصْ أن تعود به سالماً، الدليلُ الطيّبُ، هو من يعرف كيف يحمي صديقه على الطريق، أمامَه يمشي، ليقيَه العثرات، أنت الأخبر في حياة البراري، فكنْ خيرَ دليلٍ إليه.

ثمّ قالوا مرَّةً ثانية لجلجامش: فليمنحْك شمش أمنية قلبك، وينوِّلك ما نطقتْ به شفتاك، ليفتحْ سبيلَك كلّما انسدّتْ، وليمهّدِ الطريقَ أمام قدميك، ليشقَّ الجبال أمامك طريقاً، ليحرسْك في الليل، وليُهدِك في النهار، وليُقفْ لوجال بندا حارساً لك، حتى تعودَ إلينا سالماً.

الفصل الثامن

مع غسق الصباح، انطلق الصديقان على طريق غابة الأرز، عشرون ساعةً مضاعفةً مضتْ، عبروا خلالها مسافاتٍ شاسعةً من السّهوب الغربيّة، كانت تلك السُّهوب مجهولةً بالنسبة لجلجامش، أمّا أنكيدو فكان يعرفها كما يعرف ثنيات راحة كفّه، طالما جرى مع قطيع الغزلان على شعابها، واغتذى من نباتاتها، وارتسمتْ في ذاكرته صورُ تلالها ووهادها.

فراح يقصُّ على رفيق رحلته جلجامش، ما يُسليه عن وحشة الطريق، قال له: يا صديقي. لا أعرفُ كيف جئت إلى هذه البراري!؟ ولا أعرف من أين أتيت؟، ولكنَّني وجدت نفسي بطريقةٍ ما، فوق هذه الأرض، ذكرياتُها مدفونةٌ في أعماقي، بعضها بعيدةٌ، يستقرّ في غيابةِ بئر ذاكرتي، وبعضها قريبة يطفو على سطح البئر.وأكثر تلك الذكريات نداوةً، وإنْ بَعُدَ العهدُ بها، ذكرى الغزالة التي أرضعتْني من ضرعها.

كانت تحنو عليّ كما تحنو عليك أمّك ننسون، كانت لا تبتعد عنّي، إذا نفر القطيع، خوفاً من عدوّ طامع بفريسة، ولا تهملني، عندما يهجع القطيع طلباً للراحة، تقودني إلى مناهل الماء للارتواء، وتبقى إلى جانبي حتّى تطمئنّ على سلامتي، وعندما شببتُ عن الطوق، وصرت مستقلاً، أعتمد على نفسي في تدبير أمري، بقيت عيناها ترعياني من بعيدٍ، وأحياناً تقترب منّي، تمسح شعر رأسي بلسانها، كنتُ أشعر بخَدَرٍ لذيذٍ طيِّبٍ، يملأ أعماقي، يغطّي جسدي برعشةٍ مُمتعةٍ، مازلت أطلبها على الرغم من بُعْدِ العهد بيني وبين زمن تلك الذكريات.

هذه الصورة الجميلة، تقابلها صورةٌ قبيحةٌ مؤلمة، للبوةٍ هاجمتِ القطيع في يوم ما، وكانت أمّي الغزالة فريسةً لها، لست أدري!. هل كان بإمكانها الهرب كغيرها، أم أنّ خوفها عليّ شلّ حركتها؟.كنت أتأمَّلُها بعينين دامعتين، وقلب مفجوعٍ بأحبّ الناس إليه. قاومتِ اللَّبوة المفترسة إلى حين، ثم استسلم الجسد إلى إرادة الأقوى، أكلتِ اللَّبوةُ منها ما أكلتْ مع أسدها، ثمّ انصرفا بعيداً.

مشيتُ إلى موقع الجريمة بحذر، فوجدت أنّه لم يبقَ من جسد مُربيتي إلاّ أشلاءُ مبعثرةٌ، ورأسٌ معلّقٌ ببقيّةٍ من جلدها، أخذتُ الرأس، قلّبتُه بين يديّ، حملتُه معي إلى تلك العين التي تراها على بعد مرمى حجرٍ من أمامنا، علّقتُه على جذع شجرة، ورحت أزوره بين الحين والحين، بعد شهر تقريباً، رأيت جُرُذاً، يدفنُ شيئاً ما في التراب، فحفرتُ حفرةً قرب النبع، ووضعتُ فيها رأس مُربتيي، ثمّ وضعتُ صخرةً كبيرةً فوق القبر، حتّى لا أضلّ مكانه مع الزّمن. وكلّما وردْتُ هذا الماء مع القطيع، جلستُ أمام هذه الصخرة، أناجي أمّي الغزالة، كما تناجي الإله شمش السّماويّ.

قطعتُ على نفسي عهداً. لأحمينّ أفراد القطيع، كما يحمي الأخ أخاه، كرهتُ الشّر، وقرّرت محاربته، أيَّنما وجدتُه. كبرتُ وقوي ساعدي، وازدادتْ جُرأتي، حتَّى صرتُ سيّدَ البراري، كما أنت الآن سيِّدُ أوروك، طاردتُ الوحوشَ المفترسة في الفلوات، لأردّها عن صغار الحيوانات.

قفْ هنا يا صديقي!. شاركني زفرةَ حزن أعطّر بها قبر الغزالة، أمّي التي لا أعرف أمّاً غيرها. جلسا معاً قرب صخرة كبيرة، قال أنكيدو: هنا تحت هذه الصخرة، يرقدُ رأسُ التي وهبتْني حليبَ ضرعها، فصرتُ بفضلها رجلاً.

قرب النبع شعر جلجامش بحاجته إلى النوم، فاستلقى أمام جذع شجرة ظليلة، وراح يمضغ أحلامه الورديّة في العودة إلى أوروك ظافراً غانماً، بينما بقي أنكيدو يقظاً، يجترّ ذكريات طفولته الأولى في هذه البراري الواسعة.

- قال أنكيدو لنفسه: كم أتمنّى أن يَردَ قطيعُ الغزلان الماء في هذه اللحظات، لأطمئنّ عليه هل يألفني كما كان في الماضي؟. هل قلَّ عددُه عمّا كان عليه سابقاً؟، ما أجمل تلك الأيّامَ!، التي كنت فيها أرعاه وأحميه من تعدِّيات الوحوش الكاسرة؟. كم أنا توّاق لمعرفة مصيره!، معرفةِ أيِّ شيءٍ عنه!. طوى النوم جفني أنكيدو أيضاً، في زحمة الذكريات والتساؤلات، كما طوى جفني جلجامش قبل قليل.

استيقظ جلجامش من غفوته، أيقظ صديقه أنكيدو.

- قال: كم من الوقت مضى على نومنا يا أنكيدو!؟.

- لست أدري يا سيّدي. نمتُ بعدك بقليل، أتعبتْني ذكرياتُ مُربيتي الغزالة المُحزنة، فاستسلمتُ إلى النوم، هرباً من تلك الذكريات التي رمتْ بثقلها على بساط طوتْه الأيّامُ، منذ أنْ عرفتُ حياة البشر.

- أمّا أنا، فقد غرقتُ في النوم رغماً عنّي، تعَبُ الرِّحلة أضناني. ولولا الحلم الذي هزّ كياني، لما استيقظت.

- حُلْمٌ!؟. إروه لي.

- رأيت غيمةً سوداء، قادمةً من الجهة الغربيّة، ريحٌ عاصفةٌ كانت تدفعها نحونا باستمرار، عندما وصلتْ فوقنا، حجبتْ عنّا ضوء الشمس، أظلم الكون من حولنا، صرتُ أراك بصعوبة، البرقُ كان يخطف الأبصار، والرعد يُصمُّ الآذان، دام الحال قليلاً، ثمّ انقشع كلُّ شيءٍ، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ.

- ربّما يكون الحلم رسالة تحذير لنا من الإله أنليل. رسم لنا فيها ما هو مسموح لنا، وما هو ممنوع علينا، أعتقدُ أنّه سمح لنا بالحصول على حاجتنا من خشب الأرز فقط. ليس في الحلم ما يُقلقُ.

- هيّا يا صديقي!، لنتابع رحلتنا، مازال شمش السّماويّ، يرسل إلينا نوره، لنبصر طريقنا.

تابعا سيرهما، على طريقٍ مستقيمةٍ، وسط سهوب تحفّ بها داراتٌ من الملح، فبدتْ كأنّها بيّاراتٌ من ثلجٍ أبيض. في تلك الدارات، انعدمتِ الحياة الحيوانيِّة والنباتيِّة، مشهدٌ لم يألفْه جلجامش من قبل، شعر بحاجته إلى الخروج من وسط دارات الملح تلك، سأل أنكيدو: أمَا زالتِ الطريقُ طويلةً وسط هذه المالحِ القفراء النفراء؟.

- أجاب أنكيدو: خلف تلك التلال واحةٌ شجراءُ فيحاءُ، نجدُ فيها طعاماً وماء، سنمضي بها ليلتنا الأولى بين صيادين، طالما طردتُهم عن قطيع الغزلان، عندما كنت راعياً له. أتمنّى أنّ تكون المدنيّة قد غيّرتْ هيئتي، فلا يتعرّفون عليَّ!.

نصف ساعة فقط، كانا على تخوم بيوت الصيادين، كانتْ بيوتاً مبنيَّةً من طينٍ، تناثرتْ على مساحة ليستْ كبيرةً، حول ساحةٍ ليست واسعةً، في وسطها حوضُ ماء، وعلى أطراف ذلك الحوض شجيراتُ رمَّانٍ، وتين، وإلى يمين الساحة، اجتمع عددٌ من الرجال، تحت ظلّ نخلةٍ وحيدةٍ سامقة.

عندما اقتربا من الرجال، نهضوا جميعاً، تأمّلوهم بعين الانبهار والإعجاب، قال أحدهم: إنّهم من الآلهة!. انظروا إليهما، لم أرِ في حياتي أكمل منهما رجولةً وفحولة!، هما قادمان من الشرق، ولكن من أين انطلقا!؟. وإلى أين يتوجَّهان؟.

قال آخر: الماءُ تكذّب الغطّاس، سننتظر قليلاً، ريثما يصلان، أهما صديقان أم عدوّان؟. قال ثالث: يبدو أنَّهما صديقان، نظراتُهما، خطواتهما تقول: إنَّهما عابرا سبيل.

وصلا إلى الرجال المتأهِّبين المتشوِّقين لمعرفة هويَّتهما. ألقيا عليهم تحيّةَ المساء، ونظراتُهما تسبرُ وجوه الجميع بحَذَرٍ يَقِظٍ. قال جلجامش: عابرا سبيل، يرغبان قضاء ليلتهما في واحتكم. فردّ أحد الرجال: أهلاً وسهلا، تفضَّلا إلى بيتِ كبير الواحة.

في المضافة المصنوعة من جلود الحيوانات، كان شيخٌ طاعنٌ في السّنِّ، ومعه ثلاثة رجال أحدث منه سنّاً، يجلسون على بساطٍ منسوجٍ من صوفٍ خشنٍ أحمرِ اللون، وقف جلجامش وأنكيدو أمام الخيمة، تبادلا النظرات مع رجال الخيمة. قال شيخُ الخيمة بنبرةٍ حذرةٍ مُرتعشةٍ: تفضلا ترجَّلا عن حصانيكما.

- قال جلجامش: أيّها الشيخُ!. أمامَك ملكُ أوروك، ثلثاه من الآلهة، وثلث من البشر، كاهنُ قولاب، وابن الإلهة ننسون، والمؤلّه لوجال بندا. ورفيقي ابنُ السموقان إله البراري والقطعان. ألا تعرفون كيف تستقبلون أولاد الآلهة!؟.

ارتجف الشيخ ورفاقه لدى سماع لهجة جلجامش الصارمة، أشار جلجامش إلى أحد الرجلين، أنْ تولَّ أمر الجوادين!. سارا بهدوء، جلسا في صدر الخيمة، وهما بتمام سلاحهما.

سجد الشيخ ورفاقه أمام الملك جلجامش، اعتذروا عمَّا بدر منهم من تقصير. قال الشيخ: نحن منقطعون في هذه الفلاة، حذرون من كلِّ مَنْ يقصد واحتنا. فقط ارتبْتُ لدى رؤيةِ رفيقك، فأخذتني المفاجأةُ. توجّه إلى أنكيدو بالسؤال: ألستَ ابنَ البراري، راعي قطيعِ الغزلان!؟. منذ سنين خلْتُ لم نرك، انقطعتْ أخبارك عنّا فجأةً. طالما ألهبتَ ظهورَنا، وكسَّرتَ عظامنا بعصاك، إن اقتربنا من قطيعك بهدف الصيد، لعلّك أتيتنا اليوم، تحمل لنا شرّاً!.

- سأله جلجامش: ولماذا يريدُ بكم شّراً؟.

- لأنَّنا اصطدنا من القطيع كلّ ما وجدناه في هذه السهوب، كم فرحنا عندما رأينا القطيع بلا راعٍ يرعاه ويحميه!، قلنا لأنفسنا: فلنستغلّ غيابَ راعيه، ابنِ البراري، قبل عودته.

- وما النتيجةُ التي وصلتُم إليها؟.

- تفرّق القطيع، ولم يبقَ منه إلاّ بعض الغزلان الشاردة.

ضرب أنكيدو على فخذيه بكفيه، وزفر زفرةً قويّةً من شدقيه، ثمّ قال:

- يا لكم من أشرار!. الجشع يعشّش في خلايا أجسادكم، إنّكم أغدرُ من ذئاب البراري، تقتلون تلبيةً لشهوة القتل عندكم، لا لتشبعَ بطونكم، التفت إلى جلجامش، وقال: اللَّبوةُ التي حدّثتُك عنها في الطريق، اصطادتْ فريسةً واحدة، أكلتْها مع أسدها، ثمّ انطلقا غير آبهَين ببقيّة أفراد القطيع، أمَّا هؤلاء، فذئابٌ بشريَّة، لا يرتوون من دماء ضحاياهم. لقد انتهى القطيع!، فماذا تصيدون الآن!؟.

- قال الشيخ: الصيد بات قليلاً، نقوم بالإغارة على قطعان العوريب (البدو) بين الحين والحين، فنسرق منهم ما يسدُّ رمقنا، ويمسك أجسادنا، ولكنّهم ذوو بأسٍ وشدّة، إن تمكّنوا من رجالنا، قتلوهم.

أحضروا الطعام على قصعةٍ من فخار، لحمٌ مسلوق حديثاً، مازال بخار مائه يعبق برائحة نفّاذة، لم يعهدها جلجامش. سألهم:

- قال جلجامش: ما نوع صيدكم!؟.

- قال الشيخ: ذئبٌ من جماعة الذئاب التي ترتاد منهل الماء في الوادي المجاور، فنصيد منها ما يقع في شباكنا،

- قال أنكيدو: من لحم الغزلان إلى لحم الذُئبان، لتحلَّ عليكم لعنةُ الآلهة. ستأكلون لحم بعضكم بعضاً في يومٍ ما. ارفعوا هذا الطبقَ من أمامنا، سيّدي الملك لا يأكل لحم الذئاب، وأنا لا أقرب اللحم مطلقاً، طعامي مما تنتجه الحيوانات، أو مما تجود به النباتات.

التفت إلى جلجامش وقال همساً: مولاي الملك! أشمُّ رائحة الغدر تفوح نفّاذةً من جلودهم، هلمَّ لنتابع مسيرنا ليلاً، في هذه الأمصار، الليل خيرٌ لنا من النهار، حَدْسي يقول لي: لا تنمْ في وَكْر الأشرار.

- همس جلجامش في أذنه: لندع الشيخ وصديقيه يأكلون أولاً.

- قال جلجامش: كلوا أنتم، أنا ورفيقي لسنا بجائعَين.

تقدّم الرجال الثلاثة، يأكلون. بعد ربع ساعة أضحوا مخدّرين، أدرك جلجامش وأنكيدوا المؤامرة التي حاكها اللصوص ضدّهما.

نهضا معاً، غادرا الخيمة، وجدا الخيمة مطوقةً من جهاتها الأربع. كلاهما كان توّاقاً للطّعان، وملاعبة السيف والسنان، في ساحة الميدان، كانا على أهبة

الاستعداد، مازال كلّ منهما، يلبس درعه، ويتنكّب ترسه، وغمده يمسك سيفه. قال جلجامش: طال انتظاري للطعان يا أنكيدو!، لقد آن الأوان، لنتخذ وضعية القتال الدائريِّ يا صديقي، ليحمِ كلٌّ منّا ظهر الآخر، أقسم بالإله شمش لأعطينّهم درساً، لن ينسَوه مدى حياتهم. حسناً يا صديقي ومليكي: وأنا توّاقٌ للانتقام لأخوتي القتلى على أيدي هؤلاء المجرمين الأشرار.

كانا اثنين مقابل مئة مقاتل، كلٌّ واحدٍ منهم يملك مهارة القتال. وقف جلجامش وأنكيدو هادئين في مكانيهما، ليبدأ اللصوص الهجوم. تقدّم عشرةٌ من اللصوص، ضاربين نطاقاً حولهما، انتظراهما حتى وصلوا على بعد خمس خطوات، فانقضّا عليهم كالعاصفة، المقاتلون العشرة كانوا صرعى مضرجين بدمائهم خلال دقائق معدودات، هجم بقية المقاتلين من الصيادين.

اشتدّ لسع سيفي جلجامش وأنكيدو بهم، حتى ملأتْ جثثُهم أرض المعركة، هرب الباقون، وبقي جلجامش وأنكيدو، كصخرتين منيعتين وسط المعركة. أمسك جلجامش برجل شيخ من المهاجمين، هزَّ ذقنه من لحيته، وقال له: يا شيخ اللصوص!. أخبرني عن تفاصيل مؤامرتكم الخسيسة، وإلاّ قطعتُ رأسك بسيفي هذا، وسقيت دمك للكلاب.

اعترف الشيخُ، بأنّهم وضعوا لهما في الطعام مادةً مُخدِّرة، فإذا ما تمَّ تخديرهما، قطعا رأسيهما وهما مخدّران.

- سأله جلجامش: ولمَ هذا الشَّرُّ كلُّه!؟.

- أجاب الشيخ: أنكيدو بالنسبة لنا عدوٌّ، طالما طردنا عن القطيع، وأثخن الجراح في أجساد الصيادين، فأردنا الانتقامَ منه. أمّا أمتعتُكم فهي غنيمةٌ جاءت إلينا على قدميها، فطمعنا بها.

- قال أنكيدو هِبني رأسَه ياسيِّدي، هو رأسُ الأفعى. فلا تقطعَنْ ذنبها وتترك رأسها، هو من خطّط، وأتباعُه نفّذوا، طمعوا بسلاحنا يا مولاي الملك!، وبالجوادين وبما يحملان، إنّهم لصوصٌ، وواحتُهم هذه واحة اللصُّوص.

- رأسُه لك يا أخي وصديقي!.

- قال جلجامش: أين الفرسان أيُّها اللصُّ!.

- موجودان يا مولاي. الرحمةَ والمغفرةَ منك ياسيِّدي.

- قال أنكيدو: لا يستحقُّ الرحمةَ إلاّ أهلُ الرحمة يا شيخ الأشرار، وهوى بسيفه على هامه، فوضع رأسَه قدّامه.

دعا أنكيدو الجوادين، على صوت صهيل، يشبه صوت صهيل الخيل، ردّ أحد الجوادين بصوت صهيل مشابه، جاء الجوادان إلى جوارهما، ركبا، ثمّ تابعا طريقهما إلى بلدة اسمها حاذر، تقع على ملتقى طرقٍ تجاريّةٍ، فيها خانٌ واسعٌ. وجدا فيه كلَّ ما يحتاجان إليه من مؤونة الطريق، بعد أن سرق لصوص الواحة، ما كانا يحملانه من زاد.

أمضيا في تلك البلدة يومين، سمعا أخباراً أسعدتهما، من التجّار الذين التقياهم في الخان، عن أوروك، المدينة العظيمة، التي يحكمها جلجامش، الملك الذي ثلثه بشريّ، وثلثاه من الآلهة، وقصصاً عن ملكٍ اجتمعتْ فيه الحكمة والذكاء، والقوة أمام الأبطال الأشداء، والضعف أمام النساء، بعضها من الواقع، وبعضها من نسج الخيال.

كانا حريصَين على كتمان شخصيّتيهما، والغايةَ من رحلتهما، كلُّ من كان يسألهما عن مَقْصدهما، يُسمعانه جواباً واحداً: قاصدان أوغاريتَ على ساحل البحر.

بعد مسير سبعين ساعةً مضاعفةً وصلا إلى دمشقو(دمشق) . أمضيا فيها أسبوعاً . قال عنه جلجامش لوالدته الإلهة ننسون بعد عودته، : بأنّه من أمتعِ الأسابيع التي قضاها خلال رحلته إلى غابة الأرز، فهي غوطةٌ غنّاء، غنيّة بالماء، في كلّ الأنحاء، أشجارها ظليلة، وأنسامها عليلة، تغرّد فيها الأطيارُ طوال النهار، وفي الليل أمام ضوء القمر، يحلو السّمر. أهلها كرام، من ذوي الأنعام، يعبدون الإله أدُد، وله في المدينة معبد عظيم.

غادرا دَمَشْقو باتجاه الغرب، بعد خمس ساعاتٍ مضاعفةٍ من السيرِ الحثيث، بدأتْ سفوح جبل سَرَيون الشديدة الانحدار، تحول دون مضاعفة سرعتهما، توقّفا للرّاحة في قرية جبليّة اسمها كفر جندل، أهلها كرام مضيافون، وللضيوف محبّون. ناما فيها ليلتهما تلك. في اليوم الثاني، تابعا طريقهما في شعابٍ وعْرةٍ ضيِّقة، كثيرةِ المنعطفات. كان أنكيدو خبيراً بتلك الشعاب، يسير في المقدّمة بكلِّ ثقة، حتّى وصلا بعد ست ساعاتٍ مضاعفة، إلى قرية تنام في حضن سفح جبلٍ منحدرٍ، وقد زنّرتْها الأشجار بالخضرة. جدران بيوتها من حجر أبيض، سقوفها من آجرٍّ أخضر.

وقفا يتأمّلان المنظر الجديد، الذي يثير التساؤل!. كلُّ شيءٍ في القرية اكتسى بالخضرة. كانت شوارعُ القرية خاليةً، إلاّ من صِبية وبناتٍ صغار، يلعبون بمرحٍ جَذْل، غيرَ عابئين بأصوات نواح آتيةٌ من الجهة الغربيّة للقرية، تقدّما إلى جهة الصوت، شاهدا منظراً مثيراً للدهشة، فتاة تلبس ثياب العرس الخضراء اللون، والناس من حولها يجهشون بالبكاء، بثيابهم الخضراء أيضاً، !. قال جلجامش: ماذا أرى!؟. عرسٌ وبكاء!. يا للبلاء!. تقدّم من أحدهم سائلاً: لِمَ هذا البكاء!؟. وكأنّكم في العزاء!، قال الرجل: ليتنا في عزاء، نحن في شقاء!، يجدّده لنا في كلّ عام، إله الشّر خمبابا. إنّه يسكن في غابة الأرز، القريبة من هنا، يفرض علينا أضحيةً بشريّة كلّ عام، نقدّمها له عند اكتمال بدر شهر أيلول، وقعت القرعة في هذا العام، على هذه الفتاة، سنزفّها إليه بالنواح والبكاء، حتّى بوّابة الغابة في الجهة الشماليّة، مسيرة ساعة من هنا.

- قال جلجامش: هل تسمحون لنا بمرافقتكم؟.

- قال الرجل: تفضلوا شاركونا أحزاننا. ولكم عند الإله أندوني، الأجر والثواب، إنّه إله انبعاث الحياة، يجدّدها في شهر نيسان من كلّ عام، حتّى لا تنتهي على يد الإله موت، الذي لا يشبع من قبض الأرواح.

- قال أنكيدو لجلجامش: إذا تمكّنا من خمبابا، وخلّصنا سكان هذه القرية منه، نلنا محبّتهم واحترامهم.

- مواجهة الشّر عملٌ نبيل يا أنكيدو!. والإقدام عليه يبهج النفس، ويحثُّها على التضحية،

- ما شعرت بالحماس على مواجهة خمبابا قط، مثلما أشعر به اليوم، دموع والديْ الفتاة، أثارتْ في نفسي إحساساً بالرغبة لنصرة المظلومين، والوقوف إلى جانب المستضعفين.

مواجهة الظالم القويِّ، تجعل منك إنساناً قويّاً.عشتُ حياتي كلّها أدافع عن قطيع الغزلان المستضعف، أمام الأسود والنمور والذئاب والضباع، والصيادين الذين قاتلناهم في الواحة.

- على بركة الإله شمش، نصير المستضعفين، خرجنا يا صديقي، سنفعل ما يرضيه، ونعفّ عمّا يغضبه.

سارا مع موكب عروس خمبابا، حتّى وصل الموكب إلى بوّابة الغابة، هناك أمام البوابة، قبّل والدا العروس ابنتهما قبلة الوداع، ثمّ تركاها بين يدي المجهول، لتستقبل قدرها.

انتصب جلجامش بقامته الفارعة. خاطب الجميع: أيّها الناس!. أنا جلجامش ملك أوروك، وهذا صديقي أنكيدو، جئنا من بلاد أور، لنقضي على الشرّ أيَّنما وجدناه، سندخل مع خمبابا في معركةٍ مصيريّة، إمّا الموتُ وإمّا النصر، عودوا إلى بيوتكم، صلّوا للإله أندوني، لينصرنا على عدوّكم وعدونا. بعون الإله شمش السّماويِّ، سأقضي عليه مع صديقي أنكيدو، وسأعيد لكم ابنتكم.

غادر الجميع المكان، تاركين وراءهم همهماتٍ يائسةً، على مصير هذه الفتاة البائسة، التي ستواجه مصيرها مثل عشرات العذارى اللواتي سبقنْها على طريق المجهول.

تأمّل جلجامش البوّابة المصنوعة من خشب الأرز بخبرةِ نجارين ماهرين، لم يشأْ تحطيم البوابة، فهي تحفة فنيّة رائعة، فتحها بقراءة طِلْسَمٍ زوّده به الكاهنُ شامتور، كاهن معبد شمش السّماويّ في أوروك، دخلا الغابة، راحا يتجولان في ممراتِها، لعلّها ترشدهما إلى الأماكن المحتملة، التي يتواجد فيها خمبابا، ولكنّهما لم يعثرا له على أثر.

- قال أنكيدو: مهلاً يا مولاي!، لن نتمكّن من التوغُّل في الغابة أكثر من ذلك، أخشى من الضياع بين أدغالها. ومما يثير قلقي، أنّي لا أسمع لخمبابا حسّاً في الغابة، وهو الذي كان يمنع الاقتراب منها، سواء أكان المقترب حيواناً أم إنساناً؟، إنّ في الأمر لسِرّاً. هل عرف بقدومنا إليه؟، أو هل أدرك بحدسه الشّرير هدفنا؟. فراح يخطّط لاصطيادنا بفخٍّ جهنّمي من أفخاخه السِّحريّةِ الشريرة!.

لنعد إلى مدخل البوابة، هناك مكان مفتوح واسع، يسهل علينا فيه المواجهة والمناورة، لنخترْ نحن مكان المواجهة، بدلاً من أن يفرضه علينا خمبابا، يجب أن نقوم بعمل يُغيظه، ليدخل المعركة معنا مضطرباً. يجب أن نفاجئه بوجودنا، في وسط عرينه الحرام على الحيوان والإنسان.

- قال جلجامش: يجب أن نثير ضجّة تثيره. أخذ بلطته التي تزن ثلاثين مثقالاً، وراح يهوي بها على جذع شجرة أرز ضخمة. سمعا صوتاً كصوت رعد السّماء يقول: من تجرّأ على اقتحام غابتي، وقطْعِ أشجاري!؟.

توقّف جلجامش، وراح الصديقان ينتظران بين الأدغال. في هذه اللحظات احتوى النوم جلجامش، تهيّأ له بأنّ الإله شمش يناجيه، يهدّئُ من روعه، ويشدُّ من عزيمته: أنْ امض جلجامش في طريقك، لا تخف من غريمك، سيفي سيكون في يمينك.

حاول أنكيدو إيقاظه، ولكنّ النوم غلبه.

- قال له بصوت فيه القوّة والرجاء: مولاي سيّدَ قولاب، ملك أوروكّ. أنِ استيقظْ. الإله شمش، يلمُّ نورَه عن الغابة، لا تجعلْ أمَّك ننسون، تلبس ثياب الحداد عليك.

استيقظ جلجامش، حمل سلاحه، وراح يزرع الأرض كثور برّي يتهيّأ للنطاح، قال لأنكيدو: وحياة أمّي التي ولدتني، وروح أبي لوجال بندا المؤلّه. لن أعود إلى أوروك، حتّى أقاتل هذا الرجل، إن كان رجلاً، والإله إنْ كان إلهاً.

- قال له أنكيدو متضرّعاً: إني خائف عليك يا مولاي، أنت لا تخافُ خمبابا لأنّك لم تره، أمّا أنا فقد رأيتُه، أنيابه أنياب تنين، جسده كجسد الأسد الضخم، هجومه كالطوفان، خطواته تطأ الأشجار، كما تطأ أعشاب السهوب بقدميك، هل سأعود إلى أوروك لأقصّ على شعبها بطولات ملكها.

- لم تأتِ ساعتي بعد يا أنكيدو!، ولم يُجهّزْ الكتّان، ذو الثلاث طبقات كفناً لي، شُدَّ أزري وسأشدُّ أزرك، نحقّقْ ما جئنا من أجله، هل نسيتَ العهد الذي قطعناه معاً على أنفسنا!؟. لن نخشى عدوّاً عندما نكون معاً؟. القِ عنك الخوف. عندما تبدأ المعركة، يتلاشى خوفك، خُذ بلطتك واهجم معي. إنّ من يتركِ القتال قبل نهاية المعركة، فلن يعيش بسلام.

خرج خمبابا من مَكْمَنِه، فبدا لهما كائناً أسطوريّاً، هزّ رأسه، ثبّتَ عينيه الناريتين على جلجامش، ارتعب جلجامش. استغاث بشمش العظيم: يا شمش العظيم!. لقد سلكتُ الطريق التي أمرتني بها، ولا مفرّ من المواجهة، أرسلْ لي مدداً من قوّتك.

سمع شمشُ العظيم صلاة جلجامش، فهبّتْ ريحٌ جنوبيّةٌ لافحةٌ محمّلةٌ بغبارٍ كثيف. لطمتْ عيني خمبابا، فغشيَ بَصَرُه، وضاقَ نَفَسُه، فشُلَّتْ حركتُه، فلم يعد قادراً على الفرِّ والكرِّ، فرفع راية الاستسلام، ركع على رُكبتيه وهو يقول: من هما هذان البشريّان اللذان يقاتلان كالآلهة!؟.

- أنا جلجامش ملك أوروك، ابن الإلهة ننسون ولوجال بندا المؤلَّه. ملوك الأرض تعرفني، وتخشى الأنسُ والجنّ نزالي.

- قال خمبابا: ليتمجَّدْ اسمُ الآلهة. جلجامش!. دعني أعيشُ بسلام، أكنْ لك عبداً، وتكنْ ليَ سيّداً، غابتي حرامٌ على غيرك، حلالٌ عليك، اقطع من شجرها ما تريد، أبواباً لأسوار مدينتك أوروك، أبواباً لقصرك، هي وقفٌ إليك، تصرّف بها كما تتصرّف بمدينتك.

- تراجع جلجامش، شعر بالرّحمة تتسلّل إلى قلبه، قال لأنكيدو: العفو عند المقدرة من شيم الكرام، لنتركه وشأنه، ما رأيك يا صديقي أنكيدو؟.

- لا تقطعنْ ذنب الأفعى وترسلها يا مولاي، جئنا من أوروك لنقضي على الشرّ، ماذا سنقول لضميرينا، إذا بقي الشرّ حيّاً، يعيث في الأرض فساداً!؟. اقتله يا مولاي واجعل دمه المسفوح على أرض الغابة، أضحيةً لإله الخير شمش في العالم العلويّ، كما سفح دماء مئات الضحايا البشريّة، لإلهة الشّر في العالم السفلي أريشْ كيجال. انظر إلى الفتاة التي تنتظر مصيرها على يديه. أينَ العهد الذي قطعناه على أنفسنا أمام أهلها؟. لا تتردّد يا مولاي!.

- قال خمبابا: لعنةُ أنليل تحلُّ عليك أيُّها الأجيرُ التابع!.

تقدّم جلجامش من خمبابا، استلّ سيفه، ضرب عنقه، وثنّى عليه أنكيدو بضربة من بلطته ذاتِ الثلاثين مثقالاً، فخرّ خمبابا صريعاً.

- ناجى جلجامش الإله شمش:يا إله الخير!.لقد حقّقتُ، أنا وأخي أنكيدو، أنبل هدفٍ من رحلتنا، مات الشّرّ في أرض الأحياء، وأشرقتْ عليها شمسُك، شمسُ الخير. فلتخلّدنا السّماء ولتذكرنا الأرض.

غادرا الغابة، فكّا قيود الفتاة، هبطا بها الطريق الجبليّة الشديدة الانحدار بحذرٍ، حتّى وصلا إلى القرية، فرح أبناءُ القرية أيّما فرح، بعودة ابنتهم سالمةً. قال والد الفتاة: ابنتي كانت ميتةً، فعادتْ إلى الحياة بفضلكما، أقدّمها لكما، لتكون أمَةً تخدمكما.

- قال أنكيدو: عمل الخير يُفْسدُه الأجر، لتبقَ ابنتُك في بيتك، زوّجها بمن تحبّ، أنا وأخي جلجامش نُصْفِي الودَّ لزوجينا. هما تنتظران عودتنا بفارغ الصَّبر، نحتاج منكم فقط عشر عربات تجرّها الثيران، لنقل خشب الأرز، الذي نحتاج إليه في تحصين مدينتنا.

الفصل التاسع

بعد سبعة أيام كانت العرباتُ العشرُ جاهزةً على طريق العودة إلى أوروك. وصلت القافلة إلى باب أوروك الغربيّ، تأمّل جلجامش البرجين اللذين بنيا في غيابه، أُعجب بهما، قال لنفسه: الأبراج لم يَعُدْ ينقصهما إلاّ الأبواب، كلُّ شيءٍ سيكون جاهزاً، خلال أشهر، أوروك ستكون أمنعُ مدينة في بلاد الرافدين. دخلتِ القافلة إلى داخل المدينة، صعد المنادي بوقو على سورها، وراح يطوف على طوله، وهو ينادي بأعلى صوته: الملك جلجامش عاد إلى أوروك سالماً غانماً مع رفيقه أنكيدو.

فرح أهلُ أوروك بعودة الملك وصديقه سالمَين، قدّموا الأضاحي، رفعوا آيات الشكر للآلهة، على رعايتها لهما، خلال رحلتهما الطويلة المحفوفة بالمخاطر.

جلس الملك وصديقُه أنكيدو في قاعة العرش، لاستقبال المهنئين لهم بالعودة فائزَين. بعد أنْ قتلا الشرير خمبابا، وأحضرا خشب الأرز، قاطعَين أكثر من مئة ساعة مضاعفة.

شعر النّاس بالأمن، بعد أنْ صار لمدينتهم أبوابٌ قويّة، وسورٌ عالٍ، وملكٌ رحيمٌ عادل.

جاء مجلسُ شيوخ المدينة للتهنئة، ومجلس الكهنة للمباركة، باستثناء أشخارا كاهنة معبد عشتار، وشنشتور كاهن معبد أنليل، قدّم الكهنةُ الباقون هديةً للملك، عبارة عن حِلّةٍ من قماش كتّانٍ أخضر، ومثلها لأنكيدو. قال الكهنة للملك: أيّها الملكُ المُطهَّر من العيوب، الخالي من الدنس، العادل لشعبه، المدافع عن الخير، رأى مجلس الكهنة، أنْ يُسْبِغَ عليك لقب جلَّ حمدك، الذي تفسيره (المُطوّب).

شكرهم جلجامش، وأكرم حضورهم، وقال لهم: أيُّها الكهنةُ النبلاء!، والشيوخُ الحكماء. الملك بأعوانه، اشكروا صديقي أنكيدو، فقد كان سيفي الذي أذُبُّ به عدوّي، وفأسي التي حمتْ ظهري، ومِجنّي الذي دفع الخطرعنّي

مـرّاتٍ كـثيرةً علـى طريـق رحلـتي الطويلـة إلى بـلاد الأحيـاء، اشـكروا الشـيخ ترحاسيس، الذي حكم أوروك خلال غيابي بالعدل والحكمة، اشكروا الإله شمش السّماويِّ قبل كلِّ شيء، فهو الذي زوّدني بأسلحته الفتّاكة خلال مواجهتي لخمبابا، أمّا أنا، فسوف أبني في حديقة قصري، مِسلّةً لوالدتي الإلهةِ ننسون، لأنّ بركتَها كانت ترافقني، وصلواتُها كانت تحميني في حِلّي وترحالي، هي شفيعتي عند الإله شمش، وعضيدتي وسندي.

دخل الملك بعد عودته من الرحلة، إلى مخدع زوجته الحبيبة نيكال، وراح يقصُّ على مسامعها أحداث الرحلة التي صارت ذكرى، ونفسُه تمور بشعورٍ من الاعتزاز والفخر، على ما أنجزه من أعمال مجيدة جعلتْ محبيه يفخرون به، وأعداءه يغتاظون منه.

سلّم جفنيه لأحلام النوم، بعد أن ودّعته أحلام اليقظة، التي طالما داعبتْ عينيه قبل الرحلة، بعد أنْ صارت حقيقة يتحدّث عنها الناس.

شاهد حلماً سعيداً في نومه. كان هو وصديقه ورفيق رحلته أنكيدو بطلي أحداثه،.

رأى الإلهة عشتار، متجسّدة في شخص أشخارا، تقف على المِسلّة التي قرّر بناءها لوالدته الإلهة ننسون أمام القصر، نادتْ جلجامش بأعلى صوتها:

- يا جلجامش!. أيّها العائد الظافر من بلاد الأحياء. جئتُ من السّماء، لأبارك لك، بما حقّقتَه من أعمالٍ عظيمة، رفعتْك إلى العلاء، لقد حاربت اللصوص، وهزمتهم، وقتلت خمبابا، وحرّرت ضحيته، وأحضرت خشب الأرز لصنع أبواب سور مدينتك. فأردتُ إكرامك، ورفع مرتبتك، لتكون نِدّاً للآلهة.

كُنْ عريسي، أكنْ لك زوجةً، سأقدّم لك عربة من اللازورد، عجلاتها من ذهب، خيولها من عفاريت العاصفة، حوذيّها من شعاع آنو الثاقب، بركة والديَّ، الإله آنو، وأمّي الإلهة أنتوم، ستحلاّن عليك. عندما تدخل حرم بيتي، عتبة البيت ستقبّل قدميك، سريري سيكون جِنانَك، وجسدي مهادَك، وصدري وسادَك.

سأهب الخصب لماشيتك، لتلد التوائم كلّ عام، حميرك ستصبح بقوة البغال، ثيرانك تحرث الأرض بلا كِلالٍ، أبقارك تحلب عشرة شهور، غلالك ستكون تلالاً، وأشجارك تنوء بالثمار.

- قال لها جلجامش: هذه المِسلّة التي تقفين عليها، بنيتها لمامي، الإلهة ننسون، من سمح لك بالوقوف عليها!؟. كلّ إغراءاتك، لا تساوي عندي ابتسامةً من نيكال زوجتي، لا مكان لك في قلبي، وأنت لا تعنين ليَ شيئاً. من أين سأحضر لك العطور التي ترضي غرورك؟، كيف لي أن أعدّ لك المائدة السماوية، التي تطلبينها كلّ يوم؟، ومن أين سأحضر لك خمرة سيدوري مشروباً يليق بالملكة عشتار؟. وما هو المصير الذي ينتظرني معك؟. إنّ مصيري معك، سيكون مثل مصير أزواجك السّابقين.

أنسيتِ ماذا فعلتِ بزوجك دوموزي الراعي!؟، الذي أسلمتِه لعفاريت العالم السّفليِّ، وراح الناس يندبونه ستة أشهر، من أيلولَ إلى نيسان، ليعود إليك في عيد الخصوبة، ليخصب فرجك، ثم ترسلينه مجدّداً إلى حيث جاء.

أم سيكون مصيري مصير البستانيّ إيشلانو، الذي قدّم لك الفاكهة، وأجلسك على المائدة العامرة بأطايب الطعام، لقد مسختِه خلداً أعمى يسكنُ التراب.

أم سيكون مصيري مصير أسد البراري، الذي حفرتِ له المصائد، لتذلّي قوته، وتشلّي حركته.

أم مصير طائر الشقراق البديع، ذي الريش المتجانس الألوان، كسرتِ جناحيه، فحرمتِه من متعة الطيران، وفرضتِ عليه العيش في الكهوف.

أم مصير الحصان البريّ، الذي وضعت في فمه اللجام، وسلّطتِ على جسده السوط والمهماز، تلهبين بهما جنبيه، وأنت تركبين ظهره في الفيافي والقفار.

لن يكون نصيبي معك إلا مثلَ نصيب هؤلاء. هيّا انزلي عن مِسلّة مامي، قبل أن ينفذ صبري، ويستشيط غضبي.

- قالت له: الويل لك يا جلجامش!. أعلى أسيادك الآلهة تتطاول!؟. يا لك من خلاسيٍّ آبق!. أنسيت أنّك خليط من الآلهة والبشر؟، أم أن نجاحاتك زرعتْ فيك الغرور، فرحتَ تسمو إلى مرتبة الألوهيّة، أنسيتَ أنّي عشتار بنت الإلهين آنو وأنتوم!؟. ثم غادرته غاضبة إلى والديها.

تجلّتْ عشتارُ أمام جلجامشَ في الحلم، وهي تدخل على والديها الإلهين آنو وأنتوم غاضبةً، يقطر سمُّ الانتقام من عينيها.

قالت لوالدها دون مقدّمات: أبتِ!. يا إله السماء، يا صاحب الشّعاع الثاقب. لقد شتمني جلجامش، حقّرني وطردني من مدينته، رفض عرضي بالزواج منه، بلغ به الغرور مبلغاً جعله يتطاول على الآلهة.

الاستخفاف بالآلهة ظاهرة جديدة في أوروك يا والدي!، يجب أن تفعل شيئاً، أنزل به أشدّ أنواع العقوبات. بعد عودته من غابة الأرز، صار يعتقد بأنّه صار نِدّاً للآلهة، وأهل أوروك ألّهوه، كما ألّهوا والده لوجال بندا من قبل، أهل أوروك إيمانهم ضعيف، يجب أن يعرفوا أنّ ملكهم جلجامش، مهما بلغتْ قوتُه، ما هو إلاّ عبدٌ حقيرٌ للآلهة. يجب أن نعاقبهم أيضاً .

- قال آنو: ابنتي عشتار!. من أساء إليك، هو جلجامش فقط، ولا يُؤخَذُ أهل أوروك بجريرة جلجامش. العقوبة الجماعيّة عملٌ لا ترضى عنه الآلهة، رفضتْها من زمن الطوفان، أخطأ جلجامش، فلينزلِ العقابُ على جلجامش. ولكنّك أنت من بدأ الخطأ، كيف تتنازلين عن كبريائك الإلهي، وتطلبين الزواج من بشريّ!؟.

- قالت عشتار: أبي!. لم يقبل الزواج بي أيٌّ من الآلهة، فتخليت عن كبريائي رغماً عنّي، فعرضت نفسي على جلجامش. وحتّى لو كان تصرّفي خاطئاً، فأنا من الآلهة، والآلهة إذا أخطأت، فهي مسؤولة عن خطئها أمام نفسها، أمّا البشر، فهم مسؤولون أمام الآلهة، جلجامش بشريّ أخطأ معي، ويجب أن ينال العقاب الرّادع لبني البشر، أعطني ثور السّماء، لأضع حدّاً لغروره الذي بلغ به مبلغاً عظيماً بعد عودته من غابة الأرز سالماً.

- قال آنو: ما كان لجلجامش أن يعود سالماً لولا صديقُه أنكيدو!. وما شعر بالغرور والتطاول على الآلهة قبل لقائهما، لقد تحدّى إرادة الآلهة، عندما قتل خمبابا.

- ألم يكن خمبابا تحت وصاية الإله أنليل؟. ومع ذلك تحدّاه بقتل خمبابا. لقد شتمني، وتحدّاني، وسخر منّي، وهدّدني بالضرب، إن لم أنزل عن مسلّة والدته، من يحسب نفسه!؟. لست أدري ! على من سيكون الدور من الآلهة في المستقبل؟.

- أبي!. أعطني ثورَ السَّماء القويِّ، لأقضيَ على جلجامش وأنكيدو معاً. لتعود أوروك إلى طاعة الآلهة، وإذا رفضتَ طلبي، فسوف أفتح أبواب العالم السّفلي، ليخرج الأموات، فيأكلوا طعام الأحياء.

- إذا حقّقت طلبك، فسيحلُّ القحطٌ على الأرض سبع سنين متتالية، فهل ادّخر الناس غلالاً تغنيهم، وأعلافاً لماشيتهم تكفيهم؟.

- نعم لقد فعلوا.

- انتظري سبع سنين، وبعدها عاقبي جلجامش بسيفك لا بسيف الآلهة. سبعُ سنين من القحط في أوروك، ستذيب الشحم، وتأكل اللحم، وتدقُّ العظم، بعدها سيأتي إليك جلجامش جائعاً ذليلاً. اطلبي منه عندئذٍ ما يحلو لك.

- لا أبي!. لن أنتظر سبع سنين، ولن أنتظر قرار الآلهة الكبار، هم لا يهتمّون بأمري. من تلقّتِ الإهانة، هي ابنتك، لا ابنتهم، أنت أبي وحقّي بين يديك.

- تسليمك ثور السّماء يحتاج موافقة الأنوناكي. عليك أن تنتظري.

- لا، لن أنتظر. أريده فوراً، وبلا تأخير.

- فليكن يا ابنتي!. خذي ثور السّماء، واحرصي على معاقبة جلجامش وأنكيدو معاً، دون سواهما، احرصي على ألاّ يكون هناك ضحايا من الأبرياء.

هبط ثور السّماء على أوروك، وراح يعيث فساداً في شوارعها، دهس المارين في الشّوارع، قلب البضائع في الأسواق، منع خروجَ النّاسِ من منازلهم، ضيّق الحياة عليهم. شكا الناس أمرهم إلى ملكهم.

- قال جلجامش : هيّا يا صديقي أنكيدو!. لقد غزانا الشّر في عقر دارنا، بعد أن قضينا عليه في عقر داره في غابة الأرز، جاءنا اليوم بهيئة حيوان، لا بهيئة إنسان، هلمّ لنواجهه، ألم ننذر أنفسنا لمحاربة الشّرّ؟،

- بلى ياصديقي!. محاربة الشّر واجبةٌ على الناس الأخيار. للشرّ أدواته الكثيرة، بعضها بشريّ وبعضها حيوانيّ، وبعضها طبيعيّ، كلّ ما يُلحق الضرر بالإنسان فهو شرّ، ومن واجب الأخيار القضاء عليه. هلمّ إلى سلاحنا الذي قاتلنا به الشّرير خمبابا.

- ولكنّ الشرّير أتى اليوم من السّماء يا صديقي!. وعلينا أن نستعين بقوى الخير السّماوية خلال المعركة، هيّا إلى مامي الإلهة ننسون، نطلب منها الشفاعة والعون، قبل خوض المعركة.

صعدا إلى صومعة الإيجلماه. حيثُ تتبتّل ننسون، لعبادة إلهيْ الخير والحكمة إيا وشمش، عرضا عليها الأمر، وطلبا منها العون. قالت الإلهة ننسون: شعب أوروك ينتظر منكما عملاً نافعاً يا ولديَّ الرائعين، اذهبا إلى مواجهة

الشّر، وأنا من هنا سأصلّي إلى الإله شمش لنصركما على شرّ الإلهة عشتار، المتجسّد بهيئة ثور.

خرجا من صومعة الإيجلماه، لبسا سلاحهما المناسب لمواجهة الثور السّماوي الضخم. وزن قرنيه، ستون أُقّةً، يتسعان لستة مكاييل زيتاً، طول جسمه عشرة أذرعٍ، وارتفاعه خمسة، نخرته تفتح في الأرض حفرة، تتسع لمئة مَدٍّ قمحاً، وصوته كزئير الأسد. نظر إليه جلجامش، قال لصديقه أنكيدو:

- المواجهة مع هذه الأداة الشريرة صعبةٌ، لن نتمكّن من الفوز عليه إلاّ بالحيلة. يجب أنْ نقوده إلى مكانٍ ضيّق، يحصر حركته، ويشلّ مناورته، علينا أن نختار نحن مكانَ المواجهة. أفضل مكانٍ هو مدخل الزقورة، حيث تجلس عشتار، تراقب شرور ثورها الذي أحضرتْه للانتقام من أوروك وشعبها، ستكون نهايتُه أمام عينيها. لتعرف أنّ الخير أقوى من الشرّ، عندما يصمّم الإنسان على مواجهته، وأنّ آلهة الخير تُمهل ولا تهمل، معركتنا اليوم حاسمة يا صديقي!. لِنَنْصُرنَّ الخير، الذي نذرنا أنفسنا له.

خرجا معاً بتمام سلاحهما، هجم عليهما الثور، تظاهرا بالهرب من أمامه، حتّى قاداه إلى مدخل الزقورة الضيّق، في هذا المدخل الضيِّق، لن يتمكّن من الالتفاف والمناورة، طوّقاه، جلجامشُ من الأمام، وأنكيدو من الخلف، أمسك أنكيدو ذيله، فخبطه به أرضاً، نطح جلجامش بقرنيه الضخمتين، ولكنّ جلجامش تنحّى بمهارة وسرعة من أمام النطحة، فغارتْ قرناه في الجدار، فعلقتا به، نهض أنكيدو، قال لجلجامش: عليك بطعنه في رمّانة كتفه، اغرز سيفك بسرعة، قبل أن يتمكّن من الإفلات من الحائط، قفز أنكيدو، فاعتلى ظهره، هوى بفأسه الذي يزن ثلاثين أُقَّةً على رأسه فخارت قواه، سقط على الأرض، فأجهز البطلان عليه، شقّا صدره، نزعا قلبه، قدَّماه أضحيةً للإله شمش.

كانت عشتارالمتقمّصة في جسد أشخارا، تراقب المعركة، شاهدتْ أداتها الانتقاميَّة مُضرّجة بدمها، راحت تُلقي بالشتائم على جلجامش وأنكيدو، نعتتْهما بأسوأ الصفات، وأسمعتْهما أقذع الشتائم، غضب أنكيدو، فأخذ فخذ الثور الأيمن، وقذفها به، فتناولته ودخلتْ به إلى داخل الزقورة، لتقيم عليه مناحةً مع بناتها.

استيقظ جلجامش من الحلم، كان حلماً طويلاً، ولكنَّ نتائجَه كانتْ مريحةً له، في الصباح حكى حلمه لوالدته ننسون. قالتْ له: فأل حسن بني، الخير يملأ قلبك، يسكن فيه، فلا تدعه يخرج منه، حصّنه بالأعمال النبيلة، واحذر من تجربة الشّريرة أشخارا، سوف تكيد لك ولأخيك أنكيدو.

- لن تجرؤ على مواجهتي مامي!. مادام أخي أنكيدو بقربي، فأنا أمنع من عقاب الجبال.

- أشخارا أفعى بسبعة رؤوس بُنيّ، سوف تستخدم كلّ الأسلحة التي تملكها، هي وحليفها شنشتور، كاهن معبد أنليل، فإن عجزا في الأرض، لجأا إلى السّماء.

خرج جلجامش وأنكيدو إلى شوارع المدينة، تجوّلا في أسواقها، عاينا حركة الناس، أمرا بالمعروف والإحسان، عادت سيرة الملك العادل المؤلّه لوجال بندا إلى أوروك، فنعم الناس بحياة آمنة خالية من الظلم والفساد، كانت المغنيات يصدحن في المناسبات بحياة الصديقين جلجامش وأنكيدو: جلجامش أشجع الملوك، وأنكيدو أنبل الرجال. عبارات الإطراء والمديح لهما كانت تسيل على شفاه الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال. ساد الفرح في المدينة، جلس البطلان على سريري سعادتهما هانئَين براحة الضمير.

شاهد أنكيدو حلماً، استيقظ منه خائفاً ملهوفاً، روى حلمه لصديقه جلجامش، قال: أيْ صديقي جلَّ حمدك المطوّب، لقد رأيت حلماً أثار خوفي. الآلهة اجتمعتْ في السّماء، ائتمروا علينا. سمعتُ آنو يقول لأنليل: يجب أن يموت أحدهما. قال أنليل: فليمتْ أنكيدو، هو من جعل جلجامش مغروراً، لا يخشى غضبَ الآلهة. أقدم جلجامش على قتل خمبابا بتحريضٍ من صديقه أنكيدو، وقتل ثور السّماء بمساعدةٍ منه.

- قالتِ الإلهة أرورو: لقد خلقتُ أنكيدو بناء على طلبٍ من مجمع الأنوناكي، وموتُه يحتاج إلى قرارٍ من المجمع. قالت الإلهة أنتوم: خلقتِهِ ليقوم بمهمة إصلاح سلوك جلجامش، لقد نفّذ المهمّة، وسلوك جلجامش استقام مع شعبه، ولم يعُدْ لوجوده حاجةٌ. قال شمش: ولكنّي أنا من سمح لهما بتنفيذ ما أقدما عليه، هما غير مسؤولين عن فعلهما. فلماذا تحكمون عليهما حكماً جائراً.

غضب أنليل من شمش، ورفع صوته عليه بالقول: أنت تتعاطفُ مع البشر، لأنّك تهبط إليهم كلّ يوم، لقد غدوتَ واحداً منهم، وهيبةُ الآلهةِ الكبار، لم تَعُدْ تعني لك شيئاً، أقترح موتَ أنكيدو، وتجريدَ جلجامش من صفاته الإلهيّة، ليقضي حياته على الأرض ملكاً بشريّاً، يحكمه الموت في يومٍ ما، كما يحكم غيرَه من البشر، والاقتراحُ مطروحٌ للتصويت.

وافق على مقترح أنليل، كلٌّ من آنو وأنتوم، وأنليل وزوجته ننليل، وعارضه إيا وشمش، وامتنعتْ أورورو عن التصويت.

- قال جلجامش: أحلامُ الليل يمحوها النهار، نحن في ذروة مجدنا الأرضيِّ، والإله شمش لن يتخلّى عنّا في السّماء. لنقمْ بجولة على أسوار المدينة، إطلالتها رائعة على الغيضان المحيطة بأوروك، لنمتّع أنظارنا بالخضرة والجمال اللذين يطوّقان أوروك.

سألت نفسي البارحةَ: أخي أنكيدو لم يُخصبْ رحم زوجه شمخة حتّى الآن، ألا ترغب بالأولاد أنكيدو!؟.

- هذه إرادة الآلهة، حتّى الآن مازال رحمُ شمخةَ عاطلاً.

- الأولاد يملؤون عليك حياتك يا صديقي. كما ملأها عليَّ ولدي أور نيكال. أما زلت تحبُّ شمخة؟.

- بلى أحبّها كثيراً وهي تحبّني، سعادتنا جعلتنا ننسى إنجاب الأطفال، قد تكون للآلهة حكمةٌ في التأخير.

بعد أسابيعَ قليلةٍ مرض أنكيدو، حُمَّ جسدُه، راح يهذي بكلامٍ مسموعٍ، مترابط حيناً، وغيرِ مترابط حيناً آخر. كان جلجامش يجلس قربه، لا يُفارقه ليلَ نهار. سمعه يخاطب الموت: ابتعد عنّي أيُّها الموتُ، لم تأتِ ساعتي بعد، لا تقترب منّي، أنا أكرهك، أخافك.

سأله جلجامش:

- متى كان أخي وصديقي أنكيدو يخاف الموت؟.

- طالما سخرتُ منه يا صديقي عندما كنتُ قويّاً، كنت أحتقر الذين يرتعدون من ذكره، أمّا الآن، فأنا من الضعفاء الجبناء المرتعدين أمامه، أنا الآن يا صديقي!. كقشّة في مهبّ الريح. أشعر بالموت يدبُّ فوق جسدي، كدبيب النمل على صمّ الصفا، شعورٌ لم أعرفه من قبل، أرى كأسَه تقتربُ من شفتيّ

رغماً عنّي، لقد أحببْتُ الحياة، لأنّي أحببتك، وأحببتُ شمخة، وأحببتُ الأخيار من أهل أوروك أيضاً، ولكنّ قلْبَ الموت، قُدَّ من جلمودِ صخرٍ قاسٍ، لا يرحمُ القلوب المتحابّة المتآلفة.

- لا تخف يا أخي!. لن أدعهم يأخذونك منّي، مامي ننسون تصلّي من أجلك، أرسلت في طلبها، لتقرأ عليك بعضَ التعاويذ الشافية.

- لا فائدة يا أخي!. لقد اتّخذ مجمع الآلهة قراره، وقُضِيَ الأمرُ.

حضرتِ الإلهة ننسون، وبيدها مجمرةٌ فيها بخورٌ يحترق، ينشر رائحته على طول الأروقة التي مرّتْ عليها، وصلتْ إلى غرفة أنكيدو، راحتْ تتلو تعويذتها بهمهمة، وتمتمة غير مفهومتين.

عاد أنكيدو إلى هذيانه: اللعنةُ عليك أيّها الصيّاد، لأنَّك كشفتَ أمري، اللعنةُ عليك يا شمخة، لأنّك سلبتِ إرادتي منِّي، فجريتُ وراءك إلى هنا، لأدخل في صراعٍ مع قوى الشرّ الأرضيّة، لم يخطر في بالي، أنّ قوى الشرّ الأرضيّة محميّةٌ من قوى الشرّ السماويّة، لقد هزمتُها على الأرض، ولكنّها هزمتْني في السّماء، سلطةُ السماء هي الأقوى يا صديقي!.

- قالت الإلهة ننسون: لقد سلبتِ الحُمّى تفكيرك يا بُني!، الموتُ كُتِبَ على البشر، سواء عاشوا في البروج، أم في البراري والمروج، أشكرِ الصيادَ الذي أرشد جلجامش إليك، فسعى إليك لتكون صديقه، تجلس إلى يساره، طالما قبّل الناس الأرضَ أمامكما، عرفتَ الصداقة والحبّ، ونلت خلود الذكر. في غابة الأرز قتلتَ الشرّ في شخص خمبابا، فسطع نجمُك، وفي أوروك قتلته مرّة أخرى بشخص ثور السماء، فأشرقتْ شمسُك. اسمك الآن يملأ الأسماع في كلِّ الأصقاع، لو بقيت في البراري، لعشت ومتّ، دون أن يسمع بك أحد.

اشكرْ شمخةَ التي أتتْ بك من البراري، فأطعمتْك الخبز، طعامَ الآلهة، وسقتْك الخمرة شراب الملوك، وكستك الثياب، بعد أنْ كنت عارياً، علمتْك وظيفتك في الحياة كذكر، يخصب رحم المرأة، صار لك هنا عائلة، أنا أمّك، وجلجامش أخوك، بعد أن كنت في البراي وحيداً، اشكرِ الآلهةَ في السّراء والضراء. لأنَّها وهبتك الحياة أمانةً، لتكون إنساناً نافعاً للبشر وللآلهة، وعندما تأخذُ الآلهةُ الأمانةَ بالموت، ففي الأخذِ حكمةٌ، لا يعرفُها إلاّ الآلهة.

بعد أن خرجت ننسون، بقي جلجامش وأنكيدو وحيدين. أفاق أنكيدو من هذيانه، رجع تفكيرُه إلى جِنانِه، فراح يشكر الصياد الذي ذكره أمام جلجامش، وشكر شمخة التي سقتْه الأنوثة من جسدها للمرة الأولى ، فعرف دوره في الحياة كذكر.

أسلم جفنيه للنوم، وبقي جلجامش يتأمّل الجسد المحموم، تحت تأثير نومٍ مُشرّدٍ متقطّع لم يدم طويلاً. استيقظ أنكيدو من نومه، فتح جفنيه عن عينَين هلعتَين، ونظراتٍ حزينةٍ مضطربة، مسح جلجامش العرق الرّاشح عن جبين صديقه.

- قال أنكيدو: لقد رأيت حلماً آخر، هو أكثر سواداً من سابقه. كنت أقف أمام كائنٍ غريب، لم أر له مثيلاً من قبل، وجهه كغراب أسود، له مخالبُ كمخالب النسر، انقضّ عليّ بمخالبه، عصرني بهما، حتّى شعرتُ بالاختناق، بعد أن تركني، تحوّلتْ ذراعاي إلى جناحَين مكسوَّين ريشاً، حدّق بيَ بعينين يسيل منهما حقدٌ أحمر، ثمّ قادني إلى مكانٍ مظلمٍ، سمعتُ شخصاً يقول: من يدخلْ هذا المكان، فلن يخرجَ منه أبداً، هناك في الظَّلام كان يجلس كثيرون، لباسُهم من طين، وطعامهم من طحالب المستنقعات. ملوكٌ وسوقة، سادةٌ وعبيد، فقراءٌ وأغنياء، كلّهم هجعوا في ذلك المكان متساوين.

هناك رأيت كهنةً كباراً، سدنةَ معابد، مُنشدي الصلوات ورافعي الطلبات، شاهدت ملك كيش أجا، يغوص إلى ركبتيه في الطين. فجأة وجدت نفسي أمام أريشْ جيكال إلهة العالم السّفلي، كانت عاريةٍ عاطلةً من كلِّ شيء، مثلي عندما كنت أعيش مع القطعان في البراري. أمّا (بليتْ شيري) حافظةُ سجلِ الموتي، فكانت تقعي أمامَها، مثلَ كلبٍ ينتظر من صاحبه عظمة. نظرتْ إليّ بعينين واسعتين غاضبتين، ثمّ قالتْ: مَنْ أحضر هذا إلى هنا؟!. لم يأتِ دوره بعد، اطرحوه في الظَّلام.

يا أخي عندما يحضر نمتار لقبض روحي، اطلب من شخصٍ آخر أن يقف مكاني، ثبّتْ اسمه بدلاً عن اسمي. أبعدْ عنّي هذا الكأس.

نزع أنكيدو ملابسه عن جسده. حتّى صار عارياً كما كان في الحلم أمام أريشْ كيجال، وكما كان في البراري قبل أن يأتي إلى أوروك. طرح جسَده العاريَ أرضاً، وراح ينتفض.

تأمّله جلجامش بعينين حزينتين دامعتين وقال: لم أسمعْ في أوروك، ولا في غيرها حكمةً مثل ما نطقتْ به شفتاك، حلمك عجيبٌ مرعبٌ، كأسُ الموت سيشربه البشرُ جميعاً.

راح جلجامشُ يبكي بمرارة وهو يقول: صديقي رأى حلماً يُنذر بالشّرّ، وهو الذي كرّس حياته لمصارعة الشّرّ، ونصرة الخير.

دخل أنكيدو في ثبات، بعد أن هدّه المرض، مضى يومٌ، يومان، ثلاثة أيام، وحالته الصحيّة تزداد سوءاً، ازدادت عذاباتُه، أحد عشر يوماً أمضاها وهو يعاني من سكرات الموت، في اليوم الثاني عشر قال لصديقه جلجامش: يبدو أنّ نمتار اختار لي ميتةً ملطّخةً بالعار، هأنذا أموت كما يموت الجبناء، على فراشٍ وثير وغطاء دثير، لماذا لم يخترْ لي ميتة مُشرّفةً في أرض الهيجاء، كما يموت الأبطالُ النبلاء؟!.ثم صمت إلى الأبد.

بكي جلجاش صديقه من الخيط الأبيض في الفجر، وحتّى الخيط الأسود في غسق الليل، بعدئذٍ خاطب أهل الشورى من شعب أوروك فقال:

يا بني قومي اسمعوني!.
إنّني أبكي صديقي،
كالثّكالى النائحاتْ.
كان بدراً في حياتي
صار طيفاً في الممات
كان في السّرّاء خِلّي
كان في الضرّاء درعي
وسيوفي الرّاعفاتْ.
****

يا نجومَ الليل نوحي،
باخ ضوءُ الأوفياء
مات من كان خليلي
بات عمري في شقاء

غاب عنّي كلُّ شوقٍ
وحنينٍ وصفاء،
عشعش اليأسُ بقلبي
مثل تعشيش الوباء.
****

نجمةَ الصّبحِ أضيئي بشعاعٍ من أمل
واجعلي إبن البراري بين أسراب النجومْ
كلّما لاحتْ بأفقي، ومضةٌ من وجنتيهْ،
قلتُ أهلاً بحبيبي طال شوقي للقاءْ

بكى جلجامش صديقه ستة أيّامٍ وسبع ليالٍ. عندما شاهد الدودَ يسقط من أنفه استسلم لإرادة الموت، وقال له: يا صديقي. بعد أن تغيب في باطن الأرض، سأرسل شَعْري حزناً عليك، ولن يعرف بعدك غسلاً ولا مشطاً ولا زيتاً. سأهيم في البراري في إهاب الأسود، حرام عليّ سكنُ القصور من بعدك.

أعطى جلجامش أوامره إلى النحّاسين والمثّالين، أن يصنعوا لأنكيدو تمثالاً من النحاس الأحمر، مزّيناً باللازود، والذهب، وينصّبوه على قاعدة من خشب الأرز. في معبد الإله شمش. طلب من الوزير ترحاسيس أن يبني ميتماً للأطفال على اسم أنكيدو.

وضع جلجامش أمام التمثال، كأساً من اللازود به عسلٌ، وآخر من الذهب به خبزٌ، وثالثٌ من فضة به خمر. قرباناً لشمش، ثم هام في البراري باكياً.

الفصل العاشر

انسلّ جلجامش من أوروك ليلاً، تحت جناح الظلام وحيداً، قال لنفسه: لقد منحتْني البراري أنكيدو، كانت له أمّاً، فصار ليَ أخاً، لعلّي أجد لديها أخاً آخر، يعوِّضُني عن أخي الذي أخذه الموت منّي. لقد كان ترياقَ الطهارة لنفسي، عرفتُ من خلال صُحْبتِه لي نبلَ الحياة، تذوّقتُ حلاوة الخير، فعافتْ نفسي مرارةَ حنظل الشّرّ، تلك المرارةُ، كم جعلتْ فمي مُرّاً مريضاً بالكلام البطّال حتّى التقيتُه، فصرتُ بفضله إنساناً، صرت أحبُّ الناس كما أحبّهم القصيُّ أوتنابشتيم من قبل، فسعى إلى إنقاذ بذرة الحياة من الطوفان، فأكرمتْه الآلهة، ومنحته الخلود، إنّه يعيش الآن في جنّة دَلمون، حيثُ تغرب الشّمس.

خدمة الحياة عملٌ نبيل يخلّد صاحبَه، والخلودُ يستحقُّ التضحيةَ أمام الأعمال النبيلة!، لقد بدأته مع أخي أنكيدو المغيّب في العالم السّفليِّ، لو بقي معي لجعلتُ حياتي سلسلةً من الأعمال النبيلة، فصرنا معاً خادمَين للحياة الخيّرة، حتّى يُكتبَ لنا الخلودُ في مجمع الأنوناكي، كما كُتِبَ لأوتنابشتيم ابن أوبارا توتو.

سدَنَةُ الشّرِّ في مجمع الأنوناكي، أدركوا ذلك، فحرموني من سندي على طريق الخير، قصّوا جناحَيْ أحلامي، حتّى لا أحلّقُ بهما إلى السماء، فأصلَ إلى مرتبة الإله الكامل. طالما حذّرتني مامي الإلهة ننسون منهم، ولاسيَّما عشتار وأنليل، لقد انتقما لخمبابا ولثور السّماء، اللذين لقيا حتفَهما على يديّ ويديّ أخي أنكيدو.

أيّها الإله السّماويُّ شمش. لماذا تخليتَ عنّا!؟. كلّ ما عملناه من خيرٍ أنا وأخي أنكيدو كان بوحيٍ منك، وبعونٍ منك. لماذا ضعُفْتَ أمامَهم!؟. أَلِأنَّ آلهةَ الشرّ، أكثرُ عدداً من آلهة الخير في مجمع الأنوناكي، كما هو الحالُ على الأرض!؟.

لقد خسرنا جولة يا شمشُ العظيم، ولكنَّنا لن نخسر الحربَ معهم، لن أسمح للموت أنْ يتسلّل إلى جسدي، من خلال ثلثي البشري، لن يكونَ مصيري كمصير أخي الصغير أنكيدو. أجدّدُ عهدي معك يا إله الخير، كُن معي حامياً وراشداً، كما كنت في الماضي بوجود أخي أنكيدو.

وصل جلجامش في تجواله إلى ممرات جبليّةٍ ضيِّقة، طالما ارتادها مع أخيه وصديقه المنتقل إلى العالم السّفلي أنكيدو. في هذه الشِّعاب الجبليّة، كثيراً ما واجهنا معاً الأسود الشرسة، التي كانت تهرب أمامنا، كما تهربُ الفئرانُ أمام الهررة، أمَّا الآن، فأنا وحيدٌ في مواجهتها، شعر جلجامش بالخوف للحظاتٍ معدوداتٍ، كان ضوء البدر يشقُّ قميصَ الليل بيديه الفضيتين. رفع بصره إلى الإله سين (القمر) ابن الإله شمش، صلّى أمام وجهه المضيء، وطلب رعايته، ورعاية الإله شمش، ثم رقد للنوم.

استغرق في النوم، حتّى أيقظه زئيرُ الأسود من حوله، وهي في كامل حيويتها، وفي أتمّ استعدادها للوثوب عليه، نهض من مَرْقَدِه، أمسك بلطتَه، جرّد سيفه، ودخل معها في عراكٍ مستميتٍ، انقضَّ عليها كالسَّهم المُنطلق من أمام الوتر المشدود على القوس، فرّتْ جميعُها، وتبدّدتْ وحشيتُها الكاسرة خلالَ دقائقَ معدوداتٍ.

تابع جلجامش سيره تحت ضوء القمر الفضيِّ السّاجي. مواجهتُهُ للأسود، زادته ثقةً بنفسه، وأعطته شعوراً بقدرته على المواجهة وحيداً، شعر بأنّ روحَ أنكيدو، كانت تقاتل معه.

وصل إلى جبل ماشو، كان جبلاً مُنْشَعِباً إلى قِمَّتين متناظرتين في ارتفاعهما الشاهق، وفي ضخامتهما. من بين هاتين القِمَّتين، يغادر الإلهُ شمش أرضَ الأحياء كلَّ يوم، لينام في لُجّة الماء المِلْحِ، حتّى صباح اليوم التالي، ليعود إلى الظهور، من وراء أرض عيلام (فارس) في الشرق.

عند أقدام الجبل الراسخة في قلب الأرض، كان ثمّةَ شبحان ينظران إليه، تقدَّم منهما غيرَ هيّابٍ، ولا وجلٍ، بدأتْ ملامحُهما تتوضّح أمام عينيه، كانا رجلين، لكلّ منهما رأسُ تنين، وجسم إنسان، وذيلُ عقرب، عندما نظر إليهما جلجامش، أغضى بصرَه قليلاً، ثمّ أدام النظرَ إليهما. استجمعَ شجاعتَه، وراح يقتربُ منهما بحذر.

- قال أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا القادمِ إلينا، إنّه يقتربُ نحونا من دون خوفٍ، وكأنّه من الآلهة. ردّ عليه رفيقه: ثلثاه من الآلهة، وثلث من البشر، ولكنّ سماتِ الثلث البشريِّ، تضغى على سمات الثلثين الإلهيين. ثمّ خاطب جلجامش قائلاً:

- أيُّها القادمُ إلينا!. من أينَ أتيت؟. وإلى أينَ مقصدُك؟. وما هي غايتك من المسير على هذه الطريق، التي لم يطأْها بشريٌّ من قبل!؟.

- قال جلجامش: أقصد جدّي أوتنابشتيم، هو جدّ البشر بعد الطوفان، سأسأله عن سرّ الموت، الذي أخذ منِّي أخي أنكيدو، أخي الذي أحببتُه كثيراً، لقد أخذه الموت بعد أن سار معي على كلّ الطرقات الخَطِرة، بكيتُه كثيراً، لعلّ الدموعَ تعيدُه إلى الحياة، ولكنْ دون فائدة، ستةَ أيام وسبعَ ليالٍ، بكيتُه كالثكالى الباكياتِ أولادَهنّ، ولكنّ بكائي راح هباءً.

- فتح الرجلُ العقرب عينيه وفغَر فاه، ثم قال: لم يفعلْ أحدٌ من البشر، ماتفعله أنت اليوم!. ولم تطأ رِجْلُ بشريٍّ نفقَ هذا الجبل من قبل، لماذا تطلب موتَك قبل أجلك؟.

- قال جلجامش: الموت ينتظرني، عاجلاً أم آجلاً، إنْ أمُتْ دون هدفٍ عظيم، فخيرٌ من أنْ أموت من غيرِ هدفٍ أسعى إليه. سوف أمضي إلى هدفي، ونفسي مُثقلةٌ بالحزن والأنين والبكاء. متاعب الطريق قد تُنسيني همِّي، تجعلني أسلو صديقي بعض الشيء، عزائي بأنّ أكملَ الطريق، التي تعاهدنا بالسير عليها، كان دائماً يحدّثني عن رغبته بفعل الخير. كان شجاعاً لا يخاف كائناً مخلوقاً. كلّ المخلوقات الشريرة التي واجهتنا، خنقنا الشرّ في صدرها بالموت. كم أتمنّى لو أنَّ الموت مخلوقٌ، لسقيتُه من الكأس التي سقاها لأخي أنكيدو.

ارحمْ أيّها الرجلُ العقرب ضعفي البشريِّ أمام الموت، لأنّي لا أعرف متى يهاجمني!، ولا السلاح الذي يحمله!. أوكيف سيهاجمني!؟. لا أعرف له شكلاً، ولا لوناً. إنّه الضعفُ أمام المجهول!.هوالضعف الذي ورثتُه عن أبي لوجال بندا رحمته الآلهة.

- قال الرجل العقرب: امضِ في طريقك، دونَك بوابةُ العبور، هي مفتوحةٌ أمامك. عملك نبيلٌ، ولكنْ لم يطلبْه أحدٌ قبلكَ من البشر، لن تنال ما تتمنّاه، أنصحُكَ بالعودة إلى مدينتك، حصّنْ نفسَك بالعمل الصالح، يذكرْك الناس بعد

موتك بالخير. صلِّ إلى شمش السّماء، يهدِ طريقك، اذهب عبْرَ شعاب هذا الجبل، فهي تقودُك إلى مدخل نفقٍ طويلٍ مظلم، ادخل فيه، طولُه خمس ساعات مضاعفة. لتحرسْك الآلهة.

امتثل جلجامش لكلام الرجل العقرب، شعر بأنّ الرَّجاءَ يُداعب أحلامه بالأمل، الإله شمش يرعاه، يضع أمامه مَنْ يَمُدُّ له يد العون، رجلا العقرب كانا لطيفين معه، على عكس ما كان يوحي به منظرهما، تنفّس الصعداء، شعر براحةٍ داخليّة، تُبلْسِمُ حزنه على أخيه أنكيدو، قال لنفسه: إنْ وصلتُ إلى أوتنابشتيم، فلن يكون أقلَّ تعاطفاً معي من رَجلَي العقرب.

كانت شعابُ الجبل وعرةَ المسالك، بين التفافاتٍ حادةٍ حيناً، ولينةٍ حيناً آخر، تتفاوت وعورتها هبوطاً وصعوداً، كان يرتقيها بكلِّ همَّةٍ وحماس، مُبصِراً طريقه على شعاع الشمس المترنّقة للغياب من بين قِمَّتي جبل ماشو. بعد قليل سيتلاشى نورُها، ستظلمُ الأرض من حولي. قال لنفسه: لأغذّنَّ الخُطا، يجب الوصول إلى مدخل النفق قبل حلول الظلام، يُمكنني الجلوسُ عند مدخل النفق، حتّى صباحِ يومِ غدٍ، أو أتابع مسيري فيه، فهو مظلم أيضاً، لا فرق فيه بين الليل والنهار.

كان مدخل النفق واضحاً، تحدّد سِدْفَيهِ صخرتان كبيرتان، ثمّةَ شجيراتٌ صغيرة، تمدُّ أغصانها من فوق، لتلامس رأسَ كلّ مَنْ يرغب بالدخول إلى النفق. وقف أمام مدخل النفق، حدّثتْه نفسه بالاستراحة، ولكنّه طرد الفكرة قائلاً: لأستغلّنَّ حماسي، ولكنْ قد يغلبني النوم في منتصف النفق، عليَّ أنْ أضع إشاراتٍ، ترشدني إلى الاتجاه الصحيح وسْط الظلمة.مشى في النفق، كان الضوء يتسلّل من المدخل خجولاً، أدار ظهره للضوء، مشى على طول النفق بالاتجاه المُعاكس للضوء، قطع ساعةً مضاعفة، ثمّ ساعة مضاعفة أخرى، هنا تساوى الليل والنهار، الظلام كان يغلّف كلَّ شيءٍ من حوله. تباطأتْ حركةُ خطواته، اعتمد على عصاه، لتلمُّسِ طريقه، كما يفعل العميان، عندما يسيرون، ازداد قلقُه، وكذلك حماسُه للخروج من هذا النفق المظلم، ساعةً مضاعفةً ثالثة، سارها في ظلامٍ دامس، وسط هواء ثقيل رطْبٍ، شعر بضيقٍ في صدره، توقّف قليلاً، تنفّس بعمق، قال لنفسه: التوقُّفُ عن المسير، يهدّد حياتي، عليَّ متابعةُ السير، لن أتوقّف قبل الاقتراب من المخرج، بقي أمامي ساعتان مضاعفتان،

كانت العصا مسبارَه المُرشد على أرض النفق، ساعة مضاعفة أخرى، شعر بالهواء يداعب وجنتيه القلقتين، تنفّس الصعداء، ساعة أخرى، شعر بسديم الفضاء يحضنُ وجنتيه. شعوره بالنجاح أعطاه قدراتٍ إضافيّةً، قال لنفسه: لن أتوقّف عن السير حتّى مخرج النفق.

عندما وصل إلى مخرج النفق، كان مُتعباً جسديّاً، نَشِطاً نفسيّاً بالفوز، وقف هناك، تأمّل الفضاء الفسيح من حوله، كان الظلامُ يمدّ سدولَه على الكون، قال لنفسه: سوف أستقبل وجه الإله شمش بعد قليل. لم يدرِ أنّه أمضى في النفق يوماً وليلتين. استلقى عند مدخل النفق، وراح يغطّ في نومٍ عميق.

خلالَ نومه رأى في الحلم، أنّ الإله شمش السّماوي، يقول له: أيْ جلجامش!. إلى أين ستقودُك قدماك؟.أمَا تعبتَ من السَّير على طريق الأوهام؟. ماتطلبُه غيرُ مُمكن. للبشر الفناء، وللآلهة الخلود، لماذا تطلبُ ما لم يطلبْه غيرُك من البشر؟.اصحُ من وهْمِك جلجامش!.

- قال جلجامش: ليس الذنبُ ذنبي، لأحملَ مصيرَ أبي لوجال بندا، لماذا لا أحملُ مصيرَ مامي الإلهة ننسون، عِجْلةِ السّماء، سيِّدةِ المدن الحصينة. أبعدَ هذه الرحلة الطويلة، التي تغلّبتُ فيها على كلّ الصِّعاب والأخطار التي واجهتْني، تطلبُ منِّي العودةَ إلى أوروك، أجرُّ أقدام الخيبة والفشل!؟، جلجامش لم يذقْ طعم الفشل قبل اليوم، ساعدني أيّها الخيرُ الأعلى، فإنّ اتكالي عليك لا حدودَ له، ومَنْ يتكلْ عليك، فلن يخيبَ ولن يشقى. دع عينيّ تستقبلُ نورك السرمديّ يا أبا الأنوار، لا تحرمني من نِعمتك، أيّها الإلهُ المَهيب، المُحِبّ للبشر. أبعد عن عينيَّ ظلامَ القبور. ظلامُ هذا النفق، ضاعف خوفي من عذابات ظلامها .

- قال شمش: امضِ في طريق رحلتك جلجامش!، سأكون لك حارساً، حتى تعود إلى أوروك مُقتنعا بما قُلتُ لك. انظر أمامك إلى هذه الحديقة الماسيّة، هي حديقة الآلهة، فيها أصناف عديدةٌ من الفواكه، حذارِ أن تلمسَ أو تقطفَ منها ثمرة واحدة. مَنْ يرغبْ بالخلود، فلا يطمعُ بكنوز الدنيا. حذارِ من الضعف البشريِّ أمام التجربة. قُمْ تابعْ رحلتك.

كانت أغصانُ أشجار الحديقة من اللازود، أوراقُها من الدرّ، عناقيدُ العنب من اللؤلؤ، وثمار التفاح من الذهب الأصفر. على أرضها انتثرتِ الأحجار الكريمةُ، عقيقٌ أحمر وأخضر، كانت عيناه تجولان في كل زاوية من زوايا

الحديقة، قال لنفسه: ما الفائدة من كنوز هذه الحديقة من دون الخلود؟، عندما رحل أخي أنكيدو، ترك كلَّ شيءٍ، دخل إلى العالم السفلي عارياً، مثلما أتى إلى الحياة البشريَّة عارياً أيضاً.

غادر الحديقة خوفاً من نفسه الأمّارة بالسوء، لئلاّ يضعف أمام إلحاحها، فيعصيَ وصيّة الإله شمش، اتجه إلى جهة الغرب، رأى عند شاطئ البحر، امرأةً تجلس أمام بيتها، عن يسارها دَنٌّ خمر، وبيمينها كأس منه. تقدّم منها، عندما رأته يتقدّم باتجاهها، نهضتْ من مجلسها، دخلت بيتها، وأحكمت إغلاق بابه بالمزلاج. دُهش جلجامش من تصرّفها، خاطبها قائلاً:

- أيَّتها المرأةُ الشابَّة!. لماذا توقّفتِ عن شرب خمرتك!؟. لماذا أغلقتِ باب بيتك بوجهي، وأحكمتِه بالرُّتاج!؟. أقسم بشمشِ السّماء، لأحطّمنَّ الباب، إن لم تفتحيه لي، أنا جلجامش، ملك أوروك، كاهنُ قولاب، جَلَّ حمدك، أنا من قتل خمبابا، وقضى على ثور السّماء، صارعتُ الأسود والفهود والنمور في البراري، فصرعتُها، هي تهرب أمامي، كما تهرب الجرذان أمام الإنسان.

- قالت الفتاة: أنا سيدوري، صانعةُ خمرة الآلهة. لم يخبرْني أحد بقدومك، كيف وصلت إلى هنا؟.وإذا كنت صاحب هذه الأفعال المجيدة التي ذكرتَها حقّاً، فلماذا تبدو على هذه الحالة البائسة؟، ترتدي جلود الحيوانات، وجهُك شاحبٌ، شعرُك أشعثُ متسخٌ، لماذا أتيت إلى هنا أصلاً!؟.

- أجابها جلجامش: مَنْ يحملِ الحزنَ الذي أحمل، يشحبْ وجهُه، مَنْ يقطعْ تلك المسافاتِ الطويلة التي قطعتُها، يهزُلْ عودُه، ويتشعّثْ شعرُه، ويتسخْ ثوبُه. لقد خرجت أبحث عن الخلود، بعد أن أخذ الموت مني صديقي أنكيدو إلى العالم السّفلي، وتركني وحيداً، يُطاردني شبحُ نمتار ليلَ نهار، بعد أن كنت أطارد الطرائد في المراعي، والأسود في السهوب والوديان، كان أخي الصغير أنكيدو خيرَ سندٍ لي، كان البلطةَ في حزامي، والسيفَ في يميني، قتلنا خمبابا وثور السماء، وقف معي في كلّ المخاطر التي واجهتني، خطفه الموت من بين يديّ وأنا أتأمَّله بعينين دامعتين. الدموع هي كلُّ ما قدّمته إليه.

والآن ياسيدوري، يا صاحبةَ الوجه الجميل، والأنامل السّحريّة التي تصنع خمرة السّماء، اصنعي معي معروفاً، لن أنساه لك أبداً، أرشديني!. كيف أصل إلى القصيّ أوتنابشتيم، لأسأله عن سرِّ الخلود، فهو العارف الوحيد له من البشر.

- أين سرح بك خيالك يا جلجامش؟. وإلى أين قادتْك أحلامُك؟. وفي أيّة بئرٍ ترميك أوهامك!؟. مصيرك في هذه الدنيا، كمصير ملايين الناس الذين سبقوك إليها، جسدُك للحياة، وروحك للآلهة، وأنت خادم أمين لهما، عندما منحتك الإلهة أورورو الروح، لم تسألك عن رغبتك في الحياة. وعندما يرغب نمتار باسترجاع ما منحتك إياه أورورو، فلن يسألك أيضاً، الموت قدرٌ محتوم على البشر، والخلود حقٌّ محتومٌ للآلهة أيضاً، ولا يحق للبشر طلبَ شيءٍ لا حقَّ لهم به، اقنع جلجامش، بما كتبه لك القدر، اجعل الفرح يرافقك، بدلاً من الحزن، أيّام الفرح قصيرةٌ، فاحرص على التمتّع بها، السعادة بين يديك، فلا تدعها تهرب. زوجك نيكال بانتظار عودتك، وولدك أيضاً، قُمْ إلى ماء البحر أمامك، اغسل جسمك من وسخ الرحلة، سرّح شعرك الأشعث، امسحه بالزيت، البسْ ثياباً جديدة بدلاً من جلود الحيوانات، عُدْ إلى حضن زوجك، أسعدها في الليل، وداعب ابنك في النهار،

- أيْ سيدوري: أعطيني فرحاً أعطِك سعادة. من أين تأتيني السعادة؟. وقد طلّق الفرح قلبي، منذ أن رأيت أخي الصغير أنكيدو، يتلوّى أمام الموت كدودة التراب، وبعد سبعة أيّام من موته، بدأ الدود يتساقطُ من أنفه، كلّ دودة سقطت من أنفه، كانت بمثابة رسالة لي، تنبئني عن مصيري القادم.

أنكيدو كان نعمةً أرسلتْها إليَّ السماء، غيّرتْ حياتي، جعلتْ لها معنىً جديداً، لقد ضاعتِ النِّعمةُ، وأنا أبحث عنها الآن يا سيدوري!، الوحيد القادر على إعادتها إليَّ، هو الحكيم أوتنابشتيم، أرجوك، أرشديني، كيف أصل إليه؟، لن أعرف طعم الراحة، حتى ألتقيَ به، أسمع منه.

إنّي أبحث عن حقيقة الوجود، التي يحتفظ بها، أبحث عن سرّ معرفة الخلود المطلقة، هي الحلم الذي أتوق إليه سيدوري!. لماذا لا تفهمين نُبْلَ هدفي ومقصدي!؟. فإمّا أن أصلَ إليه، أو أهيمَ في البراري حتّى نهاية حياتي.

- قالت سيدوري: أيْ جلجامش!. مُحالٌ عليك عبور المحيط، لم يعبره بشريٌّ قبلك، مياه الموت فيه عميقة، إن لامستْ جسدك، ذاب كما يذوب الملح في الماء.

- سيدوري!. أيُّتها الفتاة الطيّبة!. الوصول إلى القصيّ أوتنابشتيم صعب، ولكنَّه مُمكنٌ، لابُدَّ من وسيلة تربطه بماضيه، ماضيه مدفونٌ في أعماقنا نحن البشر. هو المَثَلُ البشريُّ الأعلى الذي نتطلّع إليه.

- انظر جلجامش إلى تلك الغابة القريبة من هنا. فيها ستجد أورشنابي ملاح سفينة أوتنابشتيم، هو الآن في الغابة، جاء يحتطب، اذهب إليه، لعلَّه يقبل باصطحابك إلى الحكيم أوتنابشتيم!. ليس أمامك طريقٌ أخرى، فإنْ رفض رجاءك، فعليك بالعودة من حيث أتيت، فمياه الموت، لا يعبرُها أحد.

عندما سمع جلجامش نصيحة سيدوري الأخيرة، شعر بأنّ كوّةً من الرَّجاء، قد هبطتْ عليه من السّماء، أخذ بلطته من حزامه، واندفع كالسَّهم باتجاه الغابة الممتدة على طول شاطئ البحر، لم تكن الأشجار ضخمةً كشجر الأرز، ولكنّها كانت كثيفةً، تتشابك أحياناً كثيرة، وتتقارب حيناً.

عندما وصل إلى الشاطئ، رأى السفينة ترسو قرب اليابسة، هرع نحوها، بحث في عينيه عن الملاح أورشنابي في السفينة، فلم يرَ أحداً، قفز إليها، شعر أنَّ لوحاً من الحجر يتكسّر تحت قدميه، لم يأبه به، ولم يعرْه اهتماماً. راح ينقّب بعينيه الحائرتين عن أورشنابي، وسط الأدغال المحيطة بالمكان، لم يرَ شيئاً، سمع من بعيد صدى صوتِ بلطةٍ تقطع شجرة، قال لنفسه: لأذهبنّ إليه، أساعده في العمل، فأكسب ودّه، وأنال عطفه. سار باتجاه الصوت، توقّف الصوت، قال لنفسه: لعلّه يرتاح قليلاً، هو تعب ينتظر من يعينه، سأصل إليه في الوقت المناسب، نادى بصوتٍ عالٍ قويّ: أورشنابيييي!. أورشنابيييييي!. ردّ عليه أورشنابي. التمسَ طريقه إليه من جهة الصوت، عندما وصل جلجامش، كان أورشنابي يتهيّأ لمتابعة العمل. توقّف أورشنابي عن العمل، سأل جلجامش:

- ما اسمك؟. وما الذي أتى بك إلى هنا!؟.

- فأجابه أنا جلجامش ملك أوروك، كاهن قولاب، جَلَّ حمْدك، جئت أبحث عن القصيّ الحكيم أُتنابشتيم بن أوبار توتو.

- منذ الطوفان وحتّى اليوم، لم يسأل عنه بشريٌّ قبلك!. ماذا تريد منه!؟.

- لقد أخذ الموت مني أخي وصديقي أنكيدو، بكيته ستة أيام وسبع ليالٍ، حتّى بدأ الدود يتساقط من أنفه، عندئذٍ أدركتُ، أنّه لا فائدة من البكاء، وأدركت أيضاً أنَّ مصيري سيكون كمصيره في يوم ما، صرت أخشى الموت، أراه متربّصاً بي في كلّ مكان، صار الموت هاجساً يرافقني في يقظتي ونومي، في حِلّي وترحالي، أريد أن أسمع من أوتنابشتيم، كيف قهر الموت، وكيف صار خالداً، إذا فشلت في الوصول إليه، فسأبقى هائماً على وجهي في البراري.

هو أبو البشر بعد الطوفان، ورمز التضحية والحبِّ والخلود.

- حسناً جلجامش، سترافقني بعد أن أنهي عملي، ولكنّك لن تحظَ بما تتمنّاه.

- عليّ أن أحاول أورشنابي، حتّى لا أبقى تحت إلحاح هذا السؤال المُضني. كيف ينال الإنسان الخلود!؟. دعني أساعدك، نُنْهِ العمل بسرعة.

عادا إلى السفينة، نظر أورشنابي إلى اللوح الحجريِّ المحطّم. سأل جلجامش: من حطّم طِلسم السفينة!؟. قال جلجامش: أنا من دعس عليه دونَ قصدٍ منّي!. قال أورشنابي: جنايتك منعتك من عبور المحيط. السفينة لا تتحرّك من دونه.

يجب أن نبحث عن حلٍّ معاً، كنت متردّداً في اصطحابك، ولكنّني الآن مجبرٌ، وليس أمامي خيارٌ آخر، أحتاج إلى مساعدتك، لأعود إلى سيِّدي أوتنابشتيم القصيّ، لقد ضاع الطِلْسمُ بسبب عجلتك وطيشك. اصعد إلى تلك الأجمة من الغابة، اقطع منها مئةً وعشرين مِسْبَراً، بطول ثلاثين ذراعاً، شذّبها جيّداً، اطلها بالقار، وعد بها إليّ.

صعد جلجامش إلى الأجمة بحماسٍ كبير، وراح يعمل بهمّةٍ ونشاط. ثلاثة أيام لم يذق جلجامش طعم الراحة، بعدها عاد بالمسابر جاهزةً مطليّةً بالقار. وضعاها في السفينة، ثمّ بدأا طريق العودة.

الفصل الحادي عشر

اندفعتِ السّفينةُ فوق سطح مياه المحيط مسيرَ ثلاثة أيّام، بقوَّة التيار البحريِّ المُتَّجه من الجنوب إلى الشّمال، عندما وصلتِ السفينةُ إلى مياه الموت، هدأ التيار، سكنتِ السفينة، وكأنّها جسدٌ سكنَ فيه الموت. قال أورشنابي: خُذْ مِسْبراً جلجامش!. ثبّتْه في قعر الماء، ثمّ ادفع بالاتجاه المعاكس لجهة سير السفينة، حذارِ ثمّ حذارِ من أنْ تلمسَ يدُك الماء، بعد أنْ يهدأ عزم الدفعة، اتركِ المِسبرَ في الماء، تناولْ غيره، وافعل به كما فعلت في المرّة الأولى، وهكذا حتّى تنتهيَ المسابرُ جميعُها.

بعد مئةٍ وعشرين مسبراً وصلتِ السفينةُ إلى نهاية مياه الموت، شعر جلجامش بنسيم الهواء المنعش، يداعبُ خصلاتِ شعره، يمسح جبينَه المُتصبِّبَ عرقاً. شاهد الأمواج تتحرّك بكفِّ الريح الغربيّة. قال أورشنابي: أيْ جلجامش: اخلعْ قميصك، اصنعْ منه شراعاً، قفْ به عكس اتجاه الريح، لم يبقِ إلاّ القليلُ، حتّى نصل إلى جزيرة دَلمون.

راحتِ السفينة تندفع بليونةٍ ويُسْرٍ فوق سطح الماء. عندما اقتربتْ من شاطئ جزيرة الخلود دلمون، قال أورشنابي: لقد وصلنا، وها هو سيِّدي أوتنابشتيم، ينتظرُعودتي، انظر إليه.

بدا أوتنابشتيم أمام نظر جلجامش شيخاً طاعناً بالسنّ، وهو يتكئُ على ساعده الأيمن تحت ظلِّ شجرة. عندما شاهد أوتنابشتيم أورشنابي، ورجلاً غريباً معه يهبطان من السفينة، استوى جالساً، أمسك لحيتَه البيضاء بيده اليسرى، ووضع راحة كفّه اليمنى كواقية لضوء الشمس فوق عينيه، وراح يتفرّس في الغريب القادم مع أورشنابي، قال لنفسه: من عساه يكون هذا الغريب؟!. إنّه البشريّ الأوّل الذي يدخل سفينتي، ويصل إلى جزيرتي. ما غرضُه من المجيء إلى هذا المكان المُحرَّم على البشر؟!.

وصلا إلى حيث يجلس أوتنابشتيم، سجدَ جلجامشُ أمامه، قبّل الأرض أمامَ قدميه، كما كان يفعل شعبُ أوروك، عندما يدخل أحدُهم عليه في ديوان ملكه.

- قال أوتنابشتيم: انهض أيُّها البشريُّ الغريب!، ما أنت بحضرة الآلهة، ولا أمام ملك حتّى تسجد، أنا بشريٌّ مثلك، ولكنّكم - معشرَ البشر - تعودتُم الركوع أمام أولياء نعمتكم، تزلُّفاً منكم للوصول إلى مآربكم. مَنْ تكون؟. ولماذا حضرتَ إلى هنا؟. وما هي حاجتُك؟.

- قال جلجامش: أنا جلجامش ملك أوروك، ابنُ عجلة السماء ننسون، والمؤلّه لوجال بندا، من بيت آنو. جئتُ أبحث عن سِرّ الحياة والموت، أطلبُ الخلود الذي حصلتَ عليه أيّها الحكيم أوتنابشتيم!.

- قال أوتنابشتيم: نعم. أنا حصلتُ على الخلود، ولكنّني لم أطلبْه في يوم ما!، كنتُ رجلَ حكمةٍ، وما زلت. عشتُ حياتي متواضعاً قانعاً بما بين يديّ، لم أطلب مُلْكاً، ولا مالاً ولا جاهاً، ولم أقف على باب الملوك أستعطي القرب منهم. نذرتُ نفسي لخدمة البشر، ومحبتهم، فحفظتُ لهم بذرة الحياة خلال الطوفان، فطوّبتني الآلهة إنساناً كاملاً، وعزلتني عنهم بهذه الجزيرة، حتى لا يُفسدُني الاحتكاكُ بهم، فأخسر كمالي.

- أعرف ذلك أيّها المطوّب الحكيم!، سمعتُ من شيوخ أوروك شيئاً من هذا، ولكنّي طمعتُ بالوصول إلى الحقيقة، أسمعها من فمك الذهبيّ. فهي طِلْبةُ العقلاء، لقد أخذ الموت مني أخي أنكيدو، الذي وهبتْه ليَ الآلهةُ، فطهّر نفسي، فصرتُ بفضله إنساناً، فرحت به، فرحَك بجنّة دلمون التي وهبتك إياها الآلهة، ولكنّ نعمتي لم تدم!، ونعمتك كما أراها دائمةً!.

نعمتي زالت بموت أخي وحبيبي أنكيدو، كذّبتْ عيناي موتَه في البداية، بكيتُه ستة أيام وسبع ليالٍ، لعلّ الدموع تعيده إلى الحياة، ولكن دون فائدة!، عندئذٍ أدركت، أن قلب الموت قاسٍ قُدَّ من صخر، لا يرقُّ لدموع المحزونين، ولا يهتمّ بمشاعر المتحابِّين، أنكيدو كان الحبّ والوفاء بالنسبة لي، كان سندي في محاربة الشّر على طريق الخير في أرض البشر، أدوات الشر كانت تهرب من أمامنا، كما تهرب الفئران من أمام الثعبان.

محاربة الشرّ يحتاج إلى قوّةٍ يا سيِّدي أوتنابشتيم!، أنكيدو كان ترسي وفأسي، وسيفي ساعة بأسي. قتلنا خمبابا، وثور السماء، وقتلنا الأفعى العملاقة التي سكنتْ في جذع شجرة الحلبو، طردنا شيطانة البراري منها، وهرب منها طائر الزّو أيضاً، كلّها كانت من أدوات الشّر التي أرادت بالبشر سوءاً. وهكذا صارت بلاد أور تحيا بسلام. نسيَ الناس الشرَّ، كما نسيتُه أنا، ما دام الجميع يعيشون بأمن وسلام.

حتّى جاءني نمتار في ذلك اليوم المشؤوم، فأخذ منّي أخي وحبيبي أنكيدو، رأيته في الحلم مرَّاتٍ عديدةً، وفي كلّ مرَّةٍ كان يحكي لي قصصاً عن عذابات العالم السفليِّ، وعن الحياة الصعبة التي يعيشها أهله، الناسُ يلبسون الطينَ، ويأكلون طحالبَ المياه الآسنة، أفاعي عملاقةٌ تزحف على أجسادهم، عقاربُ سامَّةٌ تغرز إبرها في أجسادهم، لا يعرفون الراحة، ولا النوم. عندئذٍ أدركت أنّ الحياةَ قبضُ الريح، ما هي إلاّ ملعقة عسلٍ تدبّ حلاوتها في أفواهنا بضع ثوانٍ، ثم يتلاشى طعمُها، ليحلّ محلّها علقمُ الموت الدائم. منذ ذلك اليوم، وهاجس الموت يلاحقني، يتراءى أمامي ليلَ نهار، كترائي الدودِ الذي سقط من أنف صديقي وأخي أنكيدو، بعد سبعةِ أيَّامٍ من وفاته.

جئت إليك يا سيِّدي أوتنابشتيم، لترشدني إلى سرّ الحياة الأبديِّة، الذي نلتَها بعد الطوفان. لقد عبرتُ إليك جبالاً عاليةً، ووديانـاً عميقة، وسهولاً واسعةً شاسعة، أنهاراً وبحاراً قطعت، واجهتُ خلال رحلتي كلَّ المصاعب والأخطار، أسوداً ونموراً، وضباعاً وفهوداً، واجهتُها بعزيمتَيْ الأمل والرجاء، فتغلّبت عليها، فلا تخيّبْ رجائي بك، ولاتصدَّني عنك، يا أوتنابشتيم!، يا مُحِبَّ البشر.

- قال أوتنابشتيم: لكلّ شيءٍ بدايةٌ ونهاية، فإذا كانت الولادةُ بدايةَ الحياة، فالموتُ نهايتُها، كلُّ شيءٍ إلى زوال وعدم يا جلجامش!، فلا بيت نبنيه يبقى إلى الأبد، ولا مالَ نرثه يخلد، والليل ينقشع أمام ضوء النهار، وكلُّ أخ سيفارق أخاه إلاّ النجوم، لأنَّها أيقوناتٌ للآلهة في السماء، الآلهة فقط هي الخالدة، كلُّ الأحياء في البرّ والبحر، سيكون مصيرها الموت، هذا هو القانون الذي وضعتْه الآلهة منذ بدء الخليقة، إنّه القانون الكونيُّ الأبديِّ، فلماذا تتعبُ نفسَك يا جلجامش!؟. الفناء للبشر، والخلود للآلهة. النوم يشبه الموت، فلماذا تطلب النوم، وترفض الموت!؟.

- النوم خير للجسد أيُّها الحكيم!، يرتاح خلاله من عناء العمل، يجدّد نشاطه، هو حاجة من حاجاته، أمّا الموت فيعطّلُها إلى الأبد!. النوم نعمة والموت نقمة.

- والموت نعمة أيضاً!، به يتساوى الملوك والعامّة، والأغنياء والفقراء، والظالم والمظلوم، به تنتهي حياة المعذّبين، فيخلصون من عذاباتهم.

على الأرض تتعاقب الأجيال لتعمرها، كلّ جيل يضيف إليها إبداعاتِه الجديدةَ متجاوزاً إبداعات الآباء والأجداد. ولكيلا تتعطّل عجلة الحياة عن الدوران، بسبب الصراع بين القديم والجديد، وجِدَ الموت، لينهي الصراع لصالح الجديد دوماً. صراع الموت والحياة، قانونٌ من قوانين الكون الأبديّة أيضاً.

عُدْ يا جلجامش من حيث أتيت، فما تطلبه تنوء بحمله الجبال، فكيف البشر!؟. لا تضيّع حياتك مع عَبَثِ الأقدار، اطلب ما تستطيع فعله، واترك ما لا تستطيع.

- أجاب جلجامش: أيْ أوتنابشتيم الحكيم!، أنتَ رجلٌ مثلي، صورتي مثلُ صورتك، سواء أكنت مُضَّجِعاً، أم واقفاً على قدميك؟، إحساسك مثل إحساسي، لا أرى بك شيئاً يميّزك عنّي، أخبرني، كيف نلت رضا الآلهة!؟.

- لم أطلب رضاها، جلجامش!. ولم أسعَ إلى الخلود بقدميّ، كما تفعل أنت الآن، الخلود هو من سعى إليّ، عشتُ حياتي في شورباك كبقيّة الناس العاديين، متصالحاً مع نفسي، ومع الآخرين من حولي، متواضعاً عفيفاً مُحبّاً للآخرين، قانعاً من الدنيا بنصيبي منها، لم أكنْ ملكاً، ولا وزيراً للملك، ولا تاجراً، ولا محارباً، كان شعاري (خبزُنا كفاف يومنا). أمام هذه الحياة البسيطة الهادئة، التي كنتُ أعيشها، كانت شورباك مدينةً تضجُّ بالحركة، تتحرّك فيها عجلة الحياة بسرعةٍ وصخَبٍ شديدَين، صناعتُها مزدهرة، تجارتُها رائجة، سكّانها يزدادون يوماً بعد يوم، أسواقُها غارقة بالحركة في الليل والنهار. تكدّستْ بها الثروات، وتجمّع المال في أيدي رجال الأعمال، فصارت قيمة الإنسان فيها، بما يملك من ثروة ومال، ومع ازدياد الثروة والرخاء، ازدهرتِ الرذيلةُ، فصارت شورباك غابةً، القويُّ يأكل الضعيفَ. وكنت وسط هذا البحر الاجتماعيِّ المضطرب، أعيش حياتي، أسمع أنين الأيامى، وأرى بؤس اليتامى.

رأتِ الآلهة ما يجري في المدينة من فساد، فأرادتْ معاقبة المدينة وما حولها من البلدان، اجتمع الآلهة الكبار(الأنوناكي) برئاسة الإله آنو، والمستشار الإله أنليل المحارب، و نِنُورتا وإيا وشمش وإنكي وعشتار.

- قال إنليل: إنّ منظر البشر، بات يُعمي البصر. ضجيجهم يُصمُّ الآذان، وأفعالهم تقشعرّ منها الأبدان، هم لا يهدؤون، لا في الليل، ولا في النهار، لقد جفا النوم أجفاني، فضوى كياني.

ونحن - معشرَ الآلهة - لن نجد سبيلاً إلى الراحة، مادمنا نعاملهم بالسَّماحة، فلنعاقبنّهم عقوبةً تريحنا منهم إلى الأبد، لنرسلْ عليهم الطوفان الذي تشيبُ منه الولدان، فيغيب ذكرهم، ويهدأ شرّهم.

وافقتِ الآلهة على المقترح بالأكثريّة، ما عدا الإله إيا الذي رفض المقترح، وشمش الذي لزم الصمت.

في اليوم الثاني، جاءني الإله إيا الرَّحيم في الحلم، وحدّثني بألغاز، استطعتُ فهمَها، فقال: (يا بيت الحصير، يا بيت الحصير، أيّها الجدار أيّها الجدار، يا رجل شورباك يا بن أوبارا توتو، اهدم بيتك، اهجر كلَّ ما تملك، واحتقر متاع الدنيا، وانجُ بنفسك، ابنِ سفينةً كبيرةً، تتسع لك، ولمن معك، وإليك مقاييسُها!. ليكنْ طولُها يساوي عرضها، وكذلك ارتفاعها، بما يعادل مئة وعشرين ذراعاً، واجعل لها سقفاً مُحْكماً، يقيها من ماء المطر. وبعد الانتهاء من بنائها، اجمعْ فيها زوجين اثنين من الأحياء، وبذوراً للنباتات، من قمح وشعير وفول وعدس.....، واصحب معك زوجك، والصالحين من أبنائك وبناتك).

- قلتُ: ربّي وإلهي إيا!. ماذا أقول للناس، إن سألوني عمّا أفعل!؟.

- قُلْ لهم: لقد علمت أنّ الإله أنليل غاضب عليّ، ولن أجرؤَ بعد اليوم على البقاء في أرضه، سأذهب إلى الخليج، لأعيش في أرض إلهي إيا. وعلمتُ أيضاً بأنَّ الإله أنليل، سيغدق عليكم خيراً كثيراً من دوني، أسماكاً نادرة، دجاجاً بريّاً وبطّاً أيضاً، حصادكم سيكون وفيراً، وقمحكم تأتي به الرياح من غير تعب، ولا عناء.

في الصباح الباكر، نهضتُ مع أهل بيتي، وزّعت عليهم المهامَّ، واستأجرت نجارين ماهرين. في اليوم الثاني بدأ العمل، لم أهتمَّ بكلام الناس، ولا بسخريتهم منّي، تابعت العمل بكلِّ هِمّة ونشاط، وما إن أتى اليومُ العاشر، حتّى

كانت قاعدةُ السَّفينة جاهزةً، والأضلاعُ منتصبةً من جهاتها الأربع، قسّمتها إلى ستة طوابقَ، فأصبح مجموعُ سقوفها سبعةً، وكلّ سقف بمساحة مقدارها: 360 متراً مربّعاً، وكلّ أرضيّة قسّمتُها إلى تسعة أقسام، ضممتُ الألواح إلى جوانبها، وحصّنتها بمصدّات المياه، طليتُها بالقار، وزوّدتها بالمجاذيف، وركّبت على ساريتها أشراعةً قويّةً واسعة.

بعد ذلك نحرتُ عجولاً كأضاحي للإله إيا، وسكبت خمراً، ليشرب ويأكل كلّ من ساهم معي في العمل، كما لو كان يوم عيد.

بقي أمامي أهمُّ عملٍ، هو إنزال السفينة إلى الماء، بذلتُ مع العمال جهداً كبيراً، حتّى تمّ لنا ذلك، غمر الماء ثلثيها، وبقي ثلث فوق سطح الماء.

أحضرت عتَّالين، نقلوا إلى السفينة كلّ ما أمرني به ربّي إيا، من حيوانات وبذور وطيور، ووضعوها في الأماكن المخصّصة لها، حتّى تمّ كلّ شيء، ثمّ نقلت كلّ ما أملك من أثاثٍ وذهب وفضّة، زادتْ عندي عن كلفة بناء السفينة. وأخيراً أدخلتُ إليها زوجتي والصالحين من أهل بيتي.

حدّد ليَ الإلهُ شمش السّماويُّ علاماتِ مجيء الطوفان. هدوءٌ تامٌّ، تعقبه غمامة سوداء، تحجب أشعّة الشّمس، فيتحوّل النهار إلى ليل. قال لي: عندئذٍ، ادخلِ السفينة، واغلقْ نوافذها وأبوابها بإحكام.

عندما شاهدتُ تلك العلاماتِ، دخلتُ السفينةَ، وسلّمت قيادها إلى الملاح بوزوعموري.

كان حُدُد ربّ المطر، يركب سحابةً سوداء، يحثُّها باتجاه شورباك، بصوت رعده الذي يصمّ الآذان، ولمع برقه الذي يخطفُ الأبصار.

اقتلع نرجالُ زوجُ أريشْ جيكال إلهة العالم السّفليِّ السّدود، ففاضتْ المياه، تكتسح كلّ شيءٍ أمامها، رفع الأنوناكي مشاعلهم، فأضاءت الأرض.

خلال دقائق معدودات تحطّمتِ المدينةُ، كما يتحطّم إناءُ الفخار، استمرّتِ الزوابع يوماً كاملاً، تكتسحُ في طريقها كلّ شيء، لم يعد الرجلُ يبصر أخاه، ولا زوجَه ولا بنيه.

أمّا الآلهة فقد انكمشوا على ذواتهم، وربضوا كالكلاب المذعورة. صرختْ عشتار بصوتها العذب: وا أسفاه على ما اقترفتْ يداي من غلط!، لقد ذهب كلّ شيءٍ مع ريح العاصفة، أليستْ تلك الجثثُ التي تطفو على سطح الماء

كبيوض السمك، هي جثثُ أبنائي القتلى، لماذا سايرتُ أنليل على قتلهم؟، أنا من أعطيتهم الحياة ليعيشوا، لا ليموتوا على هذه الشاكلة الفظيعة. بكت لبكائها آلهة الأنوناكي، ما عدا أنليل.

هبّت الريح، ستة أيام وسبع ليالٍ، طغى الماء على كلّ ماحول السفينة ، صارت الأرض سماءً وماءً، في اليوم الثامن، هدأتِ العاصفة، وتوقّف المطر، وسكن الطوفان، وران صمت الموت على سطح العالم، وأصبح البشر عجينة بيد القدر.

كان سطح الماء يمتدّ لمسافاتٍ واسعة، وعندما فتحتُ نافذة السفينة سقط شعاع الإله شمش على وجهي، فأبهر بصري لحظةً، ثمّ أبصرت بعدها المدى المفتوح على اللانهاية.

بكيتُ برهة من الزمن، ثمّ سلّمت بمشيئة الآلهة، ولكنّي لم أقبل فكرة انعدام اليابسة من حولي!. تطلّعت إلى الجهات الأربع، لعلّي أبصر قمّة جبلٍ أتجه إليه، ليعصمني أنا ومن معي من الأحياء. سار الملاح بوزو عموري عشرة فراسخ، باتجاه الشمال، فأبصر قمّة جبلٍ، هلّل الملاح بوزو، وصاح بصوت عالٍ: فُرجت بعون الإله إيا.

هناك على سفح جبل نيصير الأعلى رستِ السفينةُ، أنزل بوزو عموري المرساة. كان الماء يطوّق قمة الجبل من كلّ الجهات. انتظرنا ثلاثة أيّام، دون أن يظهر أمامنا بصيص أمل بانحسار المياه.

في اليوم الرابع، أطلقتُ حمامةً من النافذة، حلّقت في الفضاء برهة، ثمّ عادتْ، لأنها لم تجد مكاناً تقف عليه، ثمّ أطلقت بعد يوم هُدْهُداً، طار برهة ثم عاد، في اليوم الذي يليه، أطلقتُ غراباً. طار الغراب ولم يَعُدْ. أدركت عندئذٍ، بأنّه وجد مكاناً يهبط عليه، وللتأكّد، أرسلت الحمامة مرّةً أخرى، فعادتْ بعد زمنٍ من الطيران، وفي منقارها غصن زيتون، كبرهان على سلامة البرّ من حولنا. أطلقتُ كلّ الحيوانات التي كانت معي في السفينة، وكذلك الطيور.

سجدت وصليت، وشكرت الإله إيا، الذي أنقذ الحياة على الأرض. نحرتُ الأضاحي على قمّة الجبل، وأشعلت ناراً، وسكبتُ خمراً على شرف الإلهين إيا وشمش. نصبت قدور الأضاحي، وأشعلتُ النار تحتها، وعندما صعدتْ رائحةُ الأضاحي إلى العُلا، شمّتِ الآلهة رائحتها، فتجمّعتْ كالذباب. جاءت عشتار،

خلعتْ قلادتها اللازورديّة، لوّحت بها أمام الجميع وقالت: أيُّتها الآلهةُ، سأذكر هذه الأيّام العصيِّبة، كما أذكر قلادتي هذه. تقدّموا من الأضحية، وباركوا ما قدّمه لكم أوتنابشتيم بن أوبارا توتو. تقدّم الجميع ماعدا أنليل، الذي أجرى الطوفان بثورة غضبه، ومن دون حكمة.

راح أنليل يقذف نار غضبه على الآلهة، الذين أفشَوا السّرّ، فأفلت هذا البشريّ الذي حمى بذرة الحياة من العقاب، قال لهم: سيتوالد هذا البشريُّ، وسيكثر نسله، فتعود للأرض ضوضاؤها وحركتها السابقتان، أشار بأصابع الاتهام إلى إيا، فقال إيا: أنا ما أفشيتُ السِّرَّ، حدّثت بيت القصب بالألغاز، سمعني أوتنابشتيم، ففهم مكيدة الآلهة للبشر، ففعل ما أملى عليه عقله فنجا، لقد قام بعمل عظيم، يستحقّ عليه الثناء والمكافأة، لأن عمل البطل المحارب أنليل، لم يكن عن رويّة، فلا يجوز أن يُؤخَذَ البريءُ بجرم المذنب، ولا الصالح بجريرة الطالح، كلُّ فرد مسؤول عن نتائج أعماله. وحتَّى المذنبُ، يجب أن تكون عقوبتُه بمستوى الذنب الذي اقترفه، العقوبات يجب أن تتناسب مع نوع الجريمة.

بين يديك يا أنليل!.اعقوباتٌ عديدة، كالطاعون، أو المجاعة أو الحروب، أو الأمراض المختلفة، كلّها تصلح لإنقاص عدد البشر. أعتقد أنَّ أوتنابشتيم يستحقُّ المكافأة بدلاً من العقاب، لأنّه أبقى على بذرة الحياة على الأرض، فلو فنيتْ هذه البذرة مع الفانين، الذين أخذهم الطوفان، لأصابنا الندم إلى نهاية العالم.

عندما سمع أنليل كلام إيا، ذهب عنه غضبُه، وانفرجتْ أساريرُه، تقدّم من أوتنابشتيم، باركه، وبارك زوجَه معه أيضاً.

اجتمعت الآلهة، فأُنْعِمَت عليّ في ذلك الاجتماع، بالعيش هنا وحيداً في جنّة دَلمون.

ومع ذلك لا تعتقدُ يا جلجامش أنّي أملكُ السعادةَ المطلقة، السعادة المطلقة وهمٌ نطلبه مدى الحياة، ولا ندركه!. أنا أبحث عن السعادة في خلودي الذي مللتُ منه، (جنّة بلا ناس ما بتنداس). وأنت تبحث عنها في فنائك الذي تخافُ منه. ولكنّها إرادة الآلهة، ولا معصية لتلك الإرادة!.

أنت بشريٌّ فانٍ يا جلجامش!، فابحث عن الخلود من خلال الأعمال المجيدة التي تخلّدك. بالعمل الصالح فقط، تنتصر على الفناء. وبه يصبح ذكرك مخلَّداً بين شعبك. هذا كل ما يمكنني تقديمُه لك.

- أنت مثلي أيُّها الحكيم القصيّ! من لحم ودم ولدتَ، وعلى الأرض نموت وترعرعت، ومن حكمة الحياة رضعت، ونفسَكَ للخير نذرت، فلماذا لا أكسب الخلود الذي كسبت!؟.

- طَلَبُك بين أيدي الآلهة يا جلجامش!، مَنْ سيجمعها لك، لتسمع طلبك الذي تبحث عنه!؟.

الفصل الثاني عشر

قال أوتنابشتيم: جلجامش!. منْ يطلبِ النصر على الموت، يجبْ أن ينتصر على النوم أولاً، كما انتصرتْ عليه الإلهةُ ليليت، صاحبةُ العين السّاهرة التي لاتنام.

سأقدّم لكَ برهاناً على غرورك وعجزك، وأنّ ما تطلبه أعلى من قدراتك، سأدخلك في تجربة بسيطة. هي أن تبقى مستيقظاً باستمرار، لمدّة ستة أيام وسبع ليالٍ، فهل تقبل الدخول في هذه التجربة؟. أجاب جلجامش: نعم أقبل!.

جلس جلجامش تحت ظلِّ جدار، أسند ظهره إليه، ترك نظره يرحلُ حُرّاً في الأفق الواسع السّاجي فوق سطح الماء، الذي يطوّق الجزيرة على مدّ البصر في كلِّ الأمداء. بضع دقائق، راح النعاسُ يغازل جفنيه، فبدأ يحرّك رأسه إلى الأمام وإلى الخلف.

- قال أوتنابشتيم لزوجه: انظري إلى هذا الرجل الذي جاء يطلب الخلود!.
- أيقظِ الرجلَ، واطلبْ منه أنْ يعود إلى بلده بسلام.
- لا إنَّه ككلِّ الرجال المُخادعين، سجيَّتُهم الغرور، ودأبُهم العِناد. اصنعي خبزاً، وضعي عند رأسه رغيفاً عن كلّ يومٍ يحتويه النوم، وضعي علامة على الجدار أمام كلّ يوم أيضاً.

نام جلجامش ستةَ أيام وسبعَ ليالٍ متصلة، وفي كلّ يوم، كانت زوجة أوتنابشتيم، تضع قرب رأسه رغيفاً، وترسم علامةً على الجدار، في صباح اليوم الثامن، أيقظه أوتنابشتيم، فقال جلجامش: عندما لمستني، كنت على وشك النوم!.

- قال أوتنابشتيم: احصِ هذه الأرغفة، وافحص قساوتها، وعدَّ تلك العلامات على الجدار.
- أما العلامات فهي ستٌ، والأرغفة ستةٌ، تتفاوت في طراوتها، ولكن ماذا يعني هذا!؟.

- هذا يعني أنّك نمتَ ستةَ أيامٍ وسبعَ ليالٍ.

التفت أوتنابشتيم إلى أورشنابي الملاّح، الذي أحضر جلجامش إلى الجزيرة، وقال له: الويلُ لك يا أورشنابي!. لقد غدوتَ عندي ملاّحاً غيرَ مرغوبٍ فيه، لم يعدْ لك مكانٌ في جزيرتي، خُذْ هذا الرجل إلى المغسل، لينظّفَ جسَدَه، ويخلعَ عنه جلودَ الحيوانات، أعطِه ثياباً جديدة وعُصابةَ رأسٍ أيضاً، وارحلا معاً عن جزيرتي، ولا تعودا إلى هنا أبداً.

- قال أورشنابي: لم يكن بيدي حيلةٌ ياسيِّدي!. أحضرتُه رغماً عنّي. الطِلْسمُ الحجريُّ، الذي كان يساعدني على العودة، انكسر، وكنت بحاجة إلى جلجامش، كحاجته إليَّ، لم يكنْ أمامي خيارٌ آخر.

- هذا قراري يا أورشنابي، ولا عودةَ عنه، نفِّذْ ما أمرتُك به.

بعد أن اغتسل جلجامش، وارتدى الثياب الجديدة، بدا إنساناً جديداً، ولكنّ خيبته بقيتْ تحبس أنفاسَها في داخله، تلك الخيبةُ تركتْ شجوناً في عينيه، وشحوباً في وجنتيه، رسمتْ على جبينه خطوطاً متشاجرةً مع خصلات شعره المسرّح النظيف، لتكتبَ مشاعر الخيبة التي سيحبسُها جلجامش في أعماقه إلى أمدٍ غير معلوم، ولكنّها مالبثت أن تحولتْ إلى دموع الخيبة واليأس والقنوط، كلّها تجمّعتْ معاً، لتبدأ رحلة الانعتاق من وراء جفنيه غزيرةً.

تذكّر صديقه أنكيدو، وأيقن بأنَّه لاحقٌ به في يوم من الأيَّام. تنهّد بعمقٍ، وهو يركب السفينة مع أورشنابي، هي المرّة الأولى، التي يتذوَّقُ فيها مرارة الإخفاق بعد أن تعوّد على حلاوات النجاح.

أمّا أورشنابي، فكان يحمل الندم والحسرة على طعم عسل جنّةِ دَلمون الضائع من بين يديه. سيتذوّقُ من الآن فصاعداً، وحتى نهاية حياته، طعم العسلَ المرّ على طريق الحياة الدنيا.

أطلق أورشنابي السفينة، بعد أن رفع مرساتِها من الماء، في الوقت الذي كانت زوجة أوتنابشتيم تتأمَّلُهما بعطف وشفقة، قالت لزوجها: لقد أنهك التعب جلجامش، جاء من بلاده البعيدة، بعد أنْ قطع المسافاتِ الشاسعةَ، جبالاً عالية، ودياناً سحيقة، تعرّض لأخطارعديدة، هلاّ أعطيتَه شيئاً، يُجْبرُ خاطره، ويفرّج كربه؟!. شيئاً يُعزِّز ثِقَةَ شعبه به. تعزيز الثقة بين الحاكم والمحكوم عملٌ ترضى عنه الآلهة.

ألا تراه كم يبدو حزيناً!؟. ليس هناك أصعب من الإخفاق على قلب الرجل بعد العناء والتعب!.

أطرق أوتنابشتيم قليلاً، ثم نادى جلجامش. عاد جلجامش يحمل رجاءه الأخير المحبوس في سجن نفسه المظلم، لعلّه يبصر كوّة من نور الأمل. قال له أوتنابشتيم: لقد عزَّ عليّ أن تعود إلى شعبك، وأنت تجرُّ أذيال الخيبة، الخيبة التي لم يتعوّد عليها شعبك منك، دائماً كنت في نظرهم الرجلَ الجسورَ الفوّاز بما تطلب. سأعطيك نبتةً، تُعيدُ الشيخَ إلى صِباه مرّة واحدّة فقط طوال حياته، فإذا تناول منها مرّةً ثانية، موتاً يموت خلال ساعاتٍ قليلة. اغطس في هذا الخليج، ستجد نبتةً شوكيّةَ الملمس عطريّةَ الرائحة. اقطع منها غصناً، وعُدْ به إلى شعبك، حتّى لا تهتزّ مكانتُك في نظرهم.

فغر فاهُ جلجامشَ، فتح أجفانَ عينيه، ودون أنْ ينطقَ بكلمةٍ، وثبَ إلى الجرف الصخريِّ العالي، الذي يُطِلُّ على مياه الخليج، ربط حجراً إلى إحدى رجليه، رمى بجسِده في الماء، غاص إلى الأعماق بسرعة، هناك وجد النبتة، تعطّر الماء بأّريجها الخاص، نزع أكبر أغصانها، وصعد به إلى فوق، تنفَّس الصعداء، طرح الخيبة واليأس مع زفراته المتعبة، توجّه إلى أوتنابشتيم.

تأمّله أوتنابشتيم بعين الشفقة، ثمَّ قال لزوجه: البشر فطروا على الطمع، انظري إليه. اختار أكبر الأغصان، دون أن يدري، بأنّ القليل منها والكثيَر سواء.

شكر جلجامش أوتنابشتيم وزوجه، وعاد إلى السفينة. راح يحدّثُ أورشنابي عن أحلامه القادمة. سيحكم أوروك ملكٌ شابٌّ، يملك حكمةَ الشيوخ، وقوةَ الشباب وطموحَهم، لن يقع في أخطاء الصِّبا العابث اللاهي، التي وقع فيها في الماضي. ستكونُ أنت صديقي الأقرب لي، كما كان صديقي أنكيدو.

- قال أورشنابي: ولكن يا مولاي!. ستجد الكثيرين من شيوخ أوروك، قد لحقوا بصديقك أنكيدو إلى العالم السفليّ، ستشعر بأنّك تحكم مدينةً غيرَ المدينة التي تركتْها منذ زمنٍ بعيد، ستجد زوجك نيكال، قد هرمتْ وشاب شعرُ رأسها، وابنك أور نيكال صار شاباً، ربّما يكون الآن هو الملك!. قد لا يعترفُ بك ملكاً عائداً من جنة دَلمون، عندئذٍ ستفسد السلطة عليكما صفاء الأبوة، وطهر البنوة.

- لا يهمّ أورشنابي!. سأحتفظ بهذه النبتة، حتى أصل إلى أوروك، سأطعم منها شيوخ أوروك الباقين منهم على قيد الحياة أولاً، سآكل منها أنا وزوجي نيكال ثانياً، فنعود شابين وسيمين جميلين، كما كنّا قبل خمسين عاماً. ستعود نيكال، صبيّة مثيرةَ الجمال، ترشح الأنوثة من جسدها، كما كانت يوم التقيتُها لأوّل مرَّةٍ، سأرحل بها إلى غابة إيتاكاما، بعيداً عن الملك والسلطة، سأبني لها هناك كوخاً جميلاً، سنمضي أياماً حلوة في الغابة، مازالت ذكرى تلك الأيام الممتعة الحلوة، تعشّش في خيالي، وتمدّني بأحلى المشاعر.

وهكذا تحفظ أوروك في ذاكرتها، ملكها جلجامش، الذي أعاد شيوخ أوروك إلى شبابهم، ولم يُؤْثِرْ نفسَه على أيٍّ منهم. سيكون في أوروك مجلسُ شيوخ جديد، أعضاؤه شبابٌ، يملكون خبرةَ الشيوخ التي تحتاجها المملكة، لتكون مزدهرةً وقويّة.

سوف نعيش الحياة بطريقة جديدة، سوف نتجنّب أخطاءنا السّابقة، سنبني الحياة بأسلوبٍ جديد، وبخبرةٍ أنضجتْها التجاربُ، بسواعدَ شابَّةٍ تعشق الحياة. ستكون أوروك المدينة الأفضل والأجمل والأغنى، والأهنأ، والأسعد بين المدن، ستكون درّةَ العالم على مرّ العصور.

لم يبقَ أمامنا الكثير يا أورشنابي!. عندما نصل إلى أوروك، سترى سورها العظيم. يجب أنْ أدخلَ أوروك نظيفاً، سأعانقُ زوجتي نيكال برائحة جنّة دَلمون، لا برائحة عَطَن البراري المقفرة. لأنزلنَّ إلى ماء هذا الغدير العذب الصافي، أغتسل من غبار السفر الطويل، من الغلط أن أضمّ نيكال إلى صدري، ورائحة العرق المشوب بالغبار تنزُّ من مسامِّ جلدي .

ألقى جسدَه في الماء بحماسةٍ، استرخى في أحضانه، وراح يرسم بخياله لحظاتِ اللقاء السعيدة. أغمض عينيه. واستسلم لنداوة الذكريات، التي حفرتْها أحداث النجاح برفقة نيكال وأنكيدو. قال لنفسه: يا ليتني حصلتُ على هذه النبتة عندما كان أنكيدو يحتضر!.

الأمر الأهمُّ أنَّ نبتةَ عودةِ الشيخ إلى صباه ملكُ يميني، سأمنحها لكلِّ من يحتاج إليها من شعب أوروك، ولكنّي سأمنعُها عن أشخارا، لتبقَ عجوزاً شمطاء تجترُّ الغَيرةَ داخل جدران معبد عشتار بعيداً عن الصِّبا والشّباب.

في هذه اللحظة، تراءتْ في خياله الإلهةُ عشتار، قالتْ له: ويحَكَ جلجامش!. كيف تتجرّأ على قانون الحياة، قانون الحياة ملكي أنا، بيَ تبدأ الحياة، وبنمتار تنتهي!. سأسرق منك أحلامك. سأحطّم كبرياءك كما حطَّمتَ كبريائي.

استيقظ من أحلام اليقظة، خرج من الماء، فوجد قرب ثيابه جلدَ حيّةٍ أفعى، حديثَ العهد، بحث عن نبتة عودة الشيخ إلى صباه، فلم يجدْ لها أثراً. لقد أكلتْها الحيّةُ، فجدّدت صباها. عندئذ أدرك بأنّ عشتار المتقمِّصة بصورة أفعى، قد سرقتِ الحلم بلحظة غفلة.

لطم خدّه، شدّ شعره، بكى حلمه الضائع بحسرةِ أمٍّ فقدت ولدها، راح يحوم في المكان كنمرٍ جريح، قال لأورشنابي: ماذا سأفعل يا أورشنابي!؟. ضاع الحلم الذي حملتُه خلال رحلة العودة إلى أوروك، كلّ ذلك بسبب إهمالي، وأنا الحريص على قطف ثمار نجاحاتي، لو بقيت نبتةُ جنّة دلمون معي، لخلّدتُ ذكري إلى الأبد، بعملٍ لم يسبقني إليه أحد، ولكن وا أسفاه ضاع الحلم في اللحظة الأخيرة.

- قال أورشنابي: لا تحزنْ يا مولاي. يكفيك فخراً بأنّك حاولتَ، أنت ملك أوروك، سيِّد قولاب وكاهنها، جلَّ حمدك المطوَّب، قاتل خمبابا، وثور السماء، والأفعى العملاقة، باني سور أوروك العظيم، أنت البشريّ الوحيد الذي زار جزيرة دلمون، ورأى أوتنابشتيم فيها، كما رأى الرجل العقرب وسيدوري، كلّها أعمال ترفعك إلى مصافِّ العظماء من الرجال، بل أنت أعظمهم، لأنّه لم يفعلْ أيٌّ منهم ما فعلت، فلماذا تعذّب نفسك؟، امض إلى أوروك، ولسوف أقصُّ على شعب أوروك، كلَّ ما قمتَ به من أعمال مجيدة تخلّدك في ذاكرة الأجيال المتعاقبة. فلماذا تخاف الموت!؟.

- لأنّي سقيتُه لغيري، بيدي ويد أخي أنكيدو، كنّا لا نخشاه ما دمنا معاً، ولكن بعد أن مات أخي أنكيدو صرت عاجزاً عن فعل أيِّ شيء نافع، ولن أستطع فعلَ أيِّ شيء له قيمة بعدالآن. لو كان معي أخي أنكيدو لما ضاع الحلم. والآن لم أدر متى سأشرب من الكأس التي شرب منها أخي أنكيدو.

كنت في كلّ مرَّةٍ أقتل خصماً من خصومي، أشعر بالاعتزاز، لأنّي كنت أعتقد بأنّي اقتلعت شوكة من أشواك الشّرَّ في الحياة. فهل كنت محقّاً فيما

فعلت؟! ماذا سيقولون عنّي، إن تمكّن منّي أعدائي في يومٍ ما؟. لاشكَّ بأنّهم سيقولون: إنَّنا قتلنا الشَّرَّ المُخبّأ في نفس جلجامش؟. الخيرُ والشّرُّ، لا يخضعان لمعاييرَ ثابتةٍ في الحياة البشريّة يا أورشنابي.

سأشرب كأس الموت في يومٍ ما، سيتقدّم منِّي نمتار بلا قدم، وسيقبض روحي بلا يدٍ، فإنْ أتاني وأنا في غفلة عنه، فقل له: جلجامش يقرئك السلام، ويرجوك أنْ تقبض روحه وهو واقف على قدميه، لا تجعلْه يتعذّب، كما تعذّب صديقُه أنكيدو.

مات جلجامش، أُنزِل إلى باطن الأرض، فصار النور ظلاماً من حوله، ولكنَّ نوره، بقي خارج القبر يفيض في أوروك وما حولها من البلدان.

- قال له نمتار: الفناء قدرك يا جلجامش!، فلماذا طلبتَ الخلود؟!. ألا يكفيك ما بلغتَ من سطوة الملك؟، وما ملكتَ من قوة الجسد، وعلوّ الهمّة؟، وسِعةِ المعرفة عن أخبار الناس قبل الطوفان وبعده، طفتَ في مشارق الأرض ومغاربها، شاهدتَ غرائب الأمصار وسمعتَ نوادر الأخبار، وعرفتَ الأسرار. فارقدْ هنا في هذا القرار، وليكنْ لك خيرَ دار. ارقدْ جلجامش!. فلن تقوم من هذه الحفرة بعد اليوم. كنتَ الأقوى بين الأحياء فقهرتَ من قهرتَ منهم، واليوم يقهرُك الموتُ، لأنّه أقوى من الأحياء كافةً. ارقدْ جلجامش لتهزِمَ جسدَك دودةٌ ضعيفةٌ صغيرةٌ. يكفيك فخراً بأنَّك كسبتَ خلود الذكر بدلاً من خلود الجسد.

النهاية

المراجع التاريخية:

ملحمة كلكامش: للباحث الناقد طه باقر.

المكتبة القبطيّة الأرثوذكسيّة، للأستاذ حلمي القمّص يعقوب.

ملحمة جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكّادي، الدكتور نائل حنون.

ملحمة جلجاميش نقلها إلى الإنكليزيّة.n k sandars (ن. ك. ساندرس) وترجمها إلى العربيّة. محمّد نبيل نوفل. و فاروق حافظ القاضي.

ملحمة جلجامش. فراس السّوّاح. نقلها عن الإنكليزيّة: سامي سعيد الأحمد.

مغامرة العقل الأولى: فراس السواح.

فهرس أسماء شخصيات الرواية :

لوجال بندا : الملك الثالث لأوروك بعد الطوفان، زوج الإلهة ننسون، ووالد الملك جلجامش.

ننسون: إلهة أرضيّة ، بنت الإله إيا وزوجة الملك لوجال بندا ، وأمّ الملك جلجامش.

جلجامش: ملك أوروك الخامس بعد الطوفان، ابن لوجال بندا ، وننسون.

الشيخ ترحاسيس: وزير لوجال بندا.

الشيخ أنمركار: وزير الملكة والإلهة ننسون.

بوقو: المنادي الذي يذيع الأوامر الملكيّة.

بوقجار: حاجب الملكة ننسون.

غزلانو: زوجة الشيخ ترحاسيس.

شنشور تو: جابي الضرائب لدى المملكة.

عاميرو: مهندس عمارة، أشرف على بناء قصر الإيجلماه وسور أوروك.

كلامو: قائد الجيش في أوروك.

الشيخ كابار: قيّم بيت المال.

شوناترا: فارس محارب، ترقّى إلى منصب قيادة الجيش، في عهد الملك جلجامش.

إيتاكاما: ناسك للإله أنليل، مدرّب جلجامش على فنون القتال، وصار وزيراً أول في عهده.

أنات: ابنة إيتا كاما ، وزوجة شوناترا.

شامات: ابنة شوناترا وأنات.

أوبارا: ابن شوناترا وأنات.

أور توتو: شيخ الرعاة وكبيرهم.

أشخارا: الكاهنة الأمّ في معبد عشتار.

نيكال: بنت من بنات عشتار، وخليلة الملك جلجامش، وزوجه فيما بعد، أنجب منها ولده، أورنيكال.

إيلوماإليش: قصّة الخلق الرافديّة.

شمتار: محارب من أوروك.

إشماريا: معلم الحساب، ومدقّق حسابات بيت المال.

شاميرا: وصيفة الملكة ننسون،

أدريخي: اسم كاهن معبد إيا.

أنكيدو: ابن البراري، صديق الملك جلجامش.

شمخة: بنت من بنات عشتار. أحضرت أنكيدو إلى أوروك من البراري، وتزوّجا فيما بعد.

شامير: شاب من أوروك.

شامتور: كاهن معبد شمش.

شنشتور: كاهن معبد أنليل.

إليانا: كاهن معبد آنو.

أوتنابشتيم: منقذ بذرة الحياة أثناء الطوفان

أورشنابي: ملاح السفينة التي نقلتْ جلجامش إلى جزيرة دلمون.

بوزو عموري: ملاح سفينة أوتنابشتيم خلال الطوفان.

أسماء الآلهة الواردة في الرواية :

نمتار: من شياطين العالم السفلي، مهمته قبض أرواح الأحياء، وأخذها إلى العالم السفلي.

أريشْ جيكال: إلهة العالم السفلي.

بليت شيري: ماسكة سجل الأموات في العالم السفلي.

أورورو: الإلهة الخالقة للبشر.

آنو: إله السماء، وصاحب الشعاع الثاقب. زوجته أنتوم.

إيا: إله المياه العذبة والمعرفة والحكمة.

أنليل: إله الهواء الذي يفصل الأرض عن السماء، وهو إله محارب سلاحه العواصف والرياح الشديدة. زوجته ننليل.

عشتار، ابنة آنو وأنتوم، إلهة الخصوبة.

دوموزي: ويلقب بالإله الراعي، زوج عشتار.

السموقان: إله القطعان والمواشي.

أُدُد: إله الأمطار.

نيسابا: إله القمح.

سيدوري: إلهة الخمرة، وصانعتها للآلهة.

أندوني: إله كنعاني عرف في بلاد الإغريق، باسم أند

أسماء الأماكن الواردة في الرواية :

أوروك أو الوركاء، مدينة في جنوب العراق ، على ضفة نهر الفرات.

عيلام: جنوب غرب إيران،

أوغاريت: مدينة على الساحل السوري، تعرف الآن برأس شمرة، حيث عُثِر بها على أقدم أبجديّة في التاريخ البشري.

ماري: مدينة معاصرة لأوغاريت وأوروك، تقع على نهر الفرات، قرب مدينة الميادين السورية.

إيبلا: في محافظة إدلب السورية، تعرف اليوم بتل مرديخ. معاصرة لماري وأوغاريت.

الإيدابا: بيت الألواح، حيث يتعلّم الصبيان الكتابة.

الإيجالماه: قصر الملكة ننسون وجلجامش في أوروك.

سبار: اسم علم لنهر.

كيش: مملكة معاصرة لأوروك، وملكها أجا كان طامعاً باحتلال أوروك.

بيت قاب: بلدة قريبة من أوروك.

إيكور، إريدو، ننتور، ذيبارا: شورباك، أسماء مدن محيطة بأوروك.

سَرَيون : جبل حرمون، أو سلسلة لبنان الشرقيّة.

لابان: جبال لبنان الغربيّة.

واحة اللصوص: واحة على طريق أوروك غابة الأرز.

حاذر، كفر جندل: اسمان لبلدتين على الطريق ذاته.

دمشقو: دمشق

الذراع: مقياس طول، بمعدّل 48 سم.

الساعة المضاعفة: تعادل 11 كم.تقريباً.

المحتوى

الإهداء 5
الفصل الأوّل 7
الفصل الثاني 31
الفصل الثالث 45
الفصل الرابع 63
الفصل الخامس 69
الفصل السّادس 97
الفصل السابع 115
الفصل الثامن 127
الفصل التاسع 139
الفصل العاشر 151
الفصل الحادي عشر 161
الفصل الثاني عشر 171

عودة جلجامش/ مطانيوس مخول. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2020.
– 183ص؛ 20سم. – (سلسلة الرواية، 6)

1 – 813.03 م خ و ع 2- العنوان 3- مخول 4- السلسلة
مكتبة الأسد